

الباب الرابع

نفوذ المعتزلة والصراع مع علماء أهل السنة والجماعة:

الفصل الأول:

الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين

للسعوية والزندقة

الفصل الثاني:

محنة خلق القرآن: عواملها ونتائجها

الفصل الأول:

الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للسعوية والزندقة

1) مقدمة

عندما يجري الكلام عن العصر العباسي الأول تردد دائما مصطلحات مثل الشعوية والزندقة وعلم الكلام والمعتزلة ومحنة خلق القرآن وما يشابهها. ونتساءل هل توجد علاقة بين هذه المفاهيم، أو بصورة أدق هل توجد علاقة بين انتشار الزندقة والشعوية في العصر العباسي الأول وازدهار علم الكلام في جانب، وهل توجد علاقة بين نمو المذهب المعتزلي ومكافحة العباسيين للزندقة والشعوية في جانب آخر؟ فهذا محور اهتمامنا في هذا الفصل الذي سمّيته "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعوية والزندقة". وسنحاول بإذن الله تعالى قدر ما نستطيع أن نجيب عن هذه التساؤلات بحيث سنتمكن من تقديم صورة واضحة عن تدهور وانتكاس العلاقات بين العلماء والحكام تقديما عمليا أكثر منه نظريا. وذلك لأننا لا نقصد بتعبيرنا "الفصل" حيلولة تامة بين الطرفين كما ذكرنا، كلا، إنما نقصد بذلك ارتقاء وانتكاس وضعف العلاقات بينهما حيث تعامل الحكام دائما مع عدد كبير من العلماء، إلا أن هؤلاء إما لم يكونوا من ضمن القيادة العلمية الحقيقية للأمة الإسلامية أو كانوا من غير صفوف علماء أهل السنة والجماعة.

(2) نشأة علم الكلام

يعرف علم الكلام بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعين المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.¹ وموضوعه عند المتقدمين ذات الله تعالى وصفاته، وقيل موضوعه الموجود من حيث هو موجود. وعند المتأخرين المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا.² وكان علم الكلام في أول أمره يقتصر على احتجاجات ضيقة النطاق يحتج بها الفقهاء ضد أهل البدع ومن اهتموا بالزندقة لرد دعواهم وإبطالها. وتكاد حججهم تقتصر على ما يناسب الموضوع من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فكان علم الكلام بهذا الاعتبار جانبا من علم الفقه.³

ولنشأة وإثارة مسائل علم الكلام ثم بعد ذلك صيرورتها علما مستقلا واسع المدى أسباب بعضها داخلي وبعضها خارجي. ويقصد بالأسباب الداخلية ما صدر من طبيعة الإسلام نفسه والمسلمين أنفسهم، وكذا طبيعة تطور الحياة الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية. ويقصد بالأسباب الخارجية ما ولج في حياة المسلمين الداخلية من العناصر الراجعة إلى الثقافات الأجنبية والديانات المختلفة غير الإسلام. ومن تلك الأسباب وجود التشابهات في القرآن الكريم. وقد حاول الكثيرون تأويلها، وخاصة تأويل الآيات التي تتعارض في الظاهر، والوصول إلى إدراك الحقائق المخفية فيها. وأراد غيرهم أن يؤولوها ولكن ابتغاء لفتنة وتفرقة كلمة المسلمين. قال الله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه

¹ للمقدمة ص458.

² أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ج2 ص132، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.

³ أنظر أحمد عبد الباقي: معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري ص238، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1991م.

منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. وما يذكر إلا أولو الألباب⁴

ومن تلك الأسباب أن القرآن نفسه يرد على المشركين والكافرين والمنافقين بمختلف الدلائل وينقض قولهم. قال الله تعالى على سبيل المثال: {وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتنوا بآباءنا إن كنتم صادقين. قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون}⁵ وقوله تعالى: {كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}⁶

ومن تلك الأسباب طبيعة تطور الحياة الفكرية الدينية في ساحة الفكر الإسلامي. فباتساع رقعة الدولة الإسلامية تراكمت الأوضاع والوقائع التي أجبرت العلماء المسلمين على الجواب عنها بأحوبة مستمدة من النصوص الإسلامية. وإن كان ذلك غالباً متعلقاً بالفقه وآفاقه فإن نتائج هذا التطور قد شجع كثيراً من المسلمين على التدخل في نقاش قضايا العقيدة كمثل مسألة قدرة العبد بجوار قدرة الله تعالى المطلقة، ومسألة صفات الله تعالى وغيرهما. إن هذا السبب مربوط بسبب آخر خارجي وهو مجاورة المسلمين لأهل الديانات الأخرى واعتناق هؤلاء الإسلام. وقد دخل كثير منهم في الإسلام كاليهود والنصارى والمجوس وكانوا لا يزالون يحملون أفكارهم الدينية الباقية من دياناتهم القديمة. فقد سلك هؤلاء طريقة التعرف على الحقائق الإسلامية على ضوء معتقداتهم القديمة فأثاروا بين المسلمين ما كان يثار في دياناتهم من الكلام في صفات الله تعالى وفي الجبر والاختيار وإلى

⁴ سورة آل عمران 7.

⁵ سورة الجاثية 24-26.

⁶ سورة آل عمران 93.

غير ذلك. وكان أيضا من ضمن هؤلاء من أظهر الإسلام وأبطن غيره ليفسد على الإسلام والمسلمين ويث الأفكار المنحرفة بينهم ليضعفوا ويستكينوا ويفشلوا.⁷

ومن أسباب نشأة علم الكلام نشأة الخلافات السياسية المبكرة التي كانت في مستهل الأمر خلافات سياسية محضة متجسمة في ثلاث فرق: الشيعة،⁸ والخوارج⁹ والمرجئة.¹⁰

⁷ أنظر المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج2 ص78، وتاريخ المذاهب الإسلامية ص13-15،

Also see: Parviz Morewedge: Islamic Philosophical Theology: page 73, State University of New York Press, Albany 1979.

ونذكر على سبيل المثال معهد الجهنبي (80هـ/699م) وهو أول من تكلم في القدر بالبصرة. ويقال أنه أخذ القول في القدر عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له سوس. (البداية والنهاية ج9 ص36)

ونذكر أيضا الجعد بن درهم (ت124هـ/741م) وهو من الأوائل القائلين بالجبر في الإسلام. وهو أولا تلقى، كما يزعم، هذا القول من يهودي بالشام ثم نشره بين الناس في البصرة. (المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج2 ص170) وفي صدد حديثه عن ترجمة شخصية الجعد بن درهم قال ابن كثير أنه كان يسكن في دمشق وكانت له بها دار إلى جانب الكيسة. وقد أخذ بدعته بخلق القرآن عن بيان بن سحمان الذي أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن يهودي باليمن. (البداية والنهاية ج9 ص364-365)

ولا يغفرتنا أيضا قول يوحنا الدمشقي (ت132هـ/749م) من آباء الكيسة ومعلميها، الذي كان في خدمة الأمويين إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، حيث نرى كيف يعلم المسيحيين أن يجادلوا ويشككوا للمسلمين في دينهم وعقيدتهم. ويروى أنه قال لنصارى: إذا سألك العربي: ما تقول في المسيح؟ قل: إنه كلمة الله. ثم طلب من النصارى أن يسأل مسمى المسيح في القرآن وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيب المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فإذا أحاب بذلك فاسأله عن كلمة الله وروحه: أعلمة أم غير معلومة؟ فإن قال معلومة فليرد عليه بأن الله كان ولم يكن له كلمة ولا روح. فإن قلت ذلك فيسبحم العربي لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين. (أبو حنيفة: حياته وعصره - آرائه وفقهه ص85)

وستفصل الحديث عن هذا في ثنايا البحث إذا كنا في صدد الكلام عن نشأة الزندقة والشعوذة في الدولة الإسلامية مع التركيز على العهد العباسي الأول، وكيف تعامل الحكام العباسيون مع أصحابهما.

⁸ الشيعة من أقدم المذاهب السياسية الإسلامية. وقد بدأت تظهر فكرة التشيع لدى بعض الناس في آخر عصر عثمان بن عفان، وأخذت تنمو وترعرع في عهد علي بن أبي طالب وخاصة أثناء التوترات السياسية بينه وبين معاوية. ومن الذين ترجع إليهم نشأة فكرة التشيع المبكرة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم تظاهرا بغرض الكيد للإسلام وتقويض دعائمه من الداخل. وهو من الذين أخذوا بشعور السوء عن عثمان بن عفان وينادون بحق علي في الخلافة. فهو صاحب نظرية أن لكل نبي وصي وإن عليا وصيا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم الأنبياء فإن عليا طبيعيا خاتم الأوصياء. (أنظر نظام الخلافة بين أهل السنة والجماعة ص157) ولما اشتدت المظالم على أولاد علي في عهد الأمويين، وكثر نزول الأذى بهم ثارت فدايت الخبة لهم وهم ذرية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ورأى الناس فيهم شهداء الظلم فتنعوا نفاق المذهب الشيعي، وكثر أنصاره، وصارت الفكرة مذهبيا منظما ذي أصول ثابتة. والشيعة متفقون على أن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفترض إلى نظر العامة ويتعين القائم فيها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها وتقويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما عن الكبار والصغار. وانفقوا أيضا أن عليا هو الخليفة المختار من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه أفضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ولم يكن الشيعة

ولكن بمرور الوقت اصطبغت تلك الخلافات بصبغة دينية. وذلك لأجل رغبة كل فرقة في تثبيت وتقوية مواقفها ثم دحض ادعاءات خصومها، ومن أيسر الوسائل وأكثرها فعالة في ذلك المشروع الدين وتعليماته. ولأجل ذلك نرى أصحاب تلك الفرق يؤولون النصوص الدينية ويقلبونها كما يشاءون ليسوغوا أقوالهم وأعمالهم ثم ينفوا أو يتهموا أقوال وأعمال مخالفينهم.

على درجة واحدة، بل كان منهم الذين غالوا في تقدير علي وبنيه، ومنهم من وضعوه في درجة التقديس بالألوهية التي يعلنها على البشر، ومن قال ذلك السبئية، وأخرية، والمغيرة، والمنصورية، والخطائية، والمعربة، والبيان، والمفضلية، والحلولية، والشريعة، والحنانية، وكل هذه الفرق تدرج من ضمن غالبية الشيعة. ومنهم في جانب مضاد المعتدلون المقتصدون الذين اقتصروا على تفضيل علي بن أبي طالب على كل الصحابة من غير تكفير أحد، ومنهم الشيعة الإمامية والزيدية. ولما فرقت أخرى يمكن أن ندرجها من بين الاعتدال والعلو مثل الكيسانية والرافضة. (مقالات الإسلاميين ج 1 ص 65-166، الفصل في الملل والأهواء والنحل ج 5 ص 35-50، تاريخ المذاهب الإسلامية ص 30-33، فخر الدين الرازي: كتاب الأربعين في أصول الدين ص 263، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1406 هـ، الفرق بين الفرق ص 22-44)

⁹ افترق ظهور الخوارج بظهور الشيعة. فقد ظهر كلاهما كفرقة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. وقد كانوا كلهم من أنصاره، وإن كانت الشيعة فكرها أسبق من فكرة الخوارج. ظهر الخوارج في جيش علي عندما اشتد القتال بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في صفين. ثم رفع جيش معاوية المصاحف ليحكموا إلى القرآن. ولكن علياً رفض الاقتراح وأصر على القتال حتى يفضل الله بينهما. فخرجت عليه حارسة من جيشه تطلب إليه أن يقبل التحكيم، فقبله مضطراً لا مختاراً. ولما تم التحكيم اعترته نفس الحارسة التي أحبت علياً عل أن يقبله حرمته كبيرة وطلبت إلى علي أن يتوب عما ارتكب لأنه كفر بتحكيمه كما كفروا هم وتابوا إذ "لا حكم إلا لله". إن الخوارج من أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن مذهبهم، وحماة لآرائهم. ومن اعتقادهم الرئيسية أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح، يقوم به عامة الناس. ويستمر الخليفة ما دام قائماً بالعدل مقيماً للشرع مبتعداً عن الخطأ والزيف، فإن حاد وحجب عزله أو قتله. وليست الخلافة في قريش وليست لعربي دون أعجمي، والجميع فيها سواء. ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب ولم يفرقوا بين ذنب وذنب، بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنباً إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم. ومن أشهر فرق الخوارج: المحكمة الأولى، والأزارقة، والنحل، والصفرية، والعجاردة، والتعالية، والاباضية، واليهسية، والحازمية، والسبئية. (أنظر مقالات الإسلاميين ج 1 ص 167-195، تاريخ المذاهب الإسلامية ص 56-61، الفرق بين الفرق ص 45-67، الفصل في الملل والأهواء والنحل ج 5 ص 51-56، فخر الدين الرازي: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكام والمتكلمين ص 351، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984م)

¹⁰ المرحلة فرقة إسلامية مبكرة محايدة. بخلاف الخوارج الذين كفروا علياً أئمان والقائلين بالتحكيم، وبخلاف الشيعة الغلاة الذين كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم، فإن المرحلة امتنعوا عن الخوض في الخلاف السياسي، وذهبوا إلى القول بتأخير العمل عن النية والقصد، وأنه لا تضرر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقالوا أن الشيعة والخوارج والأمويين كلهم مؤمنون، بعضهم مصيب وبعضهم مخطئ. ولنا نستطيع أن نعين المصيب ولا المخطئ فلذلك ترك أمرهم جميعاً إلى الله سبحانه وتعالى. وقالوا أن مرتكب الكبيرة مؤمن لا يخلد في النار لأن الذي يخلد فيها هو الكافر. ومن أشهر فرقهم: البيونسية، والفسانية، والتوبانية، والتومية، والمريسية، والشريعة. (أنظر مقالات الإسلاميين ج 1 ص 213-234، الفرق بين الفرق ص 20)

إن علم الكلام علم جدلي والجدل لا يعرف الحدود. وإذا كان الجدل جارياً في شؤون العقيدة فإن صاحبه يتعرض للخطر العظيم لأجل غموض المسائل التي يعالجها. وبذلك يكون علم الكلام قابلاً لتعقيد المضلات وإضلال صاحبه إن أفرط ولو ثبته وإيمانه.¹¹ وهذا بالضبط ما حدث لرواد علم الكلام في آخر أيام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من مثل معبد الجهنني (ت 80هـ/699م)¹² وغيلان الدمشقي (ت 105هـ/723م)¹³ اللذان أحدثا بدعة القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر.¹⁴ وكذلك بدعة الجعد بن درهم

¹¹ وقد قال الإمام الغزالي عن الغلاة في علم الكلام في صدد حديثه عن العلماء المعتزلة: "هذه الطائفة من العلماء ضالة لغفلتها عن ضالتها وظنها بنفسها النجاسة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً. وإنما ضلوا من حيث إنهم لم يحكموا لشروط الأدلة ومنهاجها فأروا الشبهة دليلاً والدليل شبهة..." وممة طائفة أخرى من المتكلمين المعتزلة وبسميها الإمام الغزالي الفرقة الحققة، وغرور أصحاب تلك الفرقة "من حيث أنهم ظنوا بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعموا أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ولم يبحث، وأن من صدق الله من غر بحث وتحرير من دليل فليس بمؤمن ولا بكامل ولا بمقرب عند الله تعالى، ولم يلتفتوا إلى القرن الأول وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ولم يطلب منهم الدليل..." (الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين ص 214-215)

¹² هو أول من قال بالقدر في البصرة. سمع الحديث من ابن عباس وعمران بن حصين وغيرهما. حضر يوم "التحكيم" وانتقل من البصرة إلى المدينة فنشر فيها مذهبه. فكان ممن خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث سنة ثمانين على الحجاج بن يوسف ففرح فأقام بمكة فقتله الحجاج بعد أن عذبه. وقبل صلبه عبد الملك بن مروان سنة 80هـ/699م بدمشق على القول بالقدر ثم قتله. (البداية والنهاية ج 9 ص 36)

¹³ هو كاتب من البلغاء. تنسب إليه فرقة "الغيلانية" من القدرية. وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه. وقيل أنه تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه فطلبه هشام بن عبد الملك وأحضر الأوزاعي لمناظرته، فأفنى الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق. (طبقات المعتزلة ص 25-27، الفرق بين الفرق ص 125، الملل والنحل ج 1 ص 266)

¹⁴ أنظر الملل والنحل ج 1 ص 29، والفرق بين الفرق ص 17، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة ص 67، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م.

(ت124هـ/741م)¹⁵ وجهم بن صفوان (ت128هـ/745م)¹⁶ في القول بخلق القرآن الكريم ونفي صفات الله تعالى الأزلية.¹⁷

إن مثل هذه المقالات كانت تعد بدعة وكفرا وارتدادا عن الإسلام. ولذا لم يسمح بالحكام باتساعها وقاموا بمقاومتها مقاومة شديدة، حيث كان غالبا يضطهد ويعدم أصحاب تلك البدع. فقتل الحجاج معبد الجهني سنة 80هـ/699م، أو صلبه عبد الملك بن مروان¹⁸ وقتل غيلان الدمشقي على يد هشام بن عبد الملك سنة 105هـ/723م،¹⁹ وضحي بجعد بن درهم خالد بن عبد الله القسري (ت126هـ/743م) والي العراق هشام بن عبد الملك سنة 124هـ/741م،²⁰ وقتل جهم بن صفوان بأصبهان، وقيل بمرو، قتله نائبها سلم بن أحوز (ت حول 149هـ/766م) سنة 128هـ/745م.²¹

وثمة أقوال كثيرة في تحريم الكلام بالشكل الذي اتخذته هؤلاء المبتدعة صدرت من جميع أهل الحديث والفقه من السلف مثل الشافعي، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وسفيان

¹⁵ هو من الموالي، أصله من خراسان، مبتدع، له أخبار في الزندقة. كان مؤدب مروان بن محمد الأموي لما ولي الجزيرة، ومن أراد ذم مروان لقبحه بالجهدي نسبة إليه. هو من رواد القول بخلق القرآن، ينسب إليه أيضا تأصيل القول بالجر. (البداية والنهاية ج9 ص364-365، الملل والنحل ج1 ص135)

¹⁶ الضال المبدع. هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شرا عظيما. كان حارحا على أمراء خراسان فقبض عليه نصر بن سيار فأمر بقتله، فقتل. كان من رواد القول بخلق القرآن، وينسب إليه مع درهم نشأة القول بالجر. اتهمه الإمام أبو حنيفة بالكفر. (الملل والنحل ج1 ص135، البداية والنهاية ج9 ص364-365، كشف الأسرار ج1 ص45، وأبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني: إنبأ الحق على الخلق ص285، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م)

¹⁷ أنظر الملل والنحل ج1 ص135، وعبد الله بن أسعد الباقعي: ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين ص136، تحقيق الدكتور موسى بن سليمان البويش، دار البخاري، الطبعة الأولى، 1410هـ، والبداية والنهاية ج9 ص36، وابن حزم: الأصول والفروع ج2 ص196، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م.

¹⁸ البداية والنهاية ج9 ص36.

¹⁹ طبقات المعتزلة ص25، وذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين ص141.

²⁰ الفرق بين الفرق ص167.

²¹ البداية والنهاية ج9 ص364.

الثوري وغيرهم. وقد غلوا وأسرفوا في التحريم لحد أن بعضهم زعموا أن العبد إن لقي الله تعالى بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام.²²

لقد سبق أن أشرنا أن من رواد علم الكلام غيلان الدمشقي زعيم فرقة القدرية²³ وجهم بن صفوان زعيم فرقة الجبرية²⁴. أما غيلان الدمشقي فقد أخذ القول عن القدر من معبد الجهني، وكان واحد دهره في العلم والزهد والدعاء إلى الله تعالى وتوحيده وعدله.²⁵ وقد قربه عمر بن عبد العزيز واستمع إلى مواعظه واعتمد عليه في تنفيذ خططه الإصلاحية.²⁶ وبعدهما جهر ببدعته استدعاه عمر وجادله في مقالته ثم استتابه.²⁷ ثم كان من خاصة هشام بن عبد الملك وفي أيامه رجع إلى القول بالقدر ودعا الناس إليه.²⁸

وقال الشهرستاني عن اعتقادات غيلان الدمشقي في صدد حديثه عن فرقة الثوبانية: "...هم يزعمون أن الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله تعالى وبرسلة عليهم السلام، وبكل ما لا يجوز في العقل أن يفعله. وما جاز في العقل تركه فليس من الإيمان. ومن القائلين بهذه المقالة غيلان بن مروان الدمشقي".²⁹

²² إحياء علوم الدين ج 1 ص 95. سنن أبي داود عن إمامه في كتابه هذا الفصل بإذن الله تعالى.

²³ القدرية هم الغلاة في قول أن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى. ولم يبقوا على هذا الحد بل غالوا أكثر من ذلك فنفوا عن الله تعالى "القدر" بمعنى العلم والتقدير. فقد أنكروا أيضا إضافة الخير والشر إلى القدر. (الملل والنحل ج 1 ص 29، تاريخ المذاهب الإسلامية ص 106، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي: شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد ص 114، تحقيق محمد صالح العثيمين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، 1985م).

²⁴ الجبرية هم الغلاة في نفي استطاعة العبد على الفعل ونفي الاختيار له. ويقولون أن الإنسان والجماد لا يختلفان إلا في المظهر. فكلهما مسير لا غير. وإن الأعمال جميعها حيرها وشرها من الله تعالى. والإنسان مجبر مطلقا على تنفيذ إرادة الله تعالى. ولا إرادة ولا اختيار للعبد في أعماله. (تاريخ المذاهب الإسلامية ص 98، الملل والنحل ج 1 ص 135، البداية والنهاية ج 9 ص 36).

²⁵ النية والأمل في شرح الملل والنحل ص 137.

²⁶ أنظر فضل الاعتزال ص 231.

²⁷ الكامل في التاريخ ج 4 ص 466.

²⁸ نفس المرح ج 4 ص 466، وتاريخ الإسلام ج 7 ص 441.

²⁹ الملل والنحل ج 1 ص 266-267.

وعن مقالات غيلان الدمشقي يتحدث أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت429هـ/1037م) بوضوح أكثر ويقول عنه أنه جمع بين القدر والإرجاء. وذلك لأجل زعم غيلان أن الإيمان هو المعرفة الثانية بالله تعالى والمحبة، والخضوع، والإقرار بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وبما جاء من الله تعالى. وزعم غيلان أيضا أن المعرفة الأولى اضطراب وليس بإيمان. وحكي زبرقان في مقالاته عن غيلان أن الإيمان هو الإقرار باللسان، وأن المعرفة بالله تعالى ضرورية فعل الله تعالى وليست من الإيمان. وزعم غيلان أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه.³⁰

وبالنسبة لجهم بن صفوان فتعزى له نشأة فرقة الجهمية التي تعتبر من الجبرية الخالصة.³¹ فقد نفى جهم بن صفوان الصفات الأزلية وزعم أنه لا يجوز أن يوصف الله تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيها. فنفى كونه حيا، عالما، وأثبت كونه قادرا، فاعلا، خالقا، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق.

وأثبت جهم علوما حادثة لله تعالى لا في محل. قال: لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه لأنه لو علم ثم خلق، أبقى علمه على ما كان أم لم يبق؟ فإن بقى فهو جهل فإن العلم بأن

³⁰ الفرق بين الفرق ص125.

³¹ تنقسم الجبرية إلى صنفين: الجبرية الخالصة والجبرية المتوسطة. أما الجبرية الخالصة فهي لا تثبت للبعد فعلا وقدرة على الفعل أصلا. فمن أثبت للقدرة الحادثة أثرا في الفعل وسمى ذلك كسبا فهو ليس جبريا. وأما الجبرية المتوسطة فهي تثبت للبعد قدرة غير مؤثرة. (الملل والنحل ج1 ص133)

وقد تطورت فكرة الجبر على يد جهم بن صفوان والجعد بن درهم. والجعد بن درهم هو أول من قال بخلق القرآن. أصله من خراسان، ويقال أنه من موالي بني مروان. سكن الجعد دمشق وكانت له بها دار بالقرب من الفلاسين إلى جانب الكنيسة. وقد أخذ الجعد بدعة فله عن بيان بن سمعان الذي أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم، زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساجر الذي سحر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن يهودي باليمن. وأخذ عن الجعد جهم بن صفوان، وعن جهم أخذ بشر المريسي، وعنه أخذ أحمد بن أبي دؤاد. وقد أقام الجعد بن درهم بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن. فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكر الكوفة. وفيها لقي جهم بن صفوان. وفيها قتل على يد خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى. وذلك أن خالدا خطب الناس فقال في خطبته: "أيها الناس صحروا بقل الله تعال ضحاياكم فإن مضج بالجعد بن درهم. إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعال الله عما يقول الجعد علوا كبيرا". ثم نزل فذبحه في أصل المنبر. (البداية والنهاية ج9 ص364-365)

سيوجد غير العلم بأن قد وجد، وإن لم يبق فقد تغير والمتغير مخلوق ليس بقدم. وكذلك قوله: إذا ثبت حدوث العلم فليس يخلو: إما أن يحدث في ذاته تعالى وذلك يؤدي إلى التغير في ذاته، وأن يكون محلا للحوادث. وإما أن يحدث في محل فيكون المحل موصوفا به، لا الباري تعالى، فتعين أنه لا محل له، فأثبت علوما حادثة بعدد الموجودات المعلومة.

وقال جهنم في القدرة الحادثة: إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار. وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازا كما تنسب إلى الجمادات. ثم قال أن الثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال كلها جبر. وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا كان جبرا.

وزعم جهنم أن حركات أهل الخلد ينقطع والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها فيهما، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها، وتألم أهل النار بحميمها، إذ لا تتصور حركات لا تنتهى آخر كما لا تتصور حركات لا تنتهى أولا. وأما ذكر القرآن لمفهوم الخلد في الجنة والنار فإنما ذلك يكون على سبيل المبالغة والتأكيد.

كما زعم أن الإيمان لا يتبعض، أي لا ينقسم إلى عقد، قول وعمل، ولا يتفاضل أهله فيه. فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد. وينسب إلى جهنم بن صفوان كذلك نفى رؤية الله تعالى يوم القيامة وإثبات خلق الكلام وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع.³²

³² أنظر الملل والنحل ج 1 ص 135-137، الفرق بين الفرق ص 128، الفصل في الملل والأهواء والنحل ج 3 ص 33-38، تليس إليس ص 21.

إن هذه المقالات والفرق في الحقيقة كانت مقدمات نشأة علم مستقل أو فن جديد قائم بنفسه ألا وهو علم الكلام. وذلك العلم لم يكن إلا بعد ظهور المعتزلة الذين طوروا مناهج ومسائل علم الكلام منذ اعتزال واصل بن عطاء (ت 131هـ/748م)³³ عن مجلس الحسن البصري لأجل قوله بالمترلة بين المترلتين³⁴. قال الشهرستاني في ذلك: "ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فنا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام: إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام فسمى النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق والمنطق والكلام مترادفان".³⁵

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن الجبرية والقدرية ذابت، وعلى أسسهم نشأت فرقة المعتزلة.³⁶ وأحيا وطور هؤلاء بعد ذلك المسائل التي أثارها أصحاب الجبرية والقدرية وزادوا عليها مما نتج عنه علم جديد في الإسلام وهو علم الكلام.³⁷

إن هذا القول سديد إلا أننا نود أن نضيف أن الجبرية والقدرية قد ذابوا لأجل كون مواقفهم ومبادئهم الرئيسية مضادة لأصول الإسلام الأساسية من جانب، ولأجل صيرورة

³³ رأس المعتزلة، من أئمة البلغاء والمتكلمين. سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق. ومن مؤلفاته: "أصناف المرحمة" و "المزلة بين المزلتين" و "معاني القرآن" و "طبقات أهل العلم والجهل" و "السبيل إلى معرفة الحق" و "التوبة". (طبقات المعتزلة ص32، الأعلام ج8 ص109)

³⁴ "المزلة بين المزلتين" أحد أصول الفكر الاعتزالي، ومعناه أن مرتكب الكبيرة لا يستحق أن يسمى بالاسم الشريف الذي هو الإيمان والإسلام، ولا بالكفر. بل يسمى بالفسق، أي هو في المزلة بين المزلتين. (الفرق بين الفرق ص68)

³⁵ الملل والنحل ج1 ص29-30.

³⁶ فخر الإسلام ص287.

³⁷ نفس المرجع ص299.

تلك المواقف والمبادئ معارضة للسلطة الأموية من جانب آخر.³⁸ وبهذا أثار الجبرية والقدرية السخط والعداوة ضد أنفسهم في صعيد كل من السلطة والفكر الديني على حد سواء، بالإضافة إلى أن كل من هاتين الفرقتين كانتا في طور النشأة كفرق إسلامية مستقلة في مجال الكلام الذي لم تبلور مناهجه ومسائله وآفاقه تبلورا ملحوظا بعد. وما هو أشد من كل ذلك أن كل بدعة، أو كل شيء جديد من هذا القبيل في مجال العقيدة، لم يحظ ببسر بمساندة الناس وكان ينظر إليه بعين البدعة وأنه ارتداد عن الإسلام، بل بعين الكفر الخالص. وسرعان ما ظهر شيء من هذا النوع فسعى كل طرف من المجتمع الإسلامي إلى أن يقلعه ويستأصله.³⁹

وأما ظهور المعتزلة على أنقاض هذه الفرق فيمكن أن نراه حصيلة طبيعية لتطور الأحداث العامة التي كانت تشهدها الدولة الإسلامية يومئذ ولا سيما في مجال تطور الفكر الإسلامي. وبسبب عدم تكون علم الكلام تكونا تاما وقعت تغيرات كثيرة وأحيانا جذرية في سبيل تكونه. والمشاركون في تلك العملية كانوا كثيرين جدا وآراؤهم كانت أحيانا متشابهة وأحيانا متباينة بل متضاربة من شخصية إلى أخرى. ومن ضمن ممثلي تطور هذه الظاهرة رجال الجبرية والقدرية ومن أعقبهم من المتكلمين الأوائل.

³⁸ سنوضح هذا التصريح في الصفحات اللاحقة بإذن الله تعالى.

³⁹ ويكتفي لنا أن نتذكر هنا وفيات المتكلمين المبتدعين الأوائل مثل معبد الجهنبي، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، وجم بن صفوان، ونشير أيضا إلى حادثة حيث نرى الحسن البصري يسأل عن حكام وقته الذين كانوا يسفكون دماء المسلمين وينهون أعمال المسلمين، وكانوا يبررون أعمالهم هذه الشريرة بالزعم أنها تجري على قدر الله تعالى. فأجاب الحسن: "كذب أعداء الله!" (المعارف ص 251) وقال أيضا الحسن البصري لأهل البصرة القائلين بالجبر: "من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر. ومن حمل ذنبه على ربه فقد كفر". (للدخيل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج 2 ص 170)

وشدة الخليفة عمر بن عبد العزيز مع القدرية معروفة. ولما سئل يوما عن موقفه منهم قال: "استيهم أولا فإن لم يتوبوا فعرستهم على السيف". (أبو بكر محمد بن الحسين الآجري: الشريعة ص 227، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م) ونذكر أيضا قول ابن عباس قبل وقت الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز لمن مال إلى القول بالجبر في الشام: "أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر المعاصون... يا أبناء سلف المناقين وأعوان الظالمين وخزان مساجد الفاسقين، منكم إلا مفتر على الله يجعل إحرامه عليه سبحانه وتعالى وينسبه علانية إليه". (للدخيل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج 2 ص 169-170)

وبصيرورة علم الكلام علما هم الدفاع ضد المبتدعين والمنحرفين وللإسلام وعقيدته فإن علم الكلام صار رويدا رويدا علما مقبولا لدى علماء وعلمائهم. وقد أدرك المعتزلة، وقد أصبحوا حاملين شعلة علم الكلام كل أهمية هذا الفن الجديد في الفترات القادمة، فدبحوا بعض مقالات سابقين وأبدعوا مقالات جديدة، ثم أضافوا حجما جديدا لعلم الكلام من خلال بالدعوة وإفشاء أفكارهم على مستوى جميع طبقات المجتمع الإسلامي من الحكام. وقد اشتغل الدعاة بترويج علم جديد أي علم الكلام بنفس الفكر بنشر أفكار المعتزلة.⁴⁰

وفي ضوء زعمنا هذا لا يستعصي علينا أن نرى بعض أقوال المعتزلة القدرية مثل نفي الصفات، ومبدأ التوحيد، وإثبات حرية الإنسان المطلقة لأفعاله. وكذلك بعض مقالاتهم المشاهدة لأقوال الجبرية مثل نفي الصفات وإثبات خلق الكلام، ثم بعد ذلك خلق القرآن، وإيجاب المعارف بالعقل ويقدم الشهرستاني لنا صورة واضحة للدواعي الطبيعية والضرورية لصفة عامة ونشأة المعتزلة بصفة خاصة. ويتبين في قوله ما أشرنا إليه أنفك الكلام كانت نتيجة لطبيعة تطور الفكر الإسلامي، ونتيجة تكامل أساليب وخارجية، وأن علم الكلام بدأ بالأفراد المبتدعين ثم بعد توفر الظروف المستقلا قائما بنفسه وصارت لأصحابه مكانة عالية في الدولة. وقال: والأصول فحدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني وغيلان البجلي

⁴⁰ يروى أن واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة أرسل أصحابه ودعائه إلى الأفاق. وقال أبو الخليل: بعث إلى المغرب فأجابته خلق كثير. وبعث إلى خرسان حفص بن سالم فدخل ترمذ ولزم المسجد حتى اشتهر. وبعث إلى الجزيرة، وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية فأجابته خلق كثير. ويقال أيضا أن أبا بكر عبد الرحمن بن كيسان الأعمى المعتزلي (ت225هـ/840م) كان يكتب الحكم بالعون منهم والتأييد لمذهبه أي الاعتزال. وكذا شأن حمزة بن الأشرس (ت213هـ/828م). (طبقات لأحمد)

الأسواري في القول بالقدر، وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر. ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزال وكان تلميذ الحسن البصري، وتلمذ له عمرو بن عبيد وزاد عليه في مسائل القدر. وكان عمرو من دعاة يزيد الناقص أيام بني أمية، ثم والى المنصور وقال بإمامته. ومدحه المنصور يوماً فقال: نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو بن عبيد.

والخوارج والمرجئة من الجبرية والقدرية ابتدعوا بدعتهم في زمان الحسن. واعتزل واصل عنهم وعن أستاذه بالقول بالمتزلة بين المتزتين، فسمى هو وأصحابه معتزلة. وقد تلمذ له زيد بن علي (ت 122هـ/740م)⁴¹ وأخذ الأصول منه، فلذلك صارت الزيدية⁴² كلهم معتزلة. ومن رفض زيد بن علي لأنه خالف مذهب آبائه في الأصول وفي التبرى والتولي، وهم من أهل الكوفة، وكانوا جماعة سمو رافضة⁴³. ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة

⁴¹ الإمام أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي، يقال له الشهيد. قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جواباً ولا أبن قولاً. كانت إقامته بالكوفة. خرج على الحكم الأموي سنة 122هـ/739م وقتل في نفس السنة. لما خرج على الخليفة هشام بن عبد الملك ودعا إلى طاعته جاءته طائفة وقالوا: "تراً من أبي بكر وعمر حتى نباعك؟" فقال: "بل أتراً ممن تترأئهم". فقالوا: "إذن نرفضك!" فسما من يومئذ رافضة، وسميت شيعة زيدية. (تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 160، شذرات الذهب ج 1 ص 158)

⁴² تعتبر الزيدية من أعدل فرق الشيعة وأقربها إلى أهل السنة والجماعة. أصحاب الزيدية لم يرفعوا الأئمة إلى مرتبة النبوة، كما لم يكتفوا أحداً من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. وقالوا بإمامة زيد بعد إمامة الحسين ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غير أولاد فاطمة. ويجوزون أيضاً إمامة المفضول على قيام الأفضل. وحوزوا وحود إمامين في إقليمين بحيث يكون كل واحد منهما إماماً في الإقليم الذي خرج فيه ما دام الاختيار كان حراً من أولي الحل والعقد. ولا يشترطون العصمة في الإمام ولا النص في حقه ضرورياً. والخروج بالسيف والإظهار من عدة الشرائط. ويقولون بعدم احتفاء الأئمة واستمرار الإمامة. (أنظر مقالات الإسلاميين ج 1 ص 136-138، الفرق بين الفرق ص 19)

⁴³ كانت آراء الإمام زيد بن علي في الخليفتين أبي بكر وعمر سبياً في انفصال كثير من الشيعة عنه وإطلاق اسم الرافضة عليهم. وهم اللاذ في حب علي بن أبي طالب وبغض أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وإنما أطلق عليهم الرافضة لأجل رفضهم إمامة أبي بكر وعمر وعثمان. وقالوا لا تصلح الإمامة إلا في ولد علي. ولا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضا من آل محمد وينادي للهادي من السماء: "اتبعوه!" هم محمضون على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم. ولم القول بأن الله تعالى فرض حسين صلاة في كل يوم وليلة. وعادوا حيريل عليه السلام لاعتقادهم أنه أخطأ بالوحي. ويستحلون أموال الناس، كما يستحلون استعمال التقية وإظهار خلاف ما يظنون. وقالوا بعدم وقوع العلق إلا بالأشهاد على الزوج. واتخذوا الأئمة أرباباً من دون الله تعالى واتخذوا قبورهم مساعداً يحجون إليها. (أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 181، للدخل إلى دراسة الأدیان والمذاهب ج 3 ص 28، مقالات الإسلاميين ص 89 وما بعدها)

حين نشرت فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فنا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام.⁴⁴

إن كلمة المعتزلة ترجع إلى أصل كلمة عزل: عزل الشيء يعزله عزلا وعزله فاعترل وانعزل وتعزل: نحاه جانبا ففتحى. واعتزل الشيء وتعزله.⁴⁵ وإن أردنا أن نعرف المعتزلة من حيث الاصطلاح فسنقول أنها مدرسة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة البصرة التي كانت في ذلك العصر مجمعا للعلم والأدب في الدولة الإسلامية العربية. وهي تعد من أهم الفرق الكلامية، بل تعد أيضا مؤسسة علم الكلام الحقيقي، بمعنى أن لها نسقا مذهبيا متكاملا في علم الكلام.⁴⁶

وأما تسميتهم المعتزلة فثمة آراء عديدة حول أصل كلمة الاعتزال، ومنها أن التسمية ترتبط بالظروف السياسية. ومنها أن الاعتزال يرتبط بلون من ألوان الزهد والعبادة و التقيشف والعزوف عن الحياة الدنيا.⁴⁷ ومنها أن كلمة الاعتزال ترجع إلى موقف ديني له أبعاد سياسية وقضية جدلية أثرت في مجلس الحسن البصري.

وبالنسبة للقول الأول فإنه يستند إلى روايات كثيرة واردة في كتب التاريخ والتي تدل على اعتزال بعض الناس عن التوترات السياسية التي أصابت الدولة الإسلامية عقب استشهاد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه. فيقول الطبري: أرسل قيس بن

⁴⁴ الملل والنحل ج1 ص29.

⁴⁵ لسان العرب ج11 ص440.

⁴⁶ أنظر هانم إبراهيم يوسف: أصل العدل عند المعتزلة ص16، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1993م.

Also see : The Encyclopaedia of Islam: vol. 3 page 787.

⁴⁷ أنظر التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص49.

سعد (ت60هـ/680م)⁴⁸ كتابا إلى علي بن أبي طالب يقول فيه: باسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن قبلي رجلا معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم وألا أتعجل حريهم، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله عز وجل أن يقبل بقلوبهم، ويفرقهم عن ضاللتهم، إن شاء الله.⁴⁹

وفي موضع آخر يؤكد الطبري اعتزال القوم الحرب والقتال بين علي وعائشة فيقول: "أما عن الأحنف بن قيس (ت72هـ/691م)⁵⁰ قال: والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أقاتل رجلا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمرتموني ببيعته، اختاروا مني واحدة من ثلاث خصال: إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضي الله عز وجل من أمره ما قضى أو أعتزل فأكون قريبا".⁵¹

ويذكر أيضا ابن كثير ما يؤيد ذلك الاتجاه حيث يقول: "ولما فرغ علي من أمر الجمل أتاه وجوه الناس يسلمون عليه فكان ممن جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد وكانوا قد اعتزلوا القتال. فقال له علي: تبرع- يعني بنا فقال: ما كنت أراي الا قد أحسنت وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فأرفق فان طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إلى غد أحوج منكم إلى أمس فأعرف إحساني، واستبق مودتي لغد، ولا تقل مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحا".⁵²

⁴⁸ وال، صحابي جليل، من دعاة العرب ذوي الرأي والمكيدة في الحرب. صحب عليا رضي الله تعالى عنه في خلافته فاستعمله على مصر سنة 36-37هـ/656-657م. وبعد وفاة علي كان مع الحسن بن علي حتى صالح معاوية سنة 41هـ/661م. فرجع إلى المدينة وتوفي 41هـ في آخر خلافة معاوية. (الأعلام ج 5 ص 206، شذرات الذهب ج 1 ص 52)

⁴⁹ تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 554.

⁵⁰ أحد العظماء الدعاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب به المثل في الحلم. ولد بالبصرة وأدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يره. ووفد على عمر حين آلت إليه الخلافة فاستبقاه عمر واستعان به. (طبقات ابن سعد ج 7 ص 66، وفيات الأعيان ج 2 ص 499)

⁵¹ تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 498.

⁵² البداية والنهاية ج 7 ص 268.

إننا نستطيع أن نقول أن كلمة الاعتزال أطلقت على فئة من الناس الذين اعتزلوا الفتن في الصدر الأول من الإسلام، غير أن تلك التسمية تشابه فرقة المعتزلة الكلامية فقط من حيث الاسم الذي يرجع إلى الصدفة في المعنى اللغوي. وإذا رجعنا إلى كتب المعتزلة نرى أنهم لا يذكرون شيئا من ذلك. وما هو طريف أن كتب طبقات المعتزلة تذكر بعض الصحابة الذين اعتزلوا الفتن ولكن لا تذكر أنهم يدرجون من ضمن طبقاتهم لأجل ذلك، بل لأجل اعتقادهم وأقوالهم التي تري أنهم أثبتوا القدر ونفوا الجبر.⁵³

وأما القول بأن جذور فرقة المعتزلة ترجع إلى الزهاد والعباد الذين عزفوا عن الدنيا فهذا كلام لا معنى له لأننا لا نجد في كتب علم الكلام وكتب الملل والنحل وخاصة الكتب التي تنسب إلى المعتزلة أنفسهم أية نبذة تشير إلى ذلك.

إذن فإن سبب تسمية المعتزلة يعود إلى موقف ديني له أبعاد سياسية وفكرية. وذلك لما دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج. وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة - وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافرا مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أحاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة.⁵⁴

⁵³ أنظر طبقات المعتزلة ص 9-14، المنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 127-130.

⁵⁴ أنظر الملل والنحل ج 1 ص 67-68، فضل الاعتزال ص 105، ذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنن والمتبعين ص 49. قارن هذه الرواية برواية واردة في المعارف لابن قتيبة حيث يعتقد أن الخلاف وقع بين الحسن البصري وعمرو بن عبيد. ص 272. إن صاحب فضل الاعتزال يورد الروايات المتناقضة في هذا الشأن ويرجح الرواية التي نحن ذكرناها. ص 12-25.

٤) أصول المعتزلة

والأصول التي عليها المعتزلة خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمترلة بين المترلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما التوحيد فالمعتزلة مجمعة على أن الله تعالى شيء لا كالأشياء، وأنه ليس بجسم ولا عرض بل هو الخالق للجسم والعرض. وأن شيئاً من الخواص لا يدركه في الدنيا والآخرة، وأنه لا تحصره الأماكن ولا تحده الأقطار. بل هو الذي لم يزل، ولا مكان ولا زمان، ولا نهاية ولا حد. ثم خلق ذلك كله وأحدثه مع سائر ما خلق من لا شيء. وأنه القدم وكل ما سواه محدث.⁵⁵

ونفي المعتزلة الصفات القديمة أصلاً فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة. هي صفات قديمة، ومعان قائمة به لأنه لو شاركتها الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركتها في الإلهية. واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق لا في محل. وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، فإن ما وجد في المحل عرض قد فني في الحال. واتفقوا أيضاً على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته، لكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها. واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، ونفي التشبيه عنه من كل وجه: جهة، ومكاناً، وصورة، وجسماً، وتخيلاً، وانتقالاً، وزوالاً، وتغيراً، وتأثراً. وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها.⁵⁶

⁵⁵ أنظر فضل الاعتزال ص 63، وأيضاً القاضي عبد الجبار: المحيط بالتكليف ص 75 وما بعدهما، تحقيق عمر السيد عزمي، الدار المصرية، دون سنة الطبعة، والفرق بين الفرق ص 69.

⁵⁶ أنظر الملل والنحل ج 1 ص 62، الفرق بين الفرق ص 68، القاضي عبد الجبار بن أحمد: شرح الأصول الخمسة ص 528 وما بعدهما، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، 1965م، أبو الحسن الأشعري: الإبانة في أصول الديانة ص 120-132، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، 1981م، عبد الرحمن بن محمد الخياط: الانتصار والرد على ابن الراوندي للملحد

وأما العدل فقد أجمع المعتزلة على أن الله تعالى لا يحب الفساد، ولا يخلق أعمال العباد بل العباد يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي خلقها الله تعالى فيهم. وهو المالك للقدرة التي في الإنسان، لا يملكها الإنسان، ويبقيها الله فيهم ما شاء ويفنيها إذا شاء. وإنه تعالى لا يريد أن يشتم ويفترى عليه ولا أن تنتهك محارمه. وهو لو شاء أن يجبر الخلق كلهم على طاعته لكان على ذلك قادرا. وأراد عز وجل أن يؤمن العبد أو يعصي طوعا لا كرها لتصح الجنة والابتلاء، وليستحق العبد أفضل درجات الثواب. وهو لا يكلف العباد ما لا يطيقون، ثم يعذبهم على تركه، ولا يحول بين أحد وبين ما أمر به.⁵⁷

أما الوعد والوعيد فقد اتفق المعتزلة على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار.⁵⁸

وأجمعوا أيضا على أن مرتكب الكبيرة لا يستحق أن يسمى بالاسم الشريف الذي هو الإيمان والإسلام، ولا بالكفر. بل يسمى بالفسق كما سماه الله تعالى وأجمع عليه أهل الملة. وهذا الأصل يسمى بالمتزلة بين المتزلتين.⁵⁹

وأجمع المعتزلة كذلك على أن للمسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان بأي جهة استطاعوهما، بالسيف فما دونه. وقد اختلفوا فيما سوى ذلك.⁶⁰

ص 167-173، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون سنة الطبع، علي بن علي الحنفي: شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ج 2 ص 7، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، 1986م.

⁵⁷ أنظر فضل الاعتزال ص 63-64، المحيط بالتكليف ص 228 وما بعدها.

⁵⁸ الملل والنحل ج 1 ص 63.

⁵⁹ أنظر فضل الاعتزال ص 64.

⁶⁰ نفس المرجع ص 64، وشرح الأصول الخمسة ص 741.

إن هذه الأصول الخمسة تمثل لب ورمز الفكر المعتزلي، فمن خالفهم في شيء منها فهو ليس منهم. ومن وافقهم فيها فهو منهم وإن خالفهم فيما سواها.⁶¹

إن المعتزلة حاولوا أن يصوروا مذهبهم كمذهب الفطرة الإنسانية،⁶² أي المذهب الذي يستوحى روحه من أصول الإسلام الصافية، والمذهب الذي يخالف الفرق الشاذة الكلامية والسياسية بل ويقاومها، ولا يمكن أبدا أن ينظر إليه كمثل من ضل وأضل من الفرق الأخرى. ولأجل ذلك تسرع المعتزلة إلى الغلو في علاج أهم مفاهيم الإسلام كقضايا الإيمان، والعدل الشامل سواء في مجال حياة الله تعالى أو حياة الإنسان، والدفاع عن تلك المفاهيم ضد هجمات الضالين والزنادقة والشعوبيين من الداخل على يد المرتدين والمنحرفين والمنافقين، ومن الخارج على يد الذين تمنوا أن ينقموا على الإسلام ويمكروا في جوانبه التي تعتبر جوهره وروحه، ألا وهو الغيب والإيمان به والذي إذا احتل وانتهك أثره في الناس فإن الضرر سيعظم وقلق الفطرة وعدم اطمئنانها سيعم. وكان هؤلاء من الذين لم يسلموا بعد واعتادوا على الجدل في دياناتهم. وبعد فتح المسلمين لأقطارهم، وبعد أن تم امتزاج الثقافات والحضارات فإنهم لم يكفوا عن معتقداتهم القديمة بل زادوا عليها حجما جديدا بتعرفهم على بعض تعاليم الإسلام. وقد كان من هؤلاء من أظهر الإسلام ولكن أضر له ولأتباعه السوء، وأيضا من صدع بعداوته تجاه الإسلام والمسلمين. وكل هؤلاء ركزوا مكرهم وهجماتهم على بعض مسائل العقيدة الإسلامية التي كانت في نفسها صعبة الفهم والاستيعاب للعقل البشري إذا لم يكن مدعما بالإيمان القوي، وكان طبيعيا أن يزداد التعقد والغموض بعد التورط في جدال مسائلها. وذلك بالإضافة إلى حقيقة أن المسلمين مأمورين بالتوقف والتحفظ في ذلك الميدان، أو بالأحرى مأمورين بعدم التدخل فيه

⁶¹ الفصل في اللل والأهواء والنحل ج 2 ص 270، مروج الذهب ج 3 ص 235.

⁶² أنظر أصل العدل عند المعتزلة ص 20، والدكتور محمد عمارة: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ص 22-25، دار الشروق، الطبعة الثانية، 1988م.

متجادلين ومتناظرين. وسندعم قولنا هذا بما يقال عن يوحنا الدمشقي (ت132هـ/749م)⁶³

الذي كان في خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك. ويقال عنه أنه كان يعلم المسيحيين كيف و فيم يجادلون به المسلمون في شأن دينهم. ويروى أنه كان يقول للنصراني: إذا سألك العربي: ما تقول في المسيح؟ فقل: إنه كلمة الله. ثم طلب من النصراني أن يسأل م سمي المسيح في القرآن وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيب المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فإذا أجاب بذلك فاسأله عن كلمة الله وروحه: أم مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن له كلمة ولا روح. فإن قلت ذلك، يواصل يوحنا الدمشقي، فسيفهم العربي لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين.⁶⁴

ووقف المعتزلة في جبهة الدفاع عن العقيدة الإسلامية مستخدمين ذات الأسلحة التي تسلح بها أعداؤهم من الأدلة المنطقية والفلسفة.⁶⁵ ومن هنا تحمسوا لتسمية أنفسهم بأهل العدل والترحيد، أو العدلية والموحدة.⁶⁶ وهذا واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري والذي ينسب إليه إنشاء مذهب الاعتزال يروي صاحب كتاب الأوائل عن أبي عثمان أنه قال عنه: لم يعرف في الإسلام كتاب كتب على أصناف الملحدون وعلى طبقات الخوارج وعلى غالبية الشيعة والمشايخين في قول الحشوية⁶⁷ قبل كتب واصل بن عطاء.⁶⁸ وكل أصل نجده في أيدي العلماء في الكلام والأحكام وإنما هو منه... وهو أول من سمي

⁶³ ولد في دمشق، من آباء الكنيسة ومعلميها. ألف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والأحان الدينية. مهد بمؤلفاته لنشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبا. من كتبه المنقولة إلى العربية "منهل المعرفة". (المسند في اللغة والأعلام ج2 ص623)

⁶⁴ أبو حنيفة: حياته وعصره - آرائه وفقهه ص85.

⁶⁵ أنظر الدكتور عبد الستار الراوي: العقل والحرية ص438-440، للمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1980م. Also: Mohammed Abu Bakr (An American Modern Mu'tazilite Muslim): Doctrines and Dogmas of the Mu'tazilites: The Rationalists of Islam, page 80, Purple Dawn Books, Denver, Colorado, USA, 1993.

Also: Islamic Philosophy and Theology: page 41-43.

⁶⁶ الملل والنحل ج1 ص61.

⁶⁷ الحشوية: اسم أطلق على المحدثين القائلين بنفي التأويل، أي تأويل المتشابهات في القرآن. (المسند في اللغة والأعلام ج2 ص221)

⁶⁸ لقد سبق أن أشرنا إلى كتب واصل بن عطاء في ترجمة شخصيته في بداية هذا الفصل.

معتزليا، وذلك لمجانته تقصير المرجئة وغلو الخوارج، وكل من نيز بشيء أنف منه مثل
الرفض والجبر.⁶⁹

ومن مظاهر اجتهادات المعتزلة لتصميم مذهبهم مذهباً كلامياً فطرياً إسلامياً إدراج كبار
الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من ضمن طبقاتهم الأولى، والذين وإن عاشوا قبل نشأة
المعتزلة نشأة فعلية فإنهم حقاً أصلوا واعتصموا بأفكار المعتزلة الرئيسية وكانوا يعتبرون رواد
المذهب ومن أوائل رجاله. فمن هؤلاء الصحابة الخلفاء الراشدون وغيرهم من مثل عبد الله
بن العباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة
بن الصامت وغيرهم.⁷⁰

وبالنسبة لعلي بن أبي طالب واعتماد المعتزلة عليه فثمة قصة تدل على نفيه للجبر وإثبات
الإنسان حراً ومختاراً. سئل علي عند انصرافه من صفين أكان مسيراً بقضاء الله وقدره إلى
آخره مصرح بالعدل وإنكار الجبر. فأجاب علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا
وادي ولا علونا تلة إلا بقضاء وقدر. فقل له على لسان أحد الحاضرين: عند الله احتسب
عنائي ما لي من الأجر شيء؟ فقال: عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون وفي
منقلبكم وأنتم منقلبون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين. فقل
له على لسان نفس الشخص: وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا؟
فقال علي عليه السلام: لعلك تظن قضاء واجبا وقدر حتماً، ولو كان ذلك لبطل الثواب
والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمداً لمحسن ولا
كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسّر تلك مقالة
إخوان الشياطين وعبدة الأوثان وخصماء الرحمن وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب في

⁶⁹ أبو هلال العسكري: الأوائل ص 374، تحقيق الدكتور محمد السيد الوكيل، دار البشر للثقافة والعلوم الإسلامية، الطبعة الأولى،

1987م.

⁷⁰ أنظر طبقات المعتزلة ص 9، وفضل الاعتزال ص 214.

الأمور هم قدرية هذه الأمة وجوسها. إن الله تعالى أمر تخيرا ونهى تحذيرا ولم يكلف مجيرا ولا بعث الأنبياء عبثا. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. فقيل له: وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا؟ فقال: أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾^{71 72}.

واعتمد المعتزلة على قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لمن ادعى أن سرقة كانت بقضاء الله مصرح بنفي الجبر لأنه أتى بسارق فقال: لم سرقت؟ فقال: قضى الله علي فأمر به. فقطعت يده وضرب أسواط، فقيل له في ذلك فقال: القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله.⁷³

وكذلك قول عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لمن حاصره بعد ما قالوا له: الله يرميك. قال: كذبتم لو رماني ما أخطأني. وهذا أيضا يقتضي إنكاره الجبر.⁷⁴

وقول عبد الله بن عمر حين قال له بعض الناس: يا أبا عبد الرحمن إن أقواما يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون: كان في علم الله فلم نجد بدا منه. فغضب عبد الله ثم قال: سبحان الله العظيم قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها ولم يحملهم علم الله على فعلها، حدثني أبي عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله عليها. ثم قال ابن عمر:

⁷¹ سورة الإسراء 23.

⁷² طبقات المعتزلة ص 9-10، والمنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 127-128.

⁷³ طبقات المعتزلة ص 11، والمنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 128.

⁷⁴ طبقات المعتزلة ص 11، والمنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 128.

لعبد يعمل المعصية ثم يقر بذنبه على نفسه أحب إلي من عبد يصوم النهار ويقوم الليل ويقول إن الله تعالى يفعل الخطيئة فيه. فهذا الخبر أيضا مصرح بإنكار القول بالجبر.⁷⁵

وأما عبد الله بن عباس ففي مناظراته للجبرية ما يقطع كل عذر وذلك أنه روى عنه مجاهد أنه كتب إلى قراء المجبرة بالشام: أما بعد أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون. يا أبناء سلف المقاتلين وأعوان الظالمين وخزان مساحد الفاسقين وعمار سلف الشياطين هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه وينسبها علانية إليه. وهل منكم إلا من السيف قلادته والزور على الله شهادته، أعلى هذا توأليتم أم عليه تماليتم. حظكم منه الاوفر ونصيبيكم منه الأكثر، عمدتم إلى موالة من لم يدع لله مالا إلا أخذه، ولا منارا إلا هدمه، ولا مالا ليتيم إلا سرقه أو خانته، فأوجبتم لأحبث خلق الله أعظم حق الله وخاذلتم أهل الحق حتى ذلوا وقلوا، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا، فأنيبوا إلى الله وتوبوا فإن الله يتوب على من تاب، ويقبل من أناب.⁷⁶

5) سياسية الفرق الكلامية المبكرة

إن المسلمين اختلفوا إلى مذاهب متعددة في السياسة والفقه والعقيدة، غير أن ذلك الاختلاف لم يتناول لب الدين وجوهره من مثل وحدانية الله تعالى، وكون محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الله، والقرآن وما يتناوله من الأوامر والنواهي، أي بعبارة أخرى لم يقع الاختلاف في أمور تمس أصول الدين وأركانه. إن الخلافات الأولى التي شهدتها المسلمون كانت خلافاً سياسية صرفة.⁷⁷ فبعد استشهاد عثمان بن عفان رضي الله تعالى

⁷⁵ طبقات المعتزلة ص12، والمنية والأمل في شرح الملل والنحل ص129.

⁷⁶ طبقات المعتزلة ص12-13، والمنية والأمل في شرح الملل والنحل ص129.

⁷⁷ أنظر العقيدة والسياسة ص58-64، وللدكتور مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص119، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1994م.

عنه تفاقمت الأوضاع السياسية التي ألزمت اندلاع الحروب الأهلية التي شارك واقتل فيها عدد عظيم من المسلمين. والحقيقة التي لا ريب فيها أن تلك الحروب لم تثمر ثمرة إيجابية واحدة لمستقبل المجتمع الإسلامي بل توسعت الفجوة بين الأطراف المتورطة فيها، واشتدت المطامح على الحكم والنقمة من الخصم، كما كانت العصبية تنبغ وتبرز أكثر فأكثر من يوم إلى آخر. وقد ترتب على كل ذلك أن لاحت ثلاث فرق رئيسية تشددت في آرائها ومواقفها أكثر من غيرها، وهي الشيعة، والخوارج والمرجئة.

أما الشيعة فقد شايعوا عليا رضي الله تعالى عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية إما جليا وإما خفيا. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده. ومن وافقهم على ذلك فهو يسمى شيوعي وإن خالفهم فيما عدا ذلك. ومن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا.⁷⁸

إذن كانت مواقف الشيعة الابتدائية مواقف سياسية بحتة، ولكن بمرور الزمن امتزجت وتطورت إلى مقالات غطت كافة المجالات من السياسة إلى الشريعة والعقيدة. فقد تعددت الأقوال والاعتقادات بتعدد الفرق والأحزاب. ومن تلك الأقوال قولهم بأن الإمامة قضية أصولية لا تناط باختيار العامة، وهي ركن الدين لا يجوز للرسول إغفاله ولا تفويضه إلى العامة. وذهبوا إلى القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوبا. ومنهم الغلاة⁷⁹ القائلين بتناسخ الأرواح والحلول، والبداء على الله تعالى. وبناء على اعتقاداتهم جمعوا الأحاديث المناسبة لها ووضعوا غيرها، وفسروا القرآن الكريم على حسب هواهم وما ذهبوا إليه، وإلى غير ذلك.⁸⁰

⁷⁸ أنظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ج 2 ص 270، والفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان ص 252.

⁷⁹ وغلاة الشيعة كما يقول الأشعري: البائية، والجناحية، والخرية، والمغرية، والمصورية، والخطابية، والمعرية، والزيغية، والعمرية، والمفضلية، والحلولية، والشريعة، والسنية، والمفوضة. ولكل منها آراء ومواقف منحرفة وضالة تخرجهم من الإسلام. وسماها هؤلاء الأئم غلوا في علي وقالوا فيه قولا عظيما، بعضهم يعتبرونه نبيا وبعض آخر إلها وما يشابه ذلك. (مقالات الإسلاميين ج 1 ص 66-88)

⁸⁰ أنظر الملل والنحل ج 1 ص 277 وما بعدها، والفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان ص 252 وما بعدها، والشيخ محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار ج 9 ص 386، تحقيق لجنة من العلماء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م، ابن تيمية: مختصر منهاج السنة ج 2 ص 563 وما بعدها، اختصره الشيخ عبد الله الأفغاني، ومقالات الإسلاميين ج 1 ص 65 وما بعدها.

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا على علي رضي الله تعالى عنه حين جرى أمر الحكيمين وأنكروا التحكيم. وأيضاً ادعوا أن علياً قد أخطأ في قبوله للتحكيم ولا حكم إلا لله، وتشفعوا لتجوز الإمامة لكل امرء مسلم كفاء لذلك المنصب.⁸¹

إذن كان سبب نشأة الخوارج سبباً سياسياً خالصاً. ولكن لأجل تمسكهم لترويج مواقفهم السياسية وتخطئتهم لمن خالفهم فقد لونوا مواقفهم هذه بلون الدين وأصوله. وعلى ذلك تولدت مقالات وفيرة تعزى لهم في ميدان الشريعة والعقيدة فضلاً عن السياسة. ومنها أن العلم والإقرار والعمل كله إيمان وبالتالي مرتكب الكبيرة مغلل في النار. وقد كفروا في ضوء هذا الموقف كل من خالفهم من المسلمين وأباحوا دماءهم. كما ذهبوا إلى القول بالقدر وحرية الإنسان وأنه ليس لله في أعمال العباد مشيئة. وقد طعنوا أيضاً في أحاديث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والقرآن الكريم وتفسيره.⁸²

وأما المرجئة فإن نشأتهم قد تأخرت قليلاً عن نشأة الخوارج والشيعة. وكانت نشأتهم نتيجة تشدد وتطرف الخوارج والشيعة. وكانت نشأتهم بسبب المحايدة وموقف الوسط بين الحزبين. والإرجاء على معنيين: أحدهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: {قالو أرجه وأخاه}⁸³، أي أمهله وأخره. وثانيهما بمعنى إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثاني فظاهر، فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل

⁸¹ أنظر الفرق بين الفرق ص 45-48، والفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان ص 227.

⁸² أنظر الملل والنحل ج 1 ص 195 وما بعدها، ومقالات الإسلاميين ج 1 ص 167 وما بعدها.

وقال الإمام محمد أبو زهرة عن الخوارج: "لقد دفعتم شدة رغبهم في نصر مذهبهم إلى أن يكذبوا أحياناً على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى أنه يروى عن خارجي تاب أنه دعا العلماء لأن ينظروا في أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فإن الخوارج إذا لم يجدوا دليلاً نسبوا للرسول كلاماً. وكانوا يتمسكون بظواهر القرآن، ولا يتجاوزون ذلك الظاهر إلى المروي والمقصد والموضوع وما يظهر لهم بادئ الرأي يقفون عنده ولا يجيدون عنه قيد أنملة". (تاريخ المذاهب الإسلامية ص 67)

⁸³ سورة الأعراف 111، وسورة الشعراء 26.

أيضا الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار.⁸⁴

ومن مقالات المرجئة الرئيسية أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له، وترك الاستكبار عليه، والمحبة بالقلب. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن. وما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان ولا يضر تركها حقيقة الإيمان، ولا يعذب على ذلك إذا كان الإيمان خالصا واليقين صادقا.⁸⁵

ولعل سيورة الأمور بهذه الصورة أجبرت المتكلمين الأوائل أن يبدأوا، بجانب اهتمامهم بقضايا العقيدة، أن يلجوا في قضايا السياسة ناقلين لبعض جوانبها وأحيانا متذمرين على أصحابها. وذلك يرجع إلى محاولات الأمويين الذين ورثوا الخلافة بعد الخلفاء الراشدين، وثم من بعدهم محاولات العباسيين أن يدعموا سياساتهم وتصرفاتهم السياسية بشؤون الدين وعقيدته ابتغاء نيل تأييد الناس وتحالفهم معهم، وكذا مع نظمهم السياسية. وبصفة خاصة كان الأمويون أحيانا يتحالفون مع بعض النظريات العقائدية التي كانت تتطور في المجتمع الإسلامي وكانوا يتخذونها مسوغا لبعض تصرفاتهم الظالمة مثل نظرية الجبر والإرجاء.⁸⁶ وما دامت الأمور بهذا النمط فإنه كان للمتكلمين الأوائل حق، من وجهة نظرهم، أن يتدخلوا في مجالات السياسة التي كانت همهم وكانت توافق أو تضاد فكرهم الاعتقادي. وكان هؤلاء المتكلمون من مثل غيلان الدمشقي، ومعبد الجهنّي، وجعد بن درهم، وجهم بن صفوان وغيرهم ضالين ومتطرفين وفي نفس الوقت متحمسين في آرائهم الشاذة. وبهذا كان الانسجام مع الأمويين الذين في نهاية المطاف كانوا يمثلون جمهور المسلمين ودولتهم، والذين

⁸⁴ أنظر الملل والنحل ج 1 ص 257-258، ومقالات الإسلاميين ج 2 ص 213.

⁸⁵ الملل والنحل ج 1 ص 260، والفرق بين الفرق ص 20.

⁸⁶ أنظر في ذلك فضل الاعتراف ص 143، والذكتور محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام ص 35، دار القلم، بيروت، دون سنة الطبعة.

حكموا على هؤلاء بحكم الكفر والارتداد والبدعة، أمرا مستبعدا أو على الأقل صعب التحقق.

وفي ضوء القول المذكور نقول أن معبد الجهني الذي أخذ عنه غيلان الدمشقي القول بالقدر كان ممن خرج مع ابن الأشعث سنة 81هـ/700م فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله.⁸⁷

وهذا غيلان الدمشقي ينقد سياسة الأمويين ونظمهم السياسية التي بنيت عليها دولتهم نقدا شديدا ووجيها. وذلك لما نصح عمر بن عبد العزيز ووعظه. قال أبو علي الرحي: "لني لعند عمر بن عبد العزيز إذ جاءه البواب فقال: بالباب رجل معه طومار، عنوانه إلى عمر بن عبد العزيز بلا ختم. فدعا به، فنظر إليه فيما بينه وبين نفسه حتى أتى إلى آخر، ثم رجع حتى إذا كان قريبا من الثلث قال: اسمعوا من هذا الموضع: أبصرت يا عمر وما كدت، ونظرت وما كدت. اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقا باليا أو رسما عافيا. فيا ميت من الأموات، لا ترى أثرا فتتبع ولا صوتا فتنتفع. قد خفي عليك، أميتت السنة وظهرت البدعة وأخيف العالم فلا يتكلم، ولا يفظن الجاهل فيسأل. وربما نجت الأمة بالإمام. فانظر أي الإمامين أنت فإنه تعالى يقول: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾⁸⁸، فهذا إمام هدى ومن اتبعه شريكان. وأما الآخر فإن الله تعالى قال: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾⁸⁹ ولن نجد يا عمر داعيا إلى النار لا يتبعه أحد. ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله، فهذا مثل الذين خلوا من قبلكم، وموعظة للمتقين. فهل وجدت يا عمر حكيما يعيب ما صنع أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى أو يقضى ما يعذب عليه؟ أم هل وجدت رشيدا يدعو إلى الهدى ثم يصد عنه؟ أم هل وجدت رحيمًا يكلف العباد فوق الطاقة أو يعذبهم على

⁸⁷ البداية والنهاية ج 9 ص 36.

⁸⁸ سورة الأنبياء 74.

⁸⁹ سورة القصص 41.

الطاعة؟ أم هل وجدت صادقا يحمل الناس على الكذب والتكاذب بينهم؟ أم هل وجدت عادلا يحمل الناس على الظلم والتظالم بينهم؟ كفى بيان هذا بيانا، وبالعَمى عنه عَمى. ولا يغفرك ما نال من البلاء الأتقياء في الخاصة والعامة، قديما ما كان ذلك، فكل ما يحدث من الزلازل يزلزل الله به عباده ليختبرهم، فما ينجو منهم إلا القليل. فلا تنظر إلى أولئك، واعلم أنه لا ينبغي للبصير أن ينقاد للعمى.⁹⁰

ويدعو غيلان الدمشقي عمر بن عبد العزيز أن يقرب أهل الفضل والصلاح، ويعمل برأيهم ومشورهم، وينصحه أن يسوس الناس بالعدل ويتبع أحكام الإسلام في كل أفعاله لأن الخليفة هو إمام المسلمين فإن ضل ضلوا وإن اهتدى اهتدوا. وهو يأخذ على الأمويين استبدادهم بأمر المسلمين ومخالفتهم للسنة، وينكر عليهم ابتعادهم عن العلماء من أهل الديانة والورع. وكذلك يحاول أن يقنعه بأن الإنسان حر مختار وأنه صانع لأفعاله ومن ثم مسئول عنها.

وتضمنت نصائح ومواعظ غيلان الدمشقي إذن كل من أفكاره الأساسية في القدر وحرية الإنسان، ثم قول الإسلام في أهم مجالات السياسة وهي واجبات الإمام والعلاقات بينه وبين الرعية، كما قارن الغائب من تلك المبادئ الإسلامية المثالية مع الشاهد من الواقع في الدولة الأموية وطلب من عمر بن عبد العزيز أن يعقب على الإصلاح العام.

ويروى أن هشام بن عبد الملك مر بغيلان الدمشقي وقال: أرى هذا يعيبي ويعيب آبائي والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه. فلما ولى هشام خرج غيلان وصالح (أحد أصحابه القائلين أيضا بالقدر) إلى أرمينية فأرسل هشام في طلبهما فحجىء هما فحبسهما أياما ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلهما وقال لغيلان: كيف ترى ما صنع بك ربك؟ فالتفت غيلان فقال: لعن الله من فعل بي هذا! واستسقى صاحبه فقال بعض من حضر: لا نسقيكم

⁹⁰ طبقات المعتزلة ص 25-26، فضل الاعتزال ص 230-231، الشريعة ص 228.

حتى تشربوا من الزقوم. فقال غيلان لصالح: يزعم هؤلاء أنهم لا يسقوننا حتى نشرب من الزقوم ولعمري لئن كانوا صدقوا ان الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من عذاب الله، ولئن ما كانوا كذبوا ان الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من روح الله فاصبر يا صالح! ثم مات صالح وصلى عليه غيلان ثم أقبل على الناس وقال: قاتلهم الله كم من حق أمانته، وكم من باطل قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه؟ فقبل لهشام: قطعت يدي غيلان ورجليه وأطلقت لسانه انه قد بكى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين. فأرسل إليه من قطع لسانه فمات.⁹¹

وذكر في خير آخر أن هشاما قال له: "زعمت أن ما في الدنيا ليس هو عطاء من الله لنا. فقال له غيلان: أعوذ بجلال الله أن يأتمن خوانا أو يستخلف الخلفاء من خلقه فجارا. إن أتمته القوامون بأحكامه، الراهبون لمقامه، الذين كابدوا بالعدل الدول، وخافوا مقاما لا يجدون عنه حولا، ولا يتعللون بالعلل، باتوا ومقامهم المحدود، وليلهم المشهود، بطول القيام والسجود. لم يول الله وثابا على الفجور، ولا ركابا للمحذور، ولا شهادا بالزور، ولا شرابا للخمير. وعند ذلك أمر هشام بحبسه.⁹²

ويذكر أيضا أن الغيلانية خرجت مع يزيد بن الوليد بن عبد الملك في سنة 126هـ/743م، وهو الذي يقال له الناقص، على الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو الخليفة الكافر الذي رمى المصحف وجعله غرضا، ثم أنشد وهو يخاطب المصحف:

أتوعدي الحساب ولست أدري أحقا ما تقول من الحساب

⁹¹ طبقات المعتزلة ص 26-27، والنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 138-139.

⁹² فضل الاعتزال ص 233.

وأما الجعد بن درهم فهو أيضا كان يهاجم ويعارض بني أمية ولكن أخبار معاداته لهم وطعنه عليهم ضاعت، ولم يصل إلينا إلا رواية أوردتها الطبري، وهو يشير إلى أن الجعد بن درهم كان من مرجئة الجبرية الذين انضموا إلى يزيد بن المهلب الأزدي (ت 102هـ/720م)⁹⁴ عندما ثار على يزيد بن عبد الملك بالعراق في مطلع القرن الثاني، وأعلن خلعه، ونادى بأن تكون الخلافة شورى بين المسلمين وبأن يعمل الخلفاء بالكتاب والسنة.⁹⁵

وعن الجهم بن صفوان يقول البغدادي أنه كان يحمل السلاح ويقاتل السلطان. وخرج مع سريج بن الحارث⁹⁶ (ت 128هـ/746م)⁹⁷ الذي ثار على الحكم الأموي سنة 116هـ/734م، وقتله، أي الجعد، سلم بن أحوز المازني في آخر زمان بني مروان، في سنة 128هـ/745م.⁹⁸

ولما كانت التزايدات بين الفرق العقائدية السياسية تدرك ذروتها ولدت فكرة الاعتزال على يد واصل بن عطاء. وقد أسلفنا ذكر لحظة الانشقاق داخل مجلس الحسن البصري ورأينا أن سائلا سأل سؤالا كان يشغل بال كل امرء مسلم يومئذ سواء كان متورطا في

⁹³ نفس المرجع ص 115.

⁹⁴ أمير، من القادة الشجعان الأحرار. ولي خرسان بعد سنة 83هـ/702م فمكث نحو من ست سنين. وعزله عبد الملك برأي الحجاج الذي كان يخشى بأسه. فلما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ولاء العراق ثم خرسان. فلما جاء عمر بن عبد العزيز عزله وحجسه. وبعد وفاة عمر أخرج من السجن وسار إلى البصرة فدخلها وغلب عليها سنة 101هـ/719م، ثم نشبت حروب بينه وبين أمير العراقيين، وانتهت بمقتل يزيد. (وفيات الأعيان ج 6 ص 278، تاريخ خليفة بن خياط ص 206)

⁹⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 591.

⁹⁶ في تاريخ الرسل والملوك الحارث بن سريج. ج 7 ص 330.

⁹⁷ ثار من الأبطال. كان من سكان خرسان، وخرج على أمره نصر بن سيار سنة 116هـ/734م فلبس السواد خالعا طاعة بني مروان، والخليفة يومئذ هشام بن عبد الملك، وداعيا إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضى من آل محمد. (تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 94-98،

و 330-340)

⁹⁸ الفرق بين الفرق ص 128، وتاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 330.

شؤون السياسة أو الفكر الديني المحض أو كان رجلا عاديا لم تتعد همومه التجارة أو الحياة اليومية.⁹⁹ وسأل سائل: "يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة. وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟"¹⁰⁰

وعن مدى تسلل هذه المسائل إلى أذهان المسلمين وعن مدى تورط المتورطين فيها تشهد واقعة أخرى، حيث سأل سائل الحسن البصري أيضا عن الملوك الذين كانوا حينئذ يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال وكانوا يبررون أفعالهم هذه الشريرة زاعمين أنها تجري على قدر الله تعالى. فأجاب الحسن: كذب أعداء الله،¹⁰¹ أي الملوك.

وكان واصل بن عطاء حاضرا لما جاء السائل في الحدث الأول، وهو الذي سبق الحسن البصري في الجواب قائلا: "أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر". ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أحاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسمي هو وأصحابه معتزلة.¹⁰² وكان هذا الجواب تبشير ببداية فترة جديدة داخل ميدان الكلام خاصة والفكر الإسلامي عامة.

إن قول واصل أن الفاسق ليس مؤمنا ولا كافرا وأنه في المنزلة بين المنزلتين عبارة عن محاولة للتوفيق بين الظاهيين إلى القول بأنه كافر مخلد في النار وبين من زعم أنه لا يزال مؤمنا

⁹⁹ ههنا يحذر الإمام الغزالي من توريط العوام في مسائل الكلام، وأن ذلك حرام يضر لديهم شكا وزلزالا. ويكون الضرر أكبر من النفع، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح. إحياء علوم الدين ج 1 ص 98.

¹⁰⁰ الملل والنحل ج 1 ص 67-68.

¹⁰¹ للمعارف ص 251.

¹⁰² الملل والنحل ج 1 ص 68.

إذ أن العمل ليس إيمانا وتركه لا يضر لكون الإنسان مؤمنا. كما كان اعتقاد واصل بن عطاء عبارة عن الإرجاء المؤقت للحكم على مجترح الفسوق وطبيعتها وبالتالي التخفيف إن لم يمكن تجميدها للصراع والتخاصم بين القائلين بالقدر وحرية الإنسان الكاملة وبين من ادعى الجبر ونفي المسؤولية. وما هو أكثر جدوى من كل ذلك أن قاعدة المتزلة بين المتزتين سمحت لأصحابها أن يقوموا بعمل الإصلاح والتغييرات في مجال كل من السياسة والفكر الإسلامي ومجال الكلام بصفة أخص. ولتحقيق هذا المشروع لم يكن بد من قوة الحجة والبرهان، وفعالية أسلحة الجدل والمحااجة والمناظرة. وعلى هذا كان مذهب الاعتزال مذهب الإصلاح والتوفيق في كل من السياسة والفكر. وطور المعتزلة مناهج وقواعد ومبادئ علم الكلام الجديدة، كما وقفوا في جبهة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد الهجمات من الداخل والخارج وتسלحوا في ذلك بأسلحة المنطق والفلسفة.¹⁰³

إذن كانت قاعدة المعتزلة الأولى المتزلة بين المتزتين وهي تدل على التوفيق بين المتخاصمين، والإرجاء المؤقت، والإصلاح العام في المجتمع الإسلامي. ولكن للمعتزلة خمسة أصول متكامل وتدعم بعضها بعضا وتشكل نظاما فكريا متناسقا نستطيع أن نستنبط منه حقيقة اعتقادهم الدينية ومواقفهم السياسية. إن المعتزلة باعتقادهم الدينية مثل نفي صفات الله تعالى الأزلية، ونفي رؤية الله تعالى، ونفي الشفاعة، ونفي الجبر وإثبات حرية الإنسان المطلقة ومن ثم إثبات مسؤولية الإنسان التامة عن أعماله، وخلق القرآن وغير ذلك، لم يخالفوا في الحقيقة سابقيهم في الغلو والتطرف والانحراف، كما لم يقل تشددهم وتحمسهم في تلك الاعتقادات. ولكننا نلاحظ اختلافا كبيرا في اقتراب المعتزلة من الأمور السياسية والاجتماعية وتطورها ثم في مناهج عرض أفكارهم المرنة على غيرهم. وسر كل ذلك يكمن في أصل المتزلة بين المتزتين وأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبعاد هذين الأصلين السياسية والاجتماعية. إن حقائق هذين المبدئين المخفية قد ساهمت في نجاح المعتزلة في كثير من

¹⁰³ أنظر العقل والحرية ص20، وأصل العدل عند المعتزلة ص32.

See: The Encyclopaedia of Islam, vol. 3 page 788.

الأوقات في ترويج بقية أصولهم: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، التي تمثل لب وجوهر فكرهم العقائدي. وذلك لأجل العناصر التي كان يملكها هذان المبدعان، ومنها عنصر الدعوة الشاملة من الناس العادين إلى الحكام. وتلك الدعوة وإن كانت متمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن شطرها الواسع كان مركزاً على استغلال سلبية الصراع العقائدي والسياسي وتقديم بديل أو حلول للخصومات بين الأطراف المتخاصمة في مجال كل من العقيدة والسياسة.

ويروى أن واصل بن عطاء أنفذ أصحابه إلى الآفاق وبث دعائه في البلاد. قال أبو الهذيل (ت 235هـ/850م)¹⁰⁴: بعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأجابه خلق كثير. وبعث إلى خرسان حفص بن سالم فدخل ترمذ¹⁰⁵ ولزم المسجد حتى اشتهر ثم ناظر جهما فقطعه فرجع إلى قول أهل الحق. فلما عاد حفص إلى البصرة رجع جهم إلى قوله الباطل. وبعث القاسم إلى اليمن، وبعث أيوب إلى الجزيرة، وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية فقال: يا أبا حذيفة إن رأيت أن ترسل غيري فاشاطره جميع ما أملك حتى أعطيه فرد نعلي. فقال: يا طويل اخرج فلعل الله أن ينفعك. فخرج للتجارة فأصاب مائة ألف وأجابه الخلق.¹⁰⁶

ويروى أن واصل بن عطاء لما بعث حفص بن سالم لمناظرة جهم في الإرجاء قال له: إذا وصلت إلى بلده فالزم سارية في الجامع سنة حتى يعرف موضعك، فيشتاق الناس إلى السماع، ثم استدع مناظرة جهم، ولقته مسألتين: أحدهما: سله عن الإيمان، خصلة واحدة أم خصال؟ فإن قال بل خصلة واحدة وهي المعرفة فقل له: فمن أصاب هذه الخصلة فقد

¹⁰⁴ هو محمد بن الهذيل أبو الهذيل العلاف من أئمة المعتزلة. ولد في البصرة واشتهر بعلم الكلام. له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات. كان حسن الجدل، قوي الحجة، سريع الخاطر. كف بصره في آخر عمره، توفي بسامرا. له كتب كثيرة منها كتاب سماه "ميلاس" على اسم مجوسي أسلم على يده. (أنظر تاريخ بغداد ج 3 ص 366، وفيات الأعيان ج 4 ص 265)

¹⁰⁵ مدينة في أوزبكستان على حدود أفغانستان. (معجم البلدان ج 2 ص 26)

¹⁰⁶ طبقات للمعتزلة ص 32-33، اللبنة والأمل في شرح الملل والنحل ص 141.

أصاب الإيمان كله. فإذا قال: نعم. فقل له: فمن أخطأها أصاب الكفر كله. فإذا قال: نعم، ولا بد له، فقل له: فيجب أن يكون اليهودي نصرانيا والنصراني مجوسيا. والمسألة الثانية: قال: قل له: حدثني عن رأي السماء بخرسان، فعلم أنها مصنوعة ولها صانع، أهو مؤمن؟ فإذا قال: نعم، فقل له: فإن هو صار إلى البصرة فرأى السماء فيها فشك هل لها صانع أشكه في ذلك كفر؟ فإذا قال نعم انتقض عليه أن الإيمان خصلة واحدة.¹⁰⁷

وكذلك في مجال السياسة نجح المعتزلة في ترويج اعتقادهم¹⁰⁸ بحيث اعتنق هذا المذهب عدد من الحكام في كل من الدولة الأموية والعباسية.¹⁰⁹

ومن العناصر التي يملكها هذان الأصيلان، المتزلة بين المتزتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عنصر المرونة إن دعت الحاجة إلى ذلك. ومنها عنصر الشدة والعزيمة في ظروف معينة. وفي صدد الحديث عن أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (ت 415هـ/1025م)¹¹⁰: "واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضربين: أحدهما ما لا يقوم به إلا الأئمة، والثاني ما يقوم به كافة الناس. أما ما لا يقوم به إلا الأئمة فذلك كإقامة الحدود، وحفظ بيضة الإسلام، وسد الثغور، وتنفيذ الجيوش،

¹⁰⁷ فضل الاعتزال ص 241.

¹⁰⁸ See: Afzal Iqbal: The Culture of Islam: page 217-218, Institute of Islamic Culture, Lahore, Second

Edition, 1974.

¹⁰⁹ سنن فصل القول عن هذا في ثانيا البحث بإذن الله تعالى. وما نود أن ننوه عنه هنا هو أن فكرة الاعتزال فعلا فشا واستتب في أقاليم الدولة الإسلامية الكثيرة بسرعة هائلة. وذلك نظرا لجهود وتقاني أصحابها من جانب، والإستراتيجية الحكيمة والهدية كما كان يفعله وأصل بن عطاء أثناء إرسال دعائه إلى الأمصار من جانب آخر. ففي كتاب "فضل الاعتزال" فصل بعنوان "ذكر الكور التي غلب عليها الاعتزال والقرول بالعدل" (ص 108-114) حيث تورد أسماء المدن والقرى التي غلبت عليها فكرة الاعتزال، والعديد كبير جدا. تغطي القائمة مجموعة من المدن والقرى في تقريبا كل أقاليم الدولة الإسلامية حينئذ. وعن نطاق نفوذ للمعتزلة في مكة يتكلم ما رواه الشافعي عن علي: "قدمت مكة فغلبت علينا للمعتزلة". وكذلك قول أحمد بن حنبل الذي رواه عن ابن عيينة: "لما مات عمرو بن دينار كان ابن أبي نجيع يفتي الناس...". أي كان لهما منصب الإفتاء بمكة، وكلاهما كانا من المعتزلة. (الإسلام وفلسفة الحكم ص 253)

¹¹⁰ قاض، أصولي، كان شيخ للمعتزلة في عصره. يلقبه المعتزلة بقاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. (تاريخ بغداد ج 11

ص 113)

وتولية القضاء والأمراء وما أشبه ذلك. وأما ما يقوم به غيرهم من أفناء الناس فهو كشرب الخمر، والسرقه، والزنا، وما أشبه ذلك. ولكن إذا كان هناك إمام مفترض الطاعة فالرجوع إليه أولى...¹¹¹ وقال أيضا أن الغرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يضع المعروف ولا يقع المنكر. فمضى حصل هذا الغرض بالأمر السهل لا يجوز العدول عنه إلى الأمر الصعب، وهذا مقرر في العقول. وإلى هذا أشار تعالى بقوله: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي} ¹¹² فالأمر الأول هو إصلاح ذات البين، ثم المقاتلة إن لم يرتفع الغرض إلا بها...¹¹³

التركيز على حقيقة الإمام ومكانته وواجباته ومسئوليته وخصائصه ودوره في الدولة في كلام المعتزلة عن أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واضح كل الوضوح.¹¹⁴ وذلك أن

¹¹¹ شرح الأصول الخمسة ص 148.

¹¹² سورة الحجرات 9.

¹¹³ شرح الأصول الخمسة ص 741.

¹¹⁴ اتفق المعتزلة مع بقية الفرق الإسلامية في زعمهم بضرورة وجود سلطة حاكمة بالعدل في المجتمع الإسلامي (الإمامة). معظم المعتزلة جعلوا العقل طريق وحوب الإمامة. (العقل لدى المعتزلة يأتي قبل النقل، عكس ما يقوله أهل السنة والجماعة) وعندما يقول المعتزلة بوجوب الإمامة فإنهم يقصدون أنها واجبة على الخلق والناس وليس على الخالق، لأنهم عندهم أمر دينوي وليس بدني، أي في الرئاسة مصاح دينوية ودفع مضار دينوية.

وقد اتفق المعتزلة أن تنصيب الإمام يتم بالاختيار لا بالنص، والاختيار واجب "الخاصة" دون "العامة". والذي يميز "الخاصة" عن "العامة" شروط تتصل بالفكر والرأي والمعرفة والسلوك بحيث يكون الاختيار أكثر صوابا والرأي أكثر أحكاما والأمور موضوعية في نصاها الطبيعي والسليم. والعامة لا قدر لهم في هذا. يشترط جمهور المعتزلة أن يكون الإمام متمكنا من القيام بما فرض عليه، أي أن يكون سليما من النواقص الجسدية والنفسية. أن يكون عالما بكيفية مهام منصبه وبالتالي يكون قادرا على إنجازها على النحو الأكمل. أن يكون متصفا بالأمانة حتى تسكن نفوس الناس إليه. أن يكون مقدما في الفضل. وأن يكون قرشي النسب. ورفضوا تعدد الأئمة في العصر الواحد حتى ولو تباعدت الديار.

وقالوا أن الإمام خاضع لرقابة الأمة وحسابها لأن الأمة هي التي اختارته ومن حقها عزله والتورع عليه إن دعت الظروف إلى ذلك. ومن هنا ركز المعتزلة على شرط العدالة في الإمامة تركيزا شديدا. وكانوا من الرأي أن الإمام يأخذ على يده العلماء ينهونه على غلطه، ويردونه عن باطله، ويذكرونه بما زل عنه، وإن زاغ عن طريق الحق استبدلوا به. والمعتزلة الذين قالوا بأن الفاسق محلد في النار، وأنه في منزلة بين الكفر والإيمان هي منزلة الفاسق، قد وقفوا دائما ضد إمامة الفاسق، بل أوجبو الخروج على أئمة الجور ورأوا نصرة الخارجين عليهم وإن كانوا ضالين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلت عليهم، لأن الضلال بشبهة أعدل وأقرب إلى الحق من الفاسق للتغلب بغير شبهة. والنسق الذي يوجب الخروج على الفاسق وقهره هو الفسق الظاهر. أما إذا أبطن الفسق فلا مجال للخروج عليه. إن المعتزلة وافقوا في إلحاحهم على الخروج على أئمة الجور الزيدية والخوارج بينما خالفوا جمهور أهل السنة والجماعة الذين رأوا إنكار الخروج بالسيف عليهم، حتى لو قتل

هناك من الأمور الهامة للدولة لا يستطيع أن يقوم بتحقيقها إلا السلطة. وإهمال تلك الأمور من قبل السلطة يسبب أضرارا فاجعة، وهي أوسع من الأضرار التي تسببها الأطراف المنفردة الأخرى بإهمال الأمور التي ينبغي أن تمارسها داخل نطاق نفوذها.

ومن تلك العناصر عنصر القابلية والفرصة للحوار والتحالف مع كثير من الأطراف في المجتمع الإسلامي. وذلك طبعا على حسب الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية. ومنه عنصر الاستعداد لمناهضة الضالين والزنادقة مهما كان مهد ضلالتهم وزندقتهن. وذلك بلا شك يستجلب التعاطف المصطحب دائما بالموافقة والتشجيع لدى كل من الحكام والعوام.

هؤلاء الرجال واغتصبا الأموال. ورأى جمهور أهل السنة والجماعة أن عدم التعاون مع أئمة الجور وعدم الطاعة المطلقة وتقدم النقد والصالح المستمر لهم أفضل لمصالح الأمة خوفا من فتنة أكبر وأوسع، كما سبق أن تحدثنا في فصلنا "مواقف العلماء من حكام العهد العباسي الأول".

وكان موقف المعتزلة هذا سببا من الأسباب التي دفعت المعتزلة إلى المشاركة في بعض ثورات العلويين ضد كل من الأمويين والعباسيين. وبالنسبة للأمويين فإنهم في عيون المعتزلة كلهم كانوا فجارا ما عدا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد. وقد اعتنق الثاني بتاتا مذهب الاعتزال.

وظل المعتزلة ينفون مواقف المعارضة حتى بعد إفضاء السلطة إلى العباسيين. فخرج عدد كبير منهم على الدولة مع إبراهيم بن عبد الله سنة 145هـ/762م في البصرة. في كتاب "فضل الاعتزال" قائمة طويلة ممن خرج من المعتزلة مع إبراهيم (ص117-119). إن الوضع قد تغير بعد وفاة الخليفة المنصور ووصول الخليفة المهدي إلى الحكم. وذلك أن المهدي أعلن الحرب ضد الشعبيين والزنادقة. اتخذت الحرب للذكور شكلين: الشكل المسلح والشكل الفكري والجدلي. كان المهدي في الشكل الثاني من المواجهة في حاشية إلى العلماء وخاصة المتكلمين، وكان من أكثر المتكلمين نشاطا يومئذ المعتزلة. ومن هنا بدأت تتحسن العلاقات بين الطرفين. لم تتغير الأوضاع إلا فترة يسيرة أثناء حكم الخليفة الرشيد الذي منع الكلام وسجن المتكلمين. لكن انتعش الجدل والاشتغال بالكلام من جديد واستأنفت الحرب الفكرية بمدة وشدة أعظم في عهد الخليفة المأمون حيث استطاع مذهب الاعتزال أن يستفحل. وفي النهاية احتضن المأمون الاعتزال وحاول أن يفرضه على الأمة كمنهج عقائدي رسمي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نقول ربما استغنى المعتزلة عن المقاومة المسلحة والخروج بعد وفاة المنصور لفقد التمكن وغياب ضمان النجاح، وربما لعة الفشل فيما تقدم لهم من ثورات. فرأوا في استفحال الشعبية والزندقة تحديات فكرية استلزمت الاهتمام بالفلسفة والمنطق وأدوات الجدل والمناظرة. كما لاحظوا أنهم قادرون من خلال تلك المشاريع تحقيق ما لم يقدروا بثورات مسلحة، أي السلطة الفكرية والسياسية. وهنا أيضا تتضح أهمية قاعدة "المؤلة بين المؤلتين" ومرتوتها وقابليتها للتعامل مع الأطراف المتباينة في الظروف المتباينة. سنتكلم عن هذا بأكتر تفاصيل في صفحات لاحقة بإذن الله تعالى. (أنظر: الإسلام وفلسفة الحكم ص325، 434، 460، 613 وما بعدها، فضل الاعتزال ص115-119، الفصل في الملل والأهواء والنحل ج5 ص20)

وعن هذا الانسجام بين النشاط الفكري والسياسي على يد المتكلمين الأوائل والذي أدرك أوجه بنشأة المعتزلة يقول الدكتور محمد عمارة: "...ولذلك كان طبيعياً أن يتميز فكر هذا التنظيم وتلك المدرسة (المعتزلة)، الخاص بالحرية والاختيار بأبعاد وآفاق سياسية، لنشأته في هذه الفترة وتلك الظروف التي تميزت بهذا النشاط السياسي الكبير. وفي هذا المجتمع الذي شهد كل ألوان النشاط الفكري والسياسي بواسطة تنظيمات علنية وسرية استهدفت العديد والمتناقض من الأهداف والغايات... فهو إذن فكر ذو طابع سياسي، نشأ على أيدي رجال مارسوا العمل السياسي والاجتماعي، وشاركوا في هذه الثورات. ولم يكونوا مجرد مفكرين نظريين متأملين".¹¹⁵

والحقيقة التي لا شك فيها أن المعتزلة بالفعل نجحوا في تأصيل مذهبهم على دعائم ثابتة، كما كسبت اجتهاداتهم في الدعوة إلى مذهبهم إجابات كثير من الناس ومن طبقات المجتمع الإسلامي المختلفة. وقد أسلفنا الإشارة إلى دعاة واصل بن عطاء ونجاح دعوتهم. ويقال أيضاً أن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب اقتبس من واصل بن عطاء الاعتزال وصار أصحابه كلهم معتزلة. قال الشهرستاني في ذلك: "وزيد بن علي أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتجلى بالعلم، فتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ورئيسهم، مع اعتقاد واصل أن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه -في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام- ما كان على يقين من الصواب، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه. فاقتبس منه الاعتزال وصار أصحابه كلهم معتزلة".¹¹⁶

¹¹⁵ المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ص 148.

¹¹⁶ للعل والنحل ج 1 ص 203-204.

ومن أكبر نجاح المعتزلة في ترويج مذهبهم في أطواره الأولى، أو في الدولة الأموية، احتضان الخليفة يزيد بن الوليد لقولهم وما ذهبوا إليه من الأصول الخمسة.¹¹⁷

وبعدما استولى يزيد على الحكم بعون المعتزلة الأوائل قام في الناس خطيبا فقال: "والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة في الملك، وما بي اطرأ نفسي واني لها لظلوم. ولكني خرجت غضبا لله ولدينه وداعيا إلى كتاب الله وسنة نبيه، لما هدمت معالم الهدى وأطفئ نور أهل التقى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب، وأنه لابن عمي في الحسب وكفئي في النسب. فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمري وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، واستعنت من أطاعني من أهل ولايتي إلى أن أراح الله منه العباد، وطهر منه البلاد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي... أيها الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم."¹¹⁸

وذكر عن عمرو بن عبيد أنه قال لأصحابه: تهيئوا حتى نخرج إلى هذا الرجل فنعيه على أمره. وكان على ذلك إذ ورد عليه خبر موت يزيد.

وذكر عيسى بن حاضر قال: قلت لعمرو بن عبيد: ما قولك في عمر بن عبد العزيز؟ فكلح وصرف وجهه، ثم قلت له: ما قولك في يزيد الناقص؟ فقال: إنه الكامل عمل بالعدل وبدا بنفسه، وقتل ابن عمه في طاعة الله، وصار نكالا على أهل بيته، ونقص من اعطياهم ما زادته الجبايرة، وجعل في عهده شرطا ولم يجعله جزما. والله لسانه ينطق عن لسان أبي سعيد.¹¹⁹

¹¹⁷ مروج الذهب ج3 ص234.

¹¹⁸ فضل الاعتزال ص116-117.

¹¹⁹ نفس المرحع ص117.

ولكن لأجل تعنت الأمويين وتشددهم في الاعتصام بالمبادئ التي بنيت عليها دولتهم منذ أول وهلة، ولأجل عدم وجود علامات تقرر استعدادهم للكف والتخلي عنها وعن سلوكهم القديم لم يتم الاندماج بينهم وبين المعتزلة. وظلت مواقف المعتزلة من الدولة الأموية إذن مواقف المعارضة. ومما يستدعي الانتباه أن المعتزلة في حقيقة الأمر لم يشذوا كثيرا عن انحراف سابقهم ومعاصريهم من المتكلمين في آرائهم الاعتقادية، كما عارضوا الأمويين في مجال السياسة معارضة شديدة لم تكن في غالب الأحيان أخف من سابقهم ومعاصريهم من المتكلمين. إلا أننا نلاحظ أن مصير المعتزلة كان مخالفا لمصير هؤلاء ولا نعرف حالة أعدم أو اضطهد فيها أحد من المعتزلة. ولكن بالعكس حظوا دائما بالاحترام من قبل الحكام في كل من الدولة الأموية والعباسية.¹²⁰ وذلك بلا ريب يرجع إلى مهارة، ودهاء وكفاءة المعتزلة في أن يمزجوا بين مواقفهم السياسية واعتقاداتهم الدينية، ثم يفعموا مناهجهم التبشيرية بالحكمة وقوة البرهان وفعالية أسلحة جدلهم. وكونهم معتدلين أو متحمسين أو ما كان بين ذلك قد كان دائما يتناغم ويتماشى مع الظروف العامة في الدولة. وقد كان هذا بسبب ثبات وترباط الأصول الخمسة فيما بينها، ولا سيما الترابط بين الأصول التي تمثل اعتقادات المعتزلة الدينية والأصول التي تحدد مساعيهم السياسية والاجتماعية كما تقدم.¹²¹

¹²⁰ روي أن أبا جعفر المنصور كان يبالغ في تعظيم عمرو بن عبيد حتى قيل له: ان عمرا خارج عليك. فقال: هو بريء أن يخرج علي إذا وجد ثلاث مائة وبضع عشرة ومثله وذلك لا يكون. ومر بقره في مران فصرى عليه ودعا له وقال:

صلى الإله عليك من متوسد قبرا مررت على مران

قبرا تضمن مومنا متحشعا عبد الإله ودان بالقرآن

وإذا الرجال تنازعوا في شبهة فصل الحديث بمحنة وبيان

ولو أن هذا الدهر أبقي صالحا أبقي لنا عمرا أبا عثمان (طبقات للمعتزلة ص 40-41)

¹²¹ لمزيد من التفاصيل أنظر للمعتزلة بين الفكر والعمل ص 27 وما بعدها، والحركات السرية في الإسلام ص 87 وما بعدها، ومحمد عابر الجابري: التراث والحداثة ص 58، مركز دراسات الوحدة العربية، 1991م.

وروي أن عبد الله بن عبد العزيز (ت حول 132هـ/749م) وكان تولى البصرة من قبل يزيد بذل مائة ألف درهم لواصل بن عطاء لنفقته ونفقة أهله فأبى أن يأخذها، وقال له: إن ذلك هو من مالي لا من مال المسلمين. فقال: إني دعوت نفسي إلى أمر فأجابني فلست بمخرجها إلى غيره، فلم يقبل ذلك، فأعطى أصحابه الذين كانوا معه خمسة آلاف خمسة آلاف. فقال لهم واصل: لئن كنتم صادقين لما كنتم تقولون، لقد خرجتم منه، ولئن كنتم متصنعين لقد بعتموه بيسير.¹²²

وفي ضوء مواقف المعتزلة من الأمويين نرى محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت 538هـ/1144م) يصف أمراء الدولة الأموية بأنهم "الأمراء الجورة" وينسب هذه التسمية إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم. وذلك عندما يقول في تفسير آية: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾¹²³: "...روى أنها لما نزلت جمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأنصار فقال: إنكم ستجدون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني. يعني أني أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة، فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة... وروى أن قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم دخل عليه من بعد فقال له: ما لك ما تلتقانا؟ قال: لم تكن عندنا دواب. قال: فأين النواضح؟! قال: قطعناها في طلبك وطلب أهلك يوم بدر! وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثره... قال معاوية: فماذا قال؟ قال: فاصبروا حتى تلقوني. قال: فاصبر. قال: إذن نصبر. فقال عبد الرحمن بن حسان (ت 51هـ/671م)¹²⁴:

ألا اببلغ معاوية بن حرب
أمير الظالمين نثا كلامي

¹²² فضل الاعتزال ص 238.

¹²³ سورة يونس 109.

¹²⁴ كان من أصحاب علي بن أبي طالب، وأقام في الكوفة يمرض الناس على بني أمية، فقبض عليه زياد بن أبيه وأرسله إلى الشام. فدعاه معاوية إلى البراءة من علي فأغلظ في الجواب فردّه إلى زياد فدفنه حيا. (الأعلام ج 3 ص 303)

6) الزندقة والشعوبية

لقد واكب تطور علم الكلام في الإسلام تطور ظاهرتين جديدتين على صعيد المجتمع الإسلامي وهما: الزندقة والشعوبية.

أما الزندقة فقد اختلف الباحثون في أصل الكلمة، فمنهم من ذهب إلى القول بأنها إغريقية، ومنهم من قال أنها آرامية، ومنهم من زعم أنها فارسية معربة عن زنديق.¹²⁶ والقول الأخير هو الصحيح. فإن الكلمة كانت تطلق بمعناها الأصلي على المؤمن المخلص من أتباع ماني المفكر المصلح الذي أعلن الثورة الاجتماعية على الزرادشتية، وهو دين الدولة الرسمي الذي كان يمنح الجماعة الحاكمة امتيازات واسعة، ويسمح بالتفاوت الطبقي الحاد بينها وبين أفراد الشعب.¹²⁷

يقول صاحب لسان العرب أن كلمة الزندقة فارسية معربة. وهي بالفارسية زندكراي، يقول بدوام بقاء الدهر. والزندقة الضيق، وقيل: الزنديق منه لأنه ضيق على نفسه.¹²⁸

ويقول أيضا أصحاب الموسوعة العربية الميسرة: "زنديق معرب عن الفارسية، أطلقه الفرس قديما على الخارج على دين الدولة ببدع معينة وأهمها القول بأزلية العالم".¹²⁹

¹²⁵ عمود بن عمر الزعشمري: الكشف ج 1 ص 434-435، القاهرة، الطبعة الأولى، 1307هـ.

¹²⁶ أنظر حامد عبد القادر: قصة الأدب الفارسي ص 60، مكتبة تحفة مصر، القاهرة، 1951م، والدكتور حسين عطوان: الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول ص 12، دار الجليل، بيروت، دون سنة الطبعة، وعاطف شكري أبو عوض: الزندقة والزنادقة ص 75، دار الفكر، عمان، دون سنة الطبعة.

¹²⁷ الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول ص 13.

¹²⁸ لسان العرب ج 10 ص 147.

ولكن من هم الزنادقة في المجتمع الإسلامي؟ يغلب القول أنهم هم المانوية¹³⁰ الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر أو الزندقة.¹³¹ ولكن اتسع المعنى للزندقة واشتمل على بقية الديانات الفارسية القديمة من مثل المزدكية¹³²، والديصانية¹³³ وغيرها. وكل من اعتنق هذه الديانات كان يعد زنديقا. ففي وصية الخليفة المهدي لابنه الهادي بشأن ملاحقة الزنادقة يريد بهم المانوية والمزدكية مما يدل على أن هؤلاء كانوا أغلبية الزنادقة وأكثرهم شأنا وشدة يومئذ في الدولة الإسلامية.¹³⁴

¹²⁹ الموسوعة العربية الميسرة ج 1 ص 929.

¹³⁰ هم أصحاب مان بن فاثك الحكيم الذي تولى الملك بالفارس عام 242م. يقول ماني نبوة عيسى عليه السلام ولا يقول نبوة موسى عليه السلام وادعى أنه النبي الذي بشر به عيسى عليه السلام وهو خاتم الأنبياء. وهم أصحاب الاثنين أي النور والظلمة وهما أزيان، ولا يقولون بوجود عالم ثالث. وزعموا أن ما في الأرض من منفعة وخير وبركة فمن أحسن النور، وما فيه من مضرة وشر وفساد فمن أحسن الظلمة. اختلف المانوية في الزواج وسببه فمنهم من رأى أن النور والظلام امتزجا بالخيوط والاتفاق لا بالقصد والاختيار، ومنهم من رأى عكس ذلك. (المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج 1 ص 44-45، الفرق بين الفرق ص 162)

¹³¹ أنظر الفهرست ص 338، والموسوعة العربية الميسرة ج 1 ص 929.

¹³² طائفة وضع أسسها مزدك الذي ظهر في فارس في أواخر القرن الخامس للميلاد. أصله من نيسابور ودعا إلى مذهب ثنوي جديد. كان يقول بالنور والظلمة ولكن تعاليمه امتازت بالاشتراكية حيث يرى وجوب المساواة بين الناس في المال والنساء. ولحقه عن المحالفة والمباغضة والقتال، ولما كان سبب ذلك غالبا الأموال والنساء فقد أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركاء كاشترأهم في الماء والنار والكلأ. وقد حرم ذبح الحيوانات. ومن تعاليمه الروحية الزهد والقناعة. وكان يأمر بقتل الأنفس لتحليصها من الشر ومزاج الظلمة. وادعى أن معبوده حاس على كرسيه في العالم الأعلى وبين يديه أربع قوى هي: قوة التمييز، قوة الفهم، قوة الحفظ، وقوة السرور. (أنظر الفرق بين الفرق ص 160، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج 1 ص 46-47)

¹³³ فرقة تنسب إلى ابن ديسان، وهو كان أسقفا، وذهب إلى القول بالاثنتين. وكان يسمى الشمس أبا الحياة والقمر أم الحياة، ويقول أنه في أول كل شهر تخلع أم الحياة النور الذي هو لباسها وتدخل على أبي الحياة فيباشرها فتلد أولادا يمدون العالم السفلي بالنمو والزيادة. (دائرة المعارف ج 3 ص 29)

¹³⁴ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 220.

ثم اتسع معنى الزندقة أكثر من هذا فشمل الدهريين الملحدين¹³⁵ وسائر أصحاب
المعتقدات الضالة، بل أطلق على المشككين، وكل متجرد من أحكام الدين فكرا
وعملا.¹³⁶

أما كلمة الشعوبية فيقول صاحب لسان العرب أنها ترجع إلى كلمة الشعب، والجمع
الشعوب بمعنى القبيلة. وقيل لمحتقر أمر العرب: شعوبي. والشعوب فرقة لا تفضل العرب على
العجم. والشعوبي: الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم.¹³⁷

والشعوبية حركة ثقافية حضارية مناهضة للعرب. وكانت رد الفعل على ما استشعره
العرب من تفوقهم على غيرهم من الأمم. وذلك بعد هزيمة الروم والفرس. وكان قصدها في
أول الأمر المساواة، ثم تطورت إلى التحقير من العرب وذمهم. وقال الأستاذ أحمد أمين عن
الظروف التي نشأت فيها الشعوبية: "فالحق أن الحكم الأموي لم يكن حكما إسلاميا يسوى
فيه بين الناس... كانت تسود العرب فيه التركة الجاهلية لا التركة الإسلامية. فكان الحق
والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل. فالعمل حق إذا صدر عن عربي من قبيلة،
وهو باطل إذا صدر عن مولى أو عربي من قبيلة أخرى... إن هذا طبعاً لم يكن نظراً عاماً
عند العرب جميعهم إنما كان هو النظر السائد بين البدو والولاة..."¹³⁸

وكانت لنشأة الشعوبية أسباب اجتماعية، وسياسية واقتصادية.¹³⁹ وقد تماشيت تصرفات
الأمويين الظالمة تجاه الموالي مع مطامح بعض هؤلاء في تحقيق المساواة مع العرب ثم التفوق

¹³⁵ فرقة من الكفار القائلين أن العالم موجود أزلاً وأبداً لا صانع له. (المنجد في اللغة والأعلام ج1 ص227، الفصل في الملل والأهواء

والنحل ج5 ص60)

¹³⁶ أنظر الموسوعة العربية الميسرة ج1 ص929، ومن تاريخ الإلحاد في الإسلام ص37.

¹³⁷ لسان العرب ج10 ص500.

¹³⁸ ضحى الإسلام ج1 ص27.

¹³⁹ أنظر عن هذه الأسباب الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول ص151-153.

عليهم وإعادة العزة الفارسية الضائعة، من حيث نتج شعور الحسد والتحقير والذم والعداوة. وبعد استفحال كل من الزندقة والشعوبية لم تقتصر الزندقة على اعتناق الديانات الفارسية فحسب بل أقدم أصحابها على نشر تلك الديانات المقرون دائما بمناهضة المسلمين مناهضة أيديولوجية ومناهضة مسلحة. وكذلك الشأن مع الشعوبية فإن قصدها قد تجاوز مطالب المساواة بل أيضا التفوق على العرب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. كما تنبه أصحابها إلى أهمية القواعد والأصول الأيديولوجية التي يمكن أن تبني وتقوم عليها حركتهم الشعوبية. فقد رأوا في الزندقة التي توافقت ازدهارها مع ازدهار الشعوبية ينبوعا لاستسقاء تلك القواعد والمبادئ، ولأجل ذلك سارعوا إلى احتضانها والتعاون مع أصحابها. وبهذا تبلور لنا عوامل نبوغ وتقوية الصلة بين الحركتين في أطوارهما المتأخرة، أي العصر الذي ترعرعت فيه كل من الزندقة والشعوبية وهو العصر العباسي الأول. وبناء على ذلك كانت حركة الزندقة كلها أو معظمها ترجع إلى حركة الشعوبية. ونستطيع أن نوكد على أقل تقدير أن بين كلتا الحركتين علاقة قوية وثيقة، حتى كان بعض أنصار العربية ضد الشعوبية يتخذون من الشعوبية وسيلة للدلالة على الزندقة.¹⁴⁰

إن الحركتين الزندقة والشعوبية نشأتا في النصف الثاني من القرن الأول الهجري على وجه التقريب وبقيتا مستترتين طوال العصر الأموي. ولكن بعد انتقال الحكم إلى العباسيين استخدموا الفرس واستعملوهم في المراكز العامة وأسندوا إلى بعضهم مسئولية الحكم. وبطبيعة الحال أحس هؤلاء بذواقم وتسلط عليهم التبعة القومية التي قويت وتحولت إلى حركتي الشعوبية والزندقة المقصود بهما الاستيلاء التام على العرب ودينهم وإعادة مجد الفرس الضائع وعزتهم القديمة.

وإن وجود هذا النفوذ الفارسي كان أمرا طبيعيا وظاهرة مفهومة. وذلك لأن العباسيين استغلوا الفرس ومواردهم الإنسانية والمادية في إزالة الحكم الأموي، كما أن نجاحهم في تلك

¹⁴⁰ أنظر من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص36، وضحى الإسلام ج1 ص59.

العملية لحد بعيد يرجع إلى عون الفرس وكانوا يدينون لهم بهذا كثيرا. ولأجل ذلك لا يندر أن نسمع على لسان حكام الدولة العباسية وخاصة حكام عصرها الأول أن الفرس وبصفة خاصة الخرسانيين شيعتهم، وأنصارهم وأهل دولتهم.¹⁴¹ يقول الأستاذ أحمد أمين أن نفوذ الفرس عدة مظاهر منها:

- (1) إن قصور الخلفاء ملئت بالموالي يستخدمون في أعمال شتى، وبيوت الحرم ملئت بالخصيان. وقد أخذ المسلمون ذلك عن البيزنطيين ولم تكن هذه العادة معروفة عند العرب.
- (2) قصر المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس تقريبا.
- (3) نفوذ العادات، والتقاليد الفارسية كإحياء يوم النيروز¹⁴² ولبس القلنسوة¹⁴³.
- (4) انتشار الثقافة الفارسية.¹⁴⁴

ولكن علينا أن نلاحظ أن نفوذ العرب لم يتعدم ولم يزل متسلطا على نفوذ الفرس. فكانت أعظم المناصب كالوزارة في يد الفرس، ولكن كان الخليفة عربيا هاشميا، وكان له قواد من العرب كما له قواد من الفرس، وكان له ولاة من العرب وولاة من الفرس. وهذا لم يعن أن الخلفاء العباسيين تركوهم أحرارا دون مراقبة، بل كانوا دائما يراقبهم مراقبة شديدة ويحسون عليهم أخطاءهم وتجاوزاتهم. وإذا تعاضم نفوذهم وبلغ الحد الذي لا يرضى الخليفة كان الخليفة يتدخل بوسائل شتى، وكان الإعدام والقتل والتنكيل في أغلبية الحالات. ونتذكر هاهنا إعدام أبي سلمة الخلال أحد زعماء الدعوة العباسية في عصر إبراهيم الإمام والذي قتل في خلافة أبي العباس سنة 132هـ/749م. ثم نتذكر قتل أبي مسلم الخرساني على

¹⁴¹ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 92.

¹⁴² النيروز أو النوروز: اليوم الجديد. وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وهو أكبر الأعياد القومية للفرس. (مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط ج 2 ص 962، دار عمران، الطبعة الثانية، دون سنة الطبعة)

¹⁴³ القلنسوة: نوع من ملابس الرأس. وهو على هيئة متعددة. والعمامة تسمى ما يلبسه الكاهن عند الطوائف الشرقية. (المعجم الوسيط ج 2 ص 754)

¹⁴⁴ ضحى الإسلام ج 1 ص 43.

يد الخليفة المنصور سنة 137هـ/754م. وأبو مسلم يعد من أبرز من ساهموا في نجاح الدعوة العباسية، وإزالة الدولة الأموية وإنشاء الدولة العباسية. ثم نتذكر نكبة البرامكة على يد الخليفة هارون الرشيد سنة 187هـ/802م. كما لا ننسى ما وقع بين الخليفة المأمون والفضل بن سهل سنة 202هـ/817م. وقد أنتجت هذه الأحداث وغيرها الإحساس بالخيانة لدى الفرس وأسخطتهم إسقاطا عظيما من حيث أضيفت للحركتين الزندقة والشعوية صبغة جديدة، ألا وهي صبغة النقمة على العباسيين والتذمر منهم ومن حكمهم.¹⁴⁵ وفي ضوء هذا القول لا يصعب علينا أن نرى أصحاب الحركتين يربطون بطريق مباشر أو غير مباشر زندقتهن وشعوبيتهن المنسوجتين بالميل الثورية بتلك الأحداث.

إننا نستطيع أن نقسم أصحاب الزندقة والشعوية إلى مجموعتين: (أ) الثوار، و (ب) المسالمون.

٧) الشعويون والزنادقة الثوار

فأول من ثار على العباسيين رجل يقال له بهافريد¹⁴⁶، الذي ظهر في صدر الدولة العباسية وكان من قرية يقال لها روى من أبر شهر¹⁴⁷. كان يصلي الصلوات الخمس بلا سجود متياسر عن القبلة. وتكهن ودعا المجوس إلى مذهبه فاستجاب له خلق كثير.¹⁴⁸ وعن

¹⁴⁵ See for example: H. U. Rahman: A Chronology of Islamic History: page 95, Mansell Publishing

Limited, London, 1989.

And: Conversion to Islam in the Medieval Period: page 45.

مروج الذهب ج 3 ص 305.

¹⁴⁶ هو بهافريد بن ماه فرودين رجل فارسي من أصحاب البدع. ويقال أنه غاب في بدء أمره، أي الخروج على الدولة العباسية، إلى الصين سبع سنين، ثم ظهر للناس فجأة عند عودته وأحبرهم أنه كان في السماء منذ غاب عنهم. وألف كتابا بالفارسية ضمنه تعاليمه التي زعم أنه تلقاها من السماء. وقد أبطل بعض شرائع المجوس وطقوسهم كعبادة النار ونكاح الأقربين وشرب الخمر وأكل الميتة، وشرع لهم غيرها مثل

سبع صلوات في اليوم كما أمرهم بالتوجه نحو الشمس في الصلاة حيثما كانت. (دائرة المعارف الإسلامية ج 4 ص 248-249)

¹⁴⁷ أي نيسابور. وأبر شهر يتكون من كلمتين فارسيتين: أبر ويعني الغيم، وشهر البلد. (معجم البلدان ج 1 ص 65)

¹⁴⁸ الفهرست، دار المعرفة، ص 483.

الفرقة البهافرديية ومبادئها يقول الشهرستاني: "...رئيسهم رجل يقال له سيسان من رستاق¹⁴⁹ نيسابور من ناحية يقال لها خواف¹⁵⁰. خرج في أيام أبي مسلم صاحب الدولة. وكان زمزمياً¹⁵¹ في الأصل يعبد النيران، ثم ترك ذلك ودعا المجوس إلى ترك الزمزمة ورفض عبادة النيران. ووضع لهم كتاباً وأمرهم فيه بإرسال الشعور، وحرّم عليهم الأمهات والبنات والأخوات. وحرّم عليهم الخمر وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة. وهم يتخذون الرباطات ويتبادلون الأموال ولا يأكلون الميتة، ولا يذبحون الحيوان حتى يهرم. وهم أعدى خلق الله للمجوس الزمزمة. ثم إن موبذ¹⁵² المجوس رفعه إلى أبي مسلم فقتله على باب الجامع بنيسابور¹⁵³ سنة حوالي 133هـ/750م. وقال أصحابه: إنه صعد إلى السماء على برذون¹⁵⁴ أصفر وإنه سيزل على البرذون فينتقم من أعدائه. وهؤلاء قد أقروا بنبوة زردشت وعظموا الملوك الذين يعظمهم زردشت..."¹⁵⁵

وثمة فرقة يقال لها الشيبانية، وهي الفرقة الرابعة من الثعالبة¹⁵⁶. وهم أتباع شيبان بن سلمة الخارجي (ت130هـ/748م)¹⁵⁷ الذي أعان أبا مسلم الخراساني على أعدائه في حروبه ثم

¹⁴⁹ مدينة بفارس من ناحية كرمان، وربما جعل من نواحي كرمان. (معجم البلدان ج3 ص43)

¹⁵⁰ إقليم كبير بخرسان قرب نيسابور، يشتمل على مائتي قرية وفيها ثلاث مدن: سنجان، وسراوند، وحرگرد. (معجم البلدان ج2

ص399)

¹⁵¹ الزمزمة: كلام المجوس وقرايم على صلاتهم وعلى طعامهم، وفيها يقول القائل:

زمزمت الفرس على زمزم وذلك في سالفها الأقدم
(الدكتوراة فاطمة محجوب: الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية

ج24 ص265، دار الغد العربي، القاهرة، 1992م)

¹⁵² موبذ: حاكم المجوس وكاهنهم. (المنجد في اللغة والأعلام ج1 ص778)

¹⁵³ مدينة إيرانية غربي مشهد، عاصمة خراسان قديماً. (معجم البلدان ج5 ص331)

¹⁵⁴ برذون: دابة الحمل الثقيلة. (المنجد في اللغة والأعلام ج1 ص33)

¹⁵⁵ للثل والنحل ج1 ص593-594.

والشهرستاني يدرج البهافرديية من ضمن المجوس الزردشتية. ودين الزردشت عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واحتساب الحباثت. وقال أن النور والظلمة أصلان متضادان. خلق الله تعالى النور والظلمة وهو واحد لا شريك له. والخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والحيث إنما حصلت من امتزج النور والظلمة. ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم. (الثل والنحل ج1 ص588-589.

¹⁵⁶ الثعالبة: إحدى فرق الخوارج. أتباع ثعلبة بن مشكان وقيل ثعلبة بن عمرو. الثعالبة تدعي إمامته بعد عبد الكريم بن عجرد. وصارت الثعالبة ست فرق منها فرقة أقامت على إمامة ثعلبة ولم تقل بإمامة أحد بعده. يقولون: ليس لأطفال الكافرين ولا لأطفال المؤمنين ولاية ولا عداوة ولا براعة حتى يبلغوا فيدعوا إلى الإسلام فيفروا به أو ينكروه. (الفرق بين الفرق ص60، مقالات الإسلاميين ج1 ص180)

انقلب عليه وقتل لأجل ذلك. وكان يذهب إلى القول بتشبيه الله تعالى لخلقه فأكفره سائر
 الشعالة مع أهل السنة. وأكفرته الخوارج لأجل معاونته أبا مسلم. ويزعم الشيعانية أن
 زعيمهم تاب من ذنوبه، غير أن الزيادة¹⁵⁸ زعمت أن ذنوبه كان منها مظالم العباد التي لا
 تسقط بالتوبة.¹⁵⁹

ومن الفرس الذين ترندقوا وحاولوا إسقاط الحكم العربي الرزامية. فهم قوم بمرو أفرطوا
 في موالة أبي مسلم الخرساني وساقوا الإمامة من أبي هاشم إليه ثم ساقوها من محمد بن علي
 إلى أخيه عبد الله بن علي السفاح. ثم زعموا أن الإمامة بعد السفاح صارت إلى أبي مسلم
 وأقروا مع ذلك بقتل أبي مسلم وموته إلا فرقة منهم يقال لهم أبو مسلمية. وقد أفرط هؤلاء
 في أبي مسلم غاية الإفراط واعتقدوا أنه صار إلهاً بحلول روح الإله فيه. ومن مقالهم أيضاً
 أن أبا مسلم خير من جبريل وميكائيل وبقية الملائكة. وقالوا أن أبا مسلم حي لم يموت وهم
 على انتظاره. وإذا سئل هؤلاء عن الشخص الذي قتله الخليفة المنصور قالوا: كان شيطاناً
 تصور للناس في صورة أبي مسلم.¹⁶⁰

وكان يمتاز هؤلاء بإظهار الخيل والمخاريق والبراعة في استخدام كتاب الله تعالى
 لدعواهم. فيستدلون مثلاً على صحة قولهم بالآلوهية بالآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
 اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾¹⁶¹ فيقولون في تأويلها
 أن إبليس استحق السخط واللعنة لأنه لم يسجد لله المتحول في صورة آدم، ثم تحول الإله من

¹⁵⁷ أحد الشعان القادة. هو أول من أظهر القول بالتشبيه، أي تشبيه الله تعالى بخلقه وأنه صورة ذات أعضاء. وكان قبيل ظهور الدعوة

العباسية مقيماً بمرو وثار على نصر بن سيار. ولما ظهرت الدعوة العباسية أرسل إليه أبو مسلم الخرساني بدعوة إلى البيعة، فقال شياني: أنا

أدعوك إلى بيعتي، واحتلفا. ثم قاتله أبو مسلم فقتله. (الأعلام ج 3 ص 180)

¹⁵⁸ الزيادة: قوم على قول الثعالبة، وهم أعظم أصحاب الثعالبة وجمهورهم. سموا "الزيادة" وذلك أن رجلاً منهم كان يسمى زياد بن عبد

الرحمن، وكان فقيه الثعالبة ورئيسهم. (مقالات الإسلاميين ج 1 ص 181)

¹⁵⁹ الترق بين الفرق ص 60-61.

¹⁶⁰ نفس المرحع ص 155، مقالات الإسلاميين ج 1 ص 96.

¹⁶¹ سورة البقرة 34.

صورة آدم إلى صورة نوح ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء حتى حصل في صورة أبي مسلم...¹⁶²

ولما قتل الخليفة المنصور أبا مسلم الخرساني في سنة 137هـ/754م هرب دعائه وأصحابه المتحققون به إلى نواحي البلاد. فوقع رجل يعرف بإسحاق إلى الترك إلى بلاد ما وراء النهر. وأقام بها داعية لأبي مسلم. وادعى أن أبا مسلم محبوس في جبال الري، وعندهم أنه يخرج في وقت يعرفونه.¹⁶³ وهذا بلا شك مشابه لفكرة المهدي المنتظر. وكانت دائما تظهر هذه الفكرة لدى الذين يريدون أن يرعوا أتباعهم ويحفظوهم من تشتت صفوفهم والحيولة والضعف. وقال اسحق أيضا بنوّة أبي مسلم.¹⁶⁴

وفي اثر قتل المنصور أبا مسلم ظهر بخرسان رجل يقال له سنباذ¹⁶⁵ يطالب بدم أبي مسلم. وكان سنباذ مجوسيا من أهل قرية من قرى نيسابور يقال لها آهن. وقد خرج غضبا لقتل أبي مسلم وطلبا بثأره. وذلك أنه كان من صنائعه. وقد كثر أتباعه وغلب على نيسابور وقومس¹⁶⁶ والري، وتسمى فيروز أصبهذ. فلما صار بالري قبض خزائن أبي مسلم. وكان أبو مسلم خلف بها خزائنه حين شخص متوجها إلى أبي العباس. وكان عامة أصحاب سنباذ أهل الجبال. فوجه إليهم الخليفة جهور بن مرار العجلي في عشرة آلاف. فالتقوا بين همدان¹⁶⁷ والري على طرف المفازة فاقتتلوا فهزم سنباذ، وقتل من أصحابه في

¹⁶² أنظر شذرات الذهب ج 1 ص 248.

¹⁶³ الفهرست ص 483.

¹⁶⁴ نفس المرجع ص 483.

¹⁶⁵ وقد خالف ابن خلدون سائر المؤرخين في تسمية هذا الرجل وقال أن اسمه كان سنباد. (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 393)

¹⁶⁶ قومس: كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان. ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار. (معجم البلدان ج 4 ص 414)

¹⁶⁷ همدان: مدينة إيرانية جنوب غربي طهران. (معجم البلدان ج 5 ص 410)

الهزيمة نحو من ستين ألف. وسبى ذراريهم ونسائهم. ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس،
قتله لونان الطيري.¹⁶⁸

ويروى أن سنباذ كان يدعي أن أبا مسلم حي لم يموت، وإنما تحول إلى عامود من نور.
ولما غلب على كثير من بلاد خرسان أراد أن يمضي إلى الحجاز ويهدم الكعبة.¹⁶⁹

ومن الثوار الذين واجههم الخليفة المنصور عقب مقتل أبي مسلم حركة الرواندية سنة
141هـ/758م. والرواندية قوم كانوا من أهل خرسان على رأي أبي مسلم. وقالوا بتناسخ
الأرواح، وزعموا أن روح آدم انتقل واستقر إلى عثمان بن نهيك، وأن رهم الذي يطعمهم
ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية (ت156هـ/773م)¹⁷⁰ جبرئيل. وقيل
أنهم أتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويرددون: هذا قصر ربنا. فأرسل المنصور إلى
رؤسائهم فحبس منهم مائتين. ثم بعد ذلك غضب أصحابهم وقالوا: علام حبسوا! وأمر
المنصور ألا يجتمعوا. فأعدوا نعشا وحملوا السرير ثم مروا في المدينة حتى صاروا على باب
السجن، فرموا بالنعش ودخلوا السجن فأخرجوا أصحابهم. وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ
ستمائة رجل. فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد. فخرج المنصور من
القصر ماشيا ولم يكن في القصر دابة...¹⁷¹ وعن أبي بكر الهذلي: اطلع المنصور فقال رجل
إلى جاني: هذا رب العزة الذي يطعمنا ويرزقنا.¹⁷²

¹⁶⁸ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 495، والكامل في التاريخ ج 5 ص 113-114.

¹⁶⁹ الفخري في الآداب السلطانية ص 171.

¹⁷⁰ من ولاية الدولة العباسية. خرساني الأصل. ولي الطائف ومكة والبصرة. أرادته المنصور على بغداد فلما بلغها توفى فيها، وصلى عليه
المنصور. (الأعلام ج 8 ص 104)

¹⁷¹ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 505، ونهاية الأرب في فنون الأدب ج 22 ص 81-82، والمنظوم في تاريخ الأمم والملوك ج 8 ص 29-

30.

¹⁷² مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج 1 ص 292.

وقال عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت429هـ/1038م): "وكان قوم، أي الرواندية، افتتنوا بأبي جعفر المنصور فخرج يوما من سرادقه فرأى قوما منهم يسجدون له ويدعونه كما يدعى الله تعالى. فأنكر عليهم واستأثم فلم يتوبوا، ولم ينوبوا فأمر بقتلهم. فقتل بعضهم ونجا بعضهم. وقد رجعوا عن رأيهم فخرجوا عليه بغتة، ووضعوا السيوف في أصحابه، فكانت الدبرة عليهم وحق المكر السيئ بهم وانقضى أمرهم".¹⁷³

وعن آرائهم السياسية الصرفة يقول المسعودي أن الرواندية زعموا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبض وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب لأنه عمه ووارثه وعصيته. وذلك لأجل قول الله عز وجل: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾¹⁷⁴ وأن الناس اغتصبوا حقه، وظلموا أمره، إلى أن رده الله تعالى إليهم. وتبرأ الرواندية من أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وأجازوا بيعه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه بإجازته لها. وذلك لقوله: يا ابن أخي هلم إلي أن أبايك فلا يختلف عليك اثنان. وأيضا لقول داود بن علي على منبر الكوفة يوم بويع لأبي العباس: يا أهل الكوفة لم يقيم فيكم إمام بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا علي بن أبي طالب وهذا القائم فيكم، أي أبو العباس السفاح.¹⁷⁵

ثم بعد ذلك في سنة 150هـ/767م خرج رجل يقال له أستاذسين وقاد حركة عنيفة جدا في جهة خراسان ضد الحكم العباسي. وقد ادعى النبوة ليخلص الناس في الطاعة له وليجذب إليه عوام خراسان. فحظيت حركته باستجابة نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة¹⁷⁶ وباذغيس¹⁷⁷ وسجستان¹⁷⁸ ونواحيها. وقد استطاع بهذا العدد الوفير أن يتغلب على عامة

¹⁷³ آداب الملوك ص38.

¹⁷⁴ سورة الأنفال 75.

¹⁷⁵ مروج الذهب ج3 ص252.

¹⁷⁶ هراة: مدينة في شمال غربي أفغانستان. (معجم البلدان ج5 ص396)

¹⁷⁷ باذغيس: ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة ومرو الروذ. (معجم البلدان ج1 ص318)

خرسان ويهزم الجيوش الإسلامية التي كانت مرابطة في تلك البلاد. وعلم المنصور خبر هذا الزنديق الثائر وهو بالبردان¹⁷⁹ فأرسل جيشا وقضى عليه.¹⁸⁰

ومن أخطر حركات الزنادقة الشيعيين حركة الحكيم المقتنع في قرية من قرى مرو بخراسان. وذلك في عهد الخليفة المهدي سنة 161هـ/777م. ويلقب بالمقتنع لأنه كان يخفي وجهه بقناع من ذهب ويضع على عينيه قطعة من حرير أخضر يستر بها عوره.¹⁸¹ وكان يستعمل السحر والتبرجات لينجح في إضلال أتباعه.¹⁸² وكان على دين الرزامية الذين غلوا في موالاة أبي مسلم الخراساني وزعموا أن الخلافة بعد أبي العباس صارت إلى أبي مسلم.¹⁸³ وبهذا لم يعترف المقتنع كممثل بقية أصحاب الرزامية بحكم العباسيين وحاول بكل وسائله إزالته. فقد استغوى المقتنع بشرا كثيرا وقوى وصار إلى ما وراء النهر. فوجه المهدي لقتاله عدة من قواده، فيهم معاذ بن مسلم (ت 187هـ/803م)، وهو يومئذ على خراسان، ومعه عقبة بن مسلم وجبرئيل بن يحيى وليث مولى المهدي. ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيدا الحرشي، وضم إليه القواد. وابتدأ المقتنع بجمع الطعام عدة للحصار في قلعة بكش^{184 185}.

¹⁷⁸ سحستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة. ذهب بعضهم إلى أن سحستان اسم للناحية وأن اسم مدينتها زرنج، وبينها وبين هراة عشرة أيام

ثمانون فرسخا، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملية سبعة. (معجم البلدان ج3 ص190)

¹⁷⁹ البردان: قرية بغداد على سبعة فراسخ منها. سميت البردان التي فوق بغداد بردانا لأن ملوك الفرس كانوا إذا أتوا بالسبي ففجوا منه شيئا

قالوا: اذهبوا به إلى القرية، وكانت القرية بردان فسميت بذلك. (معجم البلدان ج1 ص375)

¹⁸⁰ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج8 ص29-31، تاريخ الخلفاء ص262، الكامل في التاريخ ج5 ص190-192، كتاب العبر وديوان المبتدأ

والخير ج3 ص395-396.

¹⁸¹ الفرق بين الفرق ص155.

¹⁸² شذرات الذهب ج1 ص248.

¹⁸³ الفرق بين الفرق ص155.

¹⁸⁴ كش: قرية على ثلاثة فراسخ من حرجان على جبل. (معجم البلدان ج4 ص462)

¹⁸⁵ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص135، الكامل في التاريخ ج5 ص238، تاريخ ابن الوردي ج1 ص273، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير

ج3 ص439.

وفي سنة 163هـ/779م، وذلك سنتين بعد ظهور المقتنع وعصيانه، اشتد عليه الحصار، فلما أحس بالهلكة شرب سماً، وسقاه نساءه وأهله. فمات وماتوا جميعاً. ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه ووجعوا به إلى الخليفة المهدي وهو بحلب.¹⁸⁶ غير أن البغدادي يذكر أن المقتنع أحرق نفسه في تنور في حصنه قد أذاب فيه النحاس مع الفطران حتى ذاب فيه.¹⁸⁷

وكان المقتنع قد أباح لأتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم. وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات. وزعم لأتباعه أنه هو الإله وأنه كان قد تصور مرة في صورة آدم ثم في وقت آخر بصورة نوح، وفي وقت آخر بصورة إبراهيم، ثم تردد في صور الأنبياء إلى محمد. ثم تصور بعده في صورة علي وانتقل بعد ذلك في صورة أولاده، ثم تصور بعد ذلك في صورة أبي مسلم، ثم أنه زعم أنه في زمانه الذي كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم وكان اسمه هشام بن حكيم وقال: إني إنما أنتقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رأيي في صورتي التي أنا عليها، ومن رأيي احترق بنوري.¹⁸⁸

وبعد ما أحرق المقتنع نفسه لم يجد أتباعه جثته وزعموا أنه صعد إلى السماء. وكان لأتباعه في كل قرية من قراهم مسجد لا يصلون فيه ولكن يجعلون مؤذناً يؤذن فيه. وهم يستحلون الميتة والخنزير، وكل واحد منهم يستمتع بإمرة غيره. وإن ظفروا بمسلم لم يره المؤذن الذي في مسجدهم قتلوه وأخفوه.¹⁸⁹

¹⁸⁶ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص144.

¹⁸⁷ الفرق بين الفرق ص156.

¹⁸⁸ أنظر نفس المرجع ص155-156، تاريخ الرسل والملوك ج8 ص135، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج3 ص439، المنتظم في تاريخ

الأمم والملوك ج8 ص247، آداب الملوك ص37.

¹⁸⁹ الفرق بين الفرق ص156.

وفي معترك هذا الجلو ظهر بابك الخرمي (ت 223هـ/837م) سنة 201هـ/816م وترغم خرمية¹⁹¹ اذربيجان وقام بحركة زندقية شعبية أشد خطرا من سابقتها. وقد دامت الاشتباكات بينه وبين الجيوش المسلمة نحو اثنتين وعشرين عاما. وقد أحدث في مذهبه القتل والغصب والحروب. كان أبوه من أهل المدائن يبيع الدهن. وكان يطوف به في قرى الرستاق فهوى امرأة عوراء وهي أم بابك. وقد ضبط وهو يفجر بها ثم تزوجها من أبيها. وقد قتل في بعض سفراته، وأقبلت أم بابك ترضع للناس بأجرة إلى أن صار لبابك عشر سنين. فكان يرعى البقر ثم اختلفت به الأيام حتى نزل جاويدان بأم بابك فرأى في بابك ذكاء ونجابة وحبثا. فطلب من أمه أن تدفعه إليه ويدفع لها كل شهر خمسين درهما أجرته. فذهب معه وكان جاويدان زعيما في قومه نشأ بينه وبين رجل آخر يسمى أبا عمران صراع على زعامة الخرمية. وأدى ذلك في النهاية إلى أن قتل أبو عمران، ثم بعد ذلك إلى موت جاويدان متأثرا بجراحه. وكان بابك قد توقفت علاقته بزوجة جاويدان لأنه كان يفجر بها. وبعد موت جاويدان لم تعلن موته حتى أحضرت جيشه وقالت لهم: لقد قال جاويدان: إني أموت في ليلتي هذه وإن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي. وقد رأيت أن أملكه على أصحابه فإذا مت فأعلميهم ذلك، وأنه لا دين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري. وقالوا: قد قبلنا عهده إليك في هذا الغلام، وباعوه.¹⁹²

والبابكية، كما يقول البغدادي، ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين. ويزعمون أن أباه كان من الزنج وأمه بعض بنات ملوك الفرس. ويعتقدون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء. وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن

¹⁹⁰ زعيم بدعة الخرمية. عصي الخليفة للمؤمن في أذربيجان. دامت فتته عشرين سنة. قضى عليه أفشين قائد الخليفة المعتصم ثم صلب في سامراء. (المعارف ص 219)، الفهرست ص 480، كتاب الوزراء والكتاب ص 261)

¹⁹¹ الخرمية في نظر الإسلام الإباحية التي تبيح المحارم والمخطورات التي حرمتها الشريعة الإسلامية. وكلمة الخرمية مشتقة من كلمة حرم أي اللذة. وأتباع الخرمية أولئك الذين لا يعرفون غير اللذة والاستمتاع بها إلى ما لا حدود لها. وهم على صنفين: صنف منهم قبل الإسلام كالزردكية، وصنف ظهر أصحابه في دولة الإسلام وهؤلاء فريقان: البابكية والمازيارية (المازيارية أتباع مازيار أحد ولاة الخليفة للمؤمن الذي عصاه وخرج عليه وعلى الدولة الإسلامية) (المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج 1 ص 48، الفرق بين الفرق ص 160)

¹⁹² أنظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ج 2 ص 273، وذكر مذاهب الفرق الثنتين وسبعين المخالفة للسنة والمبتدعين ص 93.

فيها المسلمون، وهم يعلمون أولادهم القرآن لكنهم لا يصلون في السر ولا يصومون في شهر رمضان ولا يرون جهاد الكفرة.¹⁹³

إن من أهم غايات ومطامع البابكية الطعن في الإسلام والمسلمين واسترجاع حكم الفرس ودياناتهم، فحاربوا المسلمين ودينهم لأجل ذلك الغرض. إن بابك في بداية الأمر كان فارسياً مجوسياً الأصل، دخل في الإسلام وتسمى الحسن وقيل الحسين ثم ارتد. وكان سبب خروجه أيام الخليفة المأمون سوء تعامل الفضل بن سهل مع هرثمة (ت200هـ/816م)¹⁹⁴ في خراسان. وقد أدخله الفضل السجن ومات فيه. فلما بلغ خاتم بن هرثمة وهو على أرمينية ما صنع بأبيه كاتب الأحرار هناك والملوك ودعاهم إلى الخلاف والانتقام. فيقال أن خروج بابك كان استجابة لذلك.¹⁹⁵

ومجمل اعتقادات بابك أنه ادعى الألوهية والحلول، وتناسخ الأرواح، والرجعة، واستباح المحرمات. والرجل منهم ينكح أمه وأخته وابنته، ولهذا يسمون دين الفرج.¹⁹⁶

وقد انضم إلى بابك كثير من الأتباع ولذلك اشتدت شوكته. ولما انتهى ذلك إلى الخليفة المأمون أرسل جيوشاً كثيرة مع الأفشين الحاجب، ومحمد بن يوسف الثغري، وأبي دلف العجلي، وأقراهم وبقيت العساكر في وجهه مقدار عشرين سنة إلى أن أخذ بابك وأخوه إسحاق بن إبراهيم وصلبا في أيام المعتصم سنة 223هـ/837م.¹⁹⁷

¹⁹³ الفرق بين الفرق ص161.

¹⁹⁴ هو هرثمة بن أعين، أمير، من القادة الشجعان. له عناية بالعمران. بن في إفريقية وأرمينية. ولي مصر وإفريقية. لما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون سنة 194هـ/809م انحاز إلى المأمون فقاد جيوشه وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين. أتم بمحالة إبراهيم بن المهدي أو بالتراضي في قتال الطالبيين، فدعا المأمون فشنه وضره وجسه. وكان الفضل بن سهل (الوزير) يغضه ففس إليه من قتله في الحبس سرا بمرو. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص543)

¹⁹⁵ أنظر المعارف ص219، وكتاب الوزراء والكتاب ص261، وذكر مذاهب الفرق اثنين وسبعين للمخالفين للسنّة والمبتدعين ص93.

¹⁹⁶ أنظر الفهرست ص480، الكامل في التاريخ ج5 ص432، الفرق بين الفرق ص161، تاريخ الرسل والملوك ج8 ص556.

¹⁹⁷ أنظر الفرق بين الفرق ص161، والأخبار الطوال ص402، وتاريخ الرسل والملوك ج9 ص111 وما بعدها.

وقد تبعت حركة بابك حركة أخرى تعزى للمازيار الذي أظهر دين الحمرة¹⁹⁸ بجرحان.¹⁹⁹ وكانت هذه الحركة في غاية الخطورة لأنه قام بها رجل وال يعترف به الخليفة ويتمتع بثقته. وقد كان المازيار واليا من قبل الخليفة المأمون على مدينتين من مدن طبرستان ثم أجهر بالمعصية وعدم الطاعة ثم بالارتداد.²⁰⁰ وقد بدأ المازيار حركته بقطع ما كان دائما يرسله إلى صندوق الدولة من الخراج. وأكره الناس على بيعته، وأخذ منهم الرهائن ليضمن وفاءهم. كما أرسل إلى عماله كتابا يحثهم فيه على جمع الخراج بكل الوسائل الممكنة متخذًا طاعة الخليفة ستارا لجمع تلك الأموال. فلما تم له ما أراد أمر بتخريب مدينة آمل²⁰¹ وسارية²⁰² ومدينة طميس²⁰³ وسورها واستباح أهلها الذين أخذوا يفرون إلى نيسابور وهدم المساجد.²⁰⁴

لقد حارب المسلمون المازيارية حتى أسر المازيار فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جوار بابك،²⁰⁵ وذلك في سنة 225هـ/839م في عصر الخليفة المعتصم. وبعد القبض عليه أقر المازيار أن الأفشين، أحد المكلفين بقتال البابك الخرمي من قبل الخليفة، كان يكاثبه ويحسن له خلع الطاعة، فغضب المعتصم على الأفشين وأمر بسجنه. فسجنه ثم صلبه سنة 226هـ/840م ثم أحرقه وذرى رماده في دجلة واحتيط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها

¹⁹⁸ فرقة من الحرمة البابكية القائلة بإحلال الحرمات والمخطورات. هم في نظر الإسلام الإباحية التي تبيح ما حرمته الشريعة الإسلامية. وقبل ثم "الحمرة" لأنهم لبسوا الحمرة أيام بابك الخرمي. ومن رواد أفكار الحمرة عمرو بن محمد العمركي (ت180هـ/796م). كان زعيم الحمرة بجرحان. بعث الرشيد يأمر بقتله فقتل بمدينة مرو. (البداية والنهاية ج10 ص175، دائرة المعارف للأعلمي ج27 ص149)

¹⁹⁹ وهو مازيار بن قارن دخل في الإسلام وتسمى محمدا ثم ارتد. (الفرق بين الفرق ص161)

²⁰⁰ تاريخ يعقوبي ج2 ص476.

²⁰¹ اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل، وهي في الإقليم الرابع. (معجم البلدان ج1 ص57)

²⁰² مدينة بطبرستان، وهي في الإقليم الرابع. (معجم البلدان ج3 ص170)

²⁰³ بلدة في سهول طبرستان، وهي في الإقليم الخامس. (معجم البلدان ج4 ص41)

²⁰⁴ أنظر الكامل في التاريخ ج6 ص50، تاريخ يعقوبي ج2 ص477، تاريخ الرسل والملوك ج9 ص89 وما بعدها.

²⁰⁵ تاريخ يعقوبي ج2 ص477، الفرق بين الفرق ص161، شذرات الذهب ج2 ص58.

أصناما مكللة بذهب وجواهر، كما وجدوا كتباً في فضل دين الجحوس وأشياء كثيرة كان يتهم بها.²⁰⁶

ونستطيع أن ندرج من ضمن الزنادقة والشعوبيين الثوار أيضاً فرقة الباطنية التي لزم أصحابها هذا اللقب لحكمهم أن للشرعية ظاهراً وباطناً، ولكل تزويل تأويل. فهم يؤولون الآيات والأحاديث على غير ما يدل عليه ظاهرها. وقالوا أيضاً أن الإمام مستور. وهم تشيعوا ظاهراً وأبطنوا الزندقة والشعوبية. وهم غالباً يعدون كإحدى فرق الإسماعيلية²⁰⁷ لأجل تشابه مقالاتهم فيما يخص الظاهر والباطن في الشرعية والإمامة.²⁰⁸

والذين أسسوا هذه الفرقة جماعة منهم وأشهرهم ميمون بن ديسان المعروف بالقداح (ت170هـ/786م)²⁰⁹، ومحمد بن الحسين الملقب دندان. اجتمعوا كلهم مع ميمون بن

²⁰⁶ البداية والنهاية ج10 ص305-306.

²⁰⁷ الإسماعيلية: طائفة من الشيعة الإمامية. وهم الذين وقفوا عند الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. (ت198هـ/814م). نشأ هذا المذهب في العراق واضطهد كثيراً كما اضطهد غيره من مذاهب الشيعة، ولذلك له من المتبعين الكثيرين في بلاد الفرس. وقال معظمهم أنه بعد إسماعيل الإمام يأتي محمد بن إسماعيل السابع القائم ويسمى محمد المكنوم، وهو أول الأئمة المكنومين المستورين، إذ أنه يصح في رأيهم أن يكون الإمام مستوراً وتجب طاعته ولا يمنع ذلك من إمامته. ومن آراء الإسماعيلية أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية. وكذلك الأمر مع من مات ولم تكن في عنقهبيعة. وزعموا أن الوحي ليس إلا صفاء النفس، وأن الشعائر الدينية ليست إلا للعامّة، أما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها. وللقرآن في زعمهم ظاهر وباطن، وليس هناك معنى للتمسك بحرفية القرآن، فهو رموز لأشياء يعرفها العارفون. إنما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز. ونادوا بوجوب التأويل الباطن لأنه من عند الله تعالى وقد خص به علياً كما خص الرسول بالتزويل. وقالوا بضرورة وجود الإمام المعصوم المنصوص عليه من نسل علي. والنص يجب أن يكون من الإمام الذي سبقه. وقالوا أيضاً بالغيض الإلهي من المعرفة الذي يفيض الله به على الأئمة فيجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس قدراً وعلماً، وهم قد اختصوا بعلم ليس عند غيرهم. واعتقدوا أن الإمام ليس مستولاً أمام أحد من الناس وليس لأحد من الناس أن يحطه مهما بات من أفعال. (الفرق بين الفرق ص39، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج3 ص6-11، تاريخ المذاهب الإسلامية ص52)

²⁰⁸ يحيى بن حمزة العلوي: مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ص36-38، تحقيق الدكتور محمد السيد الجليلي، الدار البعثة، الطبعة الثالثة، 1983م، الفرق بين الفرق ص39.

²⁰⁹ في نسبه وسيرته اضطراب. قيل: اسم أبيه ديسان أو غيلان. كان يظهر التشيع ويطعن الزندقة والشعوبية. ولد بمكة. ألف كتاب "الميزان" و"الهداية". استقر بسوريا حيث توفي. كان بصيراً بالفلسفة اليونانية وعمل على إدخالها في المذهب الباطني. (الأعلام ج7 ص341)

ديصان في السجن في العراق وأسسوا المذهب الباطني، فلما خرجوا من السجن أظهروا
دعوتهم.²¹⁰

وقد ظهرت الدعوة الباطنية في زمان الخليفة المأمون وانتشرت في زمان المعتصم إذ دخل
في الدعوة صاحب جيشه الأفشين الذي كلف بمحاربة البابك الخرمي فأتهم بمالآئه وحث
المازيار على خلع الطاعة، وقتل لأجل ذلك كما سبق. ويورد البغدادي أن الذين وضعوا
أساس المذهب الباطني كانوا من أولاد المجوس المائلين في دينهم إلى دين أسلافهم ولم يجسروا
على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين فوضعوا الأسس لذلك وصاروا في الباطن يدعوا إلى
تفضيل أديان المجوس، وأولوا آيات القرآن الكريم وسنن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على
ما يوافق أسس المذهب.²¹¹

إن قول البغدادي صحيح لأن ألقاب الباطنية المتعددة تثبت زندقتههم وشعوبيتهم وميولهم
إلى إسقاط الإسلام والمسلمين وإعادة أديان الفرس وعزهم القدامى. وتلك الألقاب التي تداولها
الأسنة على اختلاف الأعصار والأزمنة عشرة ألقاب: الباطنية، والقرامطة، والقرمطية،
والخرمية، والخرمدينية، والإسماعيلية، والسبعية، والبابكية، والحمرية، والتعليمية.²¹² والألقاب
مثل "البابكية، والخرمية، والحمرية" تدل دلالة واضحة على علاقتهم وتعاونهم مع بعض
مجموعات الزنادقة والشعوبيين الثوار من الفرس. يقول الغزالي مثلاً أن لقب "الحمرية" يطلق
عليهم لأنهم صبغوا الثياب بالحمرية أيام بابك ولبسوها تعبيرا عن تأييدهم له. وتذكر أن
ذلك كانت عادة الحمرية، وهي إحدى الفرق الخرمية. وعن لقب "الخرمية" يقول الغزالي أن
الباطنية كانوا يخففون عن الناس التكالييف، وسلطوهم على اتباع اللذات وطلب الشهوات

²¹⁰ المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج3 ص13-14.

²¹¹ الفرق بين الفرق ص171.

²¹² أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية ص9، دار البشير، عمان، 1993م.

وأباحوا النساء وإن كن من المحارم، وأحلوا كل محظور.²¹³ وهذه أيضا ميزة الفرقة المزدكية كما تقدم.

ومن أقوالهم أن الإمام هو إسماعيل بن جعفر الصادق (ت 198هـ/ 814م) ثم تستر الإمامة في أولاده، ينص السابق منهم على اللاحق. والإمام لا يجب أن يكون ظاهرا أو معروفا بل يصح أن يكون مخفيا مستورا وتجب طاعته. وهو ليس مسئولا أمام أحد من الناس، وليس لأحد من الناس أن يخطئه مهما يأت من أفعال. ولا يقولون في الله تعالى أنه موجود وغير موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا جاهل، وكذلك في جميع الصفات. وقالوا أن الله تعالى خلق النفس، فالإله هو الأول والنفس هي الثاني، وهما مدبر العالم، ويطلقون على ذلك تسمية الأول والثاني أو العقل والنفس. وذهبوا إلى القول بالفيض الإلهي من المعرفة الذي يفيض الله به على الأئمة. وقد أباح الغلاة منهم المحرمات والمحظورات، وأباحوا نكاح البنات والأخوات وشرب الخمر وجميع الملذات. وقالوا أن لكل ركن من أركان الدين تأويل. ورفضوا المعجزات وأنكروا الملائكة من السماء والحي، والأمر والنهي. وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها تأويلا لقوله تعالى {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} ²¹⁴. ²¹⁵

8) الشعوبيون والزنادقة المسالمون

وأما الشعوبيون والزنادقة المسالمون فهم رجال الفكر والأدب والترجمة. فقد أظهروا الإسلام ولكنهم أخفوا له ولأتباعه السوء. في حقيقة الأمر لم يخالف قصدهم قصد الذين ثاروا على الدولة الإسلامية ثورة مسلحة دموية. إلا أنهم أدركوا أن إخفائهم لزندقتهم

²¹³ نفس المرجع ص 10.

²¹⁴ سورة الحجر 99.

²¹⁵ أنظر الفرق بين الفرق ص 171-172، الفصل في الملل والأهواء والنحل ج 5 ص 98، للدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ج 3 ص 14-

15، فضائح الباطنية ص 25 وما بعدها.

وشعوبيتهم يمكن أن يؤثر على عقلية المسلمين وتطورات الفكر الديني أكثر من إبدائهما. وذلك لأنهم استطاعوا أن يظلوا مقترين من الحكام وأن يتمتعوا بثقتهم ونفوذ بارز لديهم، وبالتالي أن يعملوا في مجالات لم يطق الثوار أبدا أن يتسللوا إليها.

ومن هؤلاء أصحاب الترجمة من مثل إبان بن عبد الحميد اللاحقني (ت200هـ/815م)²¹⁶ الذي ترجم كتاب مزدك إلى العربية وسيرة ازدشير²¹⁷ وسيرة أنوشروان²¹⁸. وكذلك أبو سهل الفضل بن نوبخت الذي كان يترجم لهارون الرشيد كتب الحكمة الفارسية إلى العربية.²²⁰ وأيضاً عبد الله بن المقفع الذي قد سبق أن أشرنا إلى زندقته. ويقال عنه أنه صنف كتاب كليله ودمنة. ويقال بل هو الذي عرّبها من الجوسية إلى العربية. وقال المهدي أنه لم يجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع، ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد.²²¹

ومن الزنادقة والشعوبيين المسالمين أهل الأدب وخاصة الشعراء، وأشهرهم مطيع بن إياس، وصالح بن عبد القدوس (ت160هـ/777م)²²²، وإبان بن عبد الحميد، وبشار بن برد، وأبو نواس وغيرهم.

أما مطيع بن إياس فقد أبدى زندقته وشعوبيته أكثر من مرة في قصائده. وكان متعمقا في دراية الديانات الفارسية القديمة. يقول المسعودي أنه كان يصنف الكتب مع فئة من

²¹⁶ شاعر مكر من أهل البصرة. اتصل بالرامكة فأكثر في مدحهم وخص بالفضل بن يحيى. (الأعلام ج1 ص27)

²¹⁷ ازدشير أو أردشير: هو ازدشير بن بابك بن ساسان الأصغر بن بابك بن ساسان بن مهسر بن ساسان الأكبر. هو مؤسس ورأس وحد الدولة الساسانية من الفرس، وهو الطبقة الرابعة من ملوكهم كان ابتداء ملكه سنة 226م. (دائرة المعارف للبيستاني ج3 ص29)

²¹⁸ أنوشروان (ت579م): ملك ساسان، احتل أنطاكية. استولى على اليمن سنة 570م. اشتهر بعذله وإصلاحاته. (المسند في اللغة

والأعلام ج2 ص463)

²¹⁹ دولة بني العباس ج2 ص231.

²²⁰ الفهرست ص396.

²²¹ البداية والنهاية ج10 ص98.

²²² شاعر حكيم، كان متكلماً، له مع أبي الهذيل العلاف المعتزلي مناظرات، وشعره كله أمثال وحكم وآداب. أنهم عند المهدي بالزندقة

فقتله ببغداد. (تاريخ بغداد ج9 ص303، آمالي المرتضي ج1 ص144، طبقات ابن المعتز ص90)

الزنادقة في تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقونية²²³. وله أبيات تدل على تكفير أبي بكر وعمر. وقال:

أمسيت جم بلابل الصدر	دهرا أزجيه إلى دهر
إن فهت ظل دمي وإن كتمت	وقدت علي توقد الجمر
مما جناه علي أبي حسن	عمر وصاحبه أبو بكر. ²²⁵

وفي كثير من الأبيات يدعو بدعوة صريحة إلى اقتراف الفواحش بلا حياء. فهو الذي قال:

نعم لنا نبيذ	وعندنا حماد
وكلنا من طرب	يطير أو يكاد
ولهونا لذيد	لم يلهه العباد
إن تشته فسادا	فعندنا فساد
أو تشته غلاما	فعندنا زياد
ما إن به التواء	عنا ولا بعاد. ²²⁶

وأما صالح بن عبد القدوس فقد كان من كبار الزنادقة، وكان من الثنوية المانوية، وبرع في علم الكلام والجدل.²²⁷ وروي أن أبا الهذيل المعتزلي ناظره في مسألة مشهورة في الامتزاج الذي ادعوه بين النور والظلمة فأقام عليه الحجة فانقطع، وأنشأ يقول:

²²³ المرقونية (الاثنية): طائفة من المجوس الذين أثبتوا وجود النور والظلمة في موضع واحد. (دائرة المعارف للأعلمي ج 27 ص 210)

²²⁴ مروج الذهب ج 4 ص 315.

²²⁵ الأغاني ج 13 ص 295.

²²⁶ نفس المرحع ج 13 ص 297.

²²⁷ أمالي ج 1 ص 144، طبقات ابن المعتز ص 90.

أبا الهذيل هداك الله يا رجل قأنت حقا لعمرى معضل جدل.²²⁸

وكان صالح بن عبد القدوس يستر اعتقاداته الثنوية وكان يتخوف على نفسه. فقد كان يخشى السجن والعذاب والقتل. وقال مرة:

رب سر كتمته فكأنى أخرس أو ثنى لساني خجل
ولو أنى أبديت للناس علمي لم يكن لي في غير حبسي أكل.²²⁹

ولما تشدد المهدي في ملاحقة الزنادقة هرب صالح بن عبد القدوس من البصرة فأتى دمشق فاستخفى بها زمنا. فلما عرف المهدي مكانه قبض عليه وحمله إليه ثم قتله سنة 160هـ/777م.²³⁰

وبالنسبة لأبان بن عبد الحميد فقد كان شاعرا زنديقا. يقال أنه كان مانويا، ماديا رافضيا. وقال المعذل بن غيلان (ت 210هـ/825م) عنه:

رأيت أبانا يوم فطر مصليا فقسم فكري واستفزني الطرب
وكيف يصلي مظلم القلب دينه على دين ماني إن ذاك من العجب.²³¹

وقال أبو نواس في هجائه له:

²²⁸ أمالي ج 1 ص 144.

²²⁹ نفس المرجع ج 1 ص 145.

²³⁰ طبقات ابن المعتز ص 90.

²³¹ الأغاني ج 23 ص 157.

جالست يوما أبانا	لا در در أبان
ونحن خضر رواق	الأمير بالنهران
حتى إذا ما صلاة	الأولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو	فصاحة وبيان
فكلما قال قلنا	إلى انقضاء الأذان
فقال كيف شهدتم	بذا بغير عيان
لا أشهد الدهر حتى	تعاين العينان
فقلت سبحان ربي	فقال سبحان ماني
فقلت عيسى رسول	فقال من شيطان
فقلت موسى كلیم	المهيمن المنان
فقال ربك ذو	مقلة ولسان
فنفسه خلقتة	أم من؟ فقممت مكاني
عن كافر يتمرى	بالكفر بالرحمن
يريد أن يتسوى	بالعصبة المحان
بعجرد وعباد	والوالي المهجان
وقاسم ومطيع	ريحانة الندمان. ²³²

وأما بشار بن برد فقد كان شاعرا زنديقا شعوبيا. وقد حمله على الزندقة والشعوبية دوافع عديدة منها كونه بصيرا بالديانات الفارسية بصرا دقيقا، عارفا بها معرفة واسعة. وكذلك كونه حاقدا كارها للعرب ودينهم الجديد كرها شديدا، ومعتدا بالفرس وحضارتهم.²³³ وكان يدين بالديانات الفارسية الضالة وكفر جميع الأمة. وقد فضل النار

²³² الأغاني ج 23 ص 156، ديوان أبي نواس ص 543.

²³³ أنظر الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول ص 41، والدكتور علي نجيب عطوى: بشار بن برد حياته وشعره ص 49، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.

على الأرض وصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود وفضله على آدم لأنه مخلوق من الطين وهو من النار. وذلك لأن:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار.²³⁴

وقال:

إبليس خير من أياكم آدم
إبليس من نار وآدم طينة
والأرض لا تسمو سمو النار.²³⁵

وكان بشار دائماً يستخف بالإسلام وفرائضه. وكان يبيح لنفسه ترك الصلاة مع الجماعة. ولا يتوقف على ذلك الحد فحسب بل يستهزأ من الصلاة ويعترف أنه ليس قادراً على أدائها ولا يرغب في إتقانها، إذ يقول:

وإنني في الصلاة أحضرها
أقعد في سجدة إذا ركعوا
أسجد والقوم راكعون معا
ولست أدري إذا إمامهم
ضحكة أهل الصلاة إن شهدوا
وأرفع الرأس إن هم سجدوا
وأسرع الوثب إن هم قعدوا
سلم كم كان ذلك العدد.²³⁶

وقال عن صديقه صالح بن عبد القدوس الشاعر الزنديق الذي قتله الخليفة المهدي لأجل زندقته والذي قد سبق أن أشرنا إليه:

²³⁴ وفيات الأعيان ج 1 ص 273.

²³⁵ ديوان بشار بن برد ج 4 ص 78.

²³⁶ إبراهيم محمد البيهقي: الخاسن والمساوي ص 358، بيروت، 1960م.

لقد عشت مبسوط اليدين مبرزا
وأفلت من ضيق التراب وغمه
فما تشتفتي عيناى من دائم البكا
فطوبى لمن يبكي أخاه مجاهرا
وعوفيت عند الموت من ضغطة القبر
ولم تفقد الدنيا فهل لك من شكر
عليك ولو أنى بكيت إلى الحشر
ولكنني أبكي لفقدك في سري.²³⁷

وقد ناه المهدي عن خلاعته ومجائته لآلا يفسد بذلك الفتيات والفتيان. وثمة قصيدة يغرر بشار فيها بفتاة صغيرة. وتصور لنا القصيدة عبثه ومضاجعته لها، وتزيينه لها أن تخفي أمرها على أمها بحيلة دها عليها، وقال:

قد لامني في خليلتي عمر
قال أفق قلت: لا قال: بلى
قلت وإذ شاع ما اعتذارما
حسبي وحسب الذي كلفت به
أو قبلة في خلال ذاك وما
أو عضة في ذراعها ولها
أو لمسة دون مرطها بيدي
والساق براقعة مخلخلها
واسترخت الكف للعراك وقالت
انفض فما أنت كالذي زعموا
يا رب خذ لي فقد ترى ضرعي
أهوى إلي معضدي فععضنه
ألصق بي لحية له حشنت
واللوم في غير كنهه ضجر
قد شاع في الناس منكما الخير
ليس لي فيه عندهم عذر
مني ومنه الحديث والنظر
بأس إذا لم تحل لي الأزهر
فوق ذراعي من عضها أثر
والباب قد حال دونه الستر
أو مص ريق وقد علا البهر
إيه عني والدمع منحدر
أنت وربي مغازل أشعر
من فاسق جاء ما به سكر
ذو قوة ما يطاق مقتدر
ذات سواد كأنها الإبر

²³⁷ ديوان بشار بن برد ج4 ص76.

كيف بأمي إذا رأت شفني
قلت لها عند ذاك يا سكني
قولي لها بقة لها ظفر
أم كيف إن شاع منك ذا الخير
لا بأس إني مجرب خير
إن كان في البق ما له ظفر.²³⁸

وثمة قصائد كثيرة وأبيات جزيلة يسخر فيها بشار من العرب وتقاليدهم وثقافتهم،
وبالمقابل يمدح ويمجد عادات الفرس وثقافتهم والحضارة التي زالت على يد العرب. وقال
مرة:

سأخبر فآخر الأعراب عني
أنا ابن الأكرمين أبا وأما
نغاذي الدر McK المنفوظ عزا
ونركب في الفريد إلى الندامى
أسرت وكم تقدم من أسير
إذا انقلب الزمان علا لعبد
ملكناكم فغطينا عليكم
أحين كسبت بعد العري خزا
ونلت من الشبارق والقلايا
تفاخر يا ابن راعية وراع
لعمري أبي لقد بدلت عيشا
وكنيت إذا ظمئت إلى قراح
تريغ بخطبة كسر الموالي
وتغدوا في الكراء لنيل زاد
وتنتسخ الشمال للابسيها

وعنه حين بارز للفقار
تنازعني المرازب من طخار
ونشرب في اللجن وفي النضار
وفي الديباج للحرب الحبار
يزين وجهه عقد الإسار
وسفل بالبطاريق الكبار
ولم ننصبكم غرضا لزار
ونادمت الكرام على العقار
وأعطيت البنفسج في الخمار
بني الأحرار حسبك من خسار
بعيشك والأمور إلى بخاري
شركت الكلب في ذاك الإطار
وينسيك المكارم صيد فار
وليس بسيد القوم المكارى
وترعى الضأن بالبلد القفار.²³⁹

²³⁸ الأغاني ج 4 ص 183.

وقال أيضا عن نفسه ونسبه:

أنا ابن ملوك الأعجمين تقطعت علي ولي في العامرين عماد.²⁴⁰

وقوله:

ونبت قوما بهم حنة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهدا ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروع وأصلي قریش العجم.²⁴¹

وفي النهاية اتهمه الخليفة المهدي بالزندقة فضرب سبعين سوطا فمات منها.²⁴²

²³⁹ ديوان بشار بن برد ج 3 ص 229، الأغاني ج 3 ص 166.

²⁴⁰ ديوان بشار بن برد ج 3 ص 105.

²⁴¹ الأغاني ج 3 ص 138، وديوان بشار بن برد ج 4 ص 156.

²⁴² تاريخ الإسلام ج 10 ص 91.

توجد روايات أخرى تخالف طريقة قتل بشار المذكورة ومن فعل ذلك بالضغط، إلا أنها كلها تنفق في سبب قتله، ألا وهو الزندقة والشعبوية المبالغتان. قال صاحب كتاب الوزراء والكتاب:

وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن حريز أن أباه حدثه أن بشار بن برد هجا صالح بن داود أحبا يعقوب حين ولي فقال:

هم حملوا فوق المنابر صالحا أحاك فضحت من أخيك المنابر!

فبلغ يعقوب بن داود هجاءه فدخل على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين. قال: وما قال؟

فقال: يعني أمير المؤمنين من انشاده ذلك، فأى عليه. وراجع، ولم يزل به إلى أن أنشده:

خليفة يزعم بعماته يلعب بالذنبوق والصولجان

أبدله الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران.

فقال له: وحه في حمله! فحاف يعقوب أن يقدم على المهدي فيمدحه فيعفو عنه، فوجه إليه من ألقاه في البطائح. وقيل لم يغرق في البطائح،

ولكن قتله في طريقه. (أنظر كتاب الوزراء والكتاب ص 117، وقارن هذه الرواية برواية الواردة في الأغاني ج 3 ص 243)

وأما أبو نواس فقد كان زنديقا شعوبيا بارزا. وقد أبدى ذلك في شعره في مرات كثيرة، غير أنه بخلاف بعض الشعراء الذين أشرنا إليهم كان يخفي ويخبي زندقته وشعوبيته ولم يجهر بهما جهرا صريحا. وذلك حينما كان يخشى على نفسه وحياته. وحتى عندما تسمح له الظروف والمناسبات فإنه لا يصدع بكل صراحة بزندقته وشعوبيته بل فقط يقول ويعمل ما يدل بسبيل مباشر أو غير مباشر عليهما. ومن مظاهر زندقته انغماسه في المعاصي والموبقات واعترافه بذلك، ثم إعلانه لدهريته وأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور. وقد جره إلى ذلك ضعف نفساني وضعف إيماني قد اعترف بهما في وقائع عديدة. كما كان يردد استخفافه و استهزائه من أوامر الدين ونواهيهِ. وتعبد لملاذ الخسارة التي عاشها ومجونه الذي اغتمر فيه. ومن مظاهر شعوبيته سحرته من حكام الدولة العباسية وخاصة الخليفة الأمين، وأيضا استخفافه ببعض عادات وتقاليد العرب وتمجيد عادات وتقاليد الفرس التي زالت بزوال دولتهم أو اندمجت في بعض عادات وتقاليد العرب.

وقد اتهم أبا نواس بالزندقة والإلحاد سليمان بن أبي جعفر العباسي (ت199هـ/814م) أمير دمشق، في مجلس الرشيد. وذلك لأجل إدمانه الشراب وإغراقه في المجون وإنكاره البعث والحساب. قال محمد بن عمران المرزباني (ت384هـ/994م)، إخباري مؤرخ أديب: "جلس الرشيد مجلسا فأفاض من حضره في ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين إلى أن اتصل الذكر بأبي نواس. فغمر عليه سليمان بن أبي جعفر فقال: يا أمير المؤمنين كافر بالله لا يرعوي من سكره ولا يأنف من فاحشة! وقد كان نعى إلى الرشيد من خبره شيء فقال: يا عم هل نأثر عنه من ذلك شيئا؟ فروى له شواهد من شعره، فقال الرشيد للفضل بن الربيع: برئت من المنصور إن لم ييت هذا الكلب في المطبق (السجن)! فوجه الفضل من ساعته من أخذ بأفواه السكك، فوجد فأودع المطبق".²⁴³

²⁴³ أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص426، تحقيق علي محمد البحايي، دار النهضة، مصر، 1965م.

ويروى أيضا أن الخليفة الأمين أباح قتل أبي نواس. وذلك لأجل أبياته الآتية:

يا قاتل الرجل البريء	وغاصبا عز الملوك
كيف السبيل للثم سا	لفتيك أو تقبيل فيك
الله يعلم أنني	أهوى هواك وأشتهيك
وأصد عنك حذار أن	تقع الظنون علي فيك
إني أهابك أن أروح	بما أجن وأتقيق. ²⁴⁴

وفي شعر أبي نواس ما يدل على شركه وإنكار اليوم الآخر، وشكه في الجنة والنار، وميله إلى القول بالدهر. وقال:

يا ناظرا في الدين ما الأمر	لا قدر صح ولا حبر
ما صح عندي من جميع الذي	يذكر إلا الموت والقبر
فاشرب على الدهر وأيامه	فإنما يهلكنا الدهر. ²⁴⁵

وقوله:

عاذلني بالسفاه والزجر	استمعي ما أثبت من أمري
باح لساني بمضمهر السر	وذاك أني أقول بالدهر
بين رياض السرور لي شيع	كافرة بالحساب والحشر
موقنة بالممات جاحدة	لما روه من ضغطة القبر

²⁴⁴ ابن منظور المصري (صاحب لسان العرب): أبو نواس في تاريخه وشعره ومبازله وعبته ومجونته ص197، تقدم محمد سعيد حسن كمال،

مكتبة المعارف، الطلطف، دون سنة الطبعة.

²⁴⁵ أبو هفان عبد الله بن أحمد بن حرب المهزومي: أخبار أبي نواس ص37، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة، 1953م.

وقوله:

وملحة بالعدل تحسب أنني
بكرت علي تلومني فأجبتها
فدعي الملام فقد أطعت غواييتي
ورأيت إثاري اللذاذة والهوى
أحرى وأحزم من تنظر آجل
ما جاءنا أحد يخبر أنه
بالجهل أوتر صحبة الشطار
إنني لأعرف مذهب الأبرار
وصرفت معرفتي إلى الإنكار
وتعجلي من طيب هذي الدار
علمي به رجم من الأخبار
في جنة مذمات أو في نار.²⁴⁷

وقوله:

وملحة بالعدل ذات نصيحة
بكرت تخوفني المعاد وشيمتي
فأجبتها كفي ملامك إنني
والله لو لا أنني متخوف
لتبعتهم في دينهم ودخلته
إني لأعلم أن ربي لم يكن
ترجو إنابة ذي مجون سارق
غير المعاد ومذهبي وخلائقي
مختار دين أفسه وجثالقى
أن أبتلي بإمام جور فاسق
ببصيرة مني دخول الوامق
ليخصهم إلا بدين صادق!²⁴⁸

²⁴⁶ نفس المرحع ص 21، 37.

²⁴⁷ نفس المرحع ص 46.

²⁴⁸ الموشع ص 428.

وقد نسبته محمد بن مكرم بن علي ابن منظور (ت 711هـ/1311م) إلى الزندقة الفكرية إذ قال: "اشتهدى علم الكلام فقعد إلى أصحابه، فتعلم منهم شيئا من الكلام، ثم دعاه ذلك إلى الزندقة".²⁴⁹

ويروى أن أبو نواس انصرف يوما من بعض المواخير وهو سكران، فمر بمسجد قد حضرت في الصلاة، فدخل فقام في الصف الأول. فقرأ الإمام: "قل يا أيها الكافرون..." فقال أبو نواس: "لييك!" فلما قضيت الصلاة لبوه وقالوا له: "يا كافر نشهد عليك بالكفر." ودفعوه.²⁵⁰

وقد بالغ أبو نواس في حب الخمر واغتمر في شربه. وانعكس ذلك في شعره انعكاسا واضحا. ويروى عن يحيى بن زكريا أنه قال: "دخلنا على أبي نواس في عدة من الظرفاء فقلنا له: صف لنا الأشرية، فقد عرفنا تمكنها من شهوتك ونشوء محبتها في طبيعتك. فقال أبو نواس: أما الماء فيعظم خطره بقدر تعذره. وأما السويق فبلغة العجلان، وتعلة المريض. والسكسجين دواء المرضى ويشاركهم فيه الأصحاء. والجلاب شراب الصبيان. وأما اللبن فيشبع الجائع الغرثان، ويروي الظمآن. وأما العسل فنبيال المنظر نخيف المخير. وعن الخمر تنفرون وهي شقيقة الروح، وصديقة النفس، ما ارتضعت ممزوجة. وصرفها غير مأمون على إثمك البدن يعاجل الألم وآجل السقم، مع غرس سقم يؤدي إلى عطب. ثم قال:

لا تلمني على شقيقة روحي
وأرتني القبيح غير قبيح
وتعير السقيم ثوب الصحيح

لائمي في المدام غير نصوح
لا تلمني على التي فتنتني
قهوة تترك الصحيح سقيما

²⁴⁹ ابن منظور المصري: أخبار أبي نواس ج 1 ص 6، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1924م.

²⁵⁰ أبو نواس لابن منظور المصري، ص 203.

إن بذلي لها لبذل جواد

واقتنائي لها اقتناء شحيح.²⁵¹

وقال أيضا في الخمر:

لا تعرج بدارس الأطلال

وأسقنيها رقيقة السربال

باد أربابها وبادت قراها

وبراها الزمان بري الخلال

عنتت في الدنان حتى استفادت

نور شمس الضحى وبرد الظلال

فهي بكر كأها كل شيء

حسن، طيب، لذيد، زلال

ولعمر المدام إن لمت فيها

إن فيها لموضعاً للمقال.²⁵²

ويقول أبو نواس في مدح الخليفة الأمين مغلفاً مديحه بالسخرية المبطنه:

نبه نديمك قد نعس

يسقيك كأساً في الغلس

صرفاً كأن شعاعها

في كف شاربها قبس

مما تخير كرمها

كسرى بعانة واغترس

تدع الفتي وكأنا

بلسانه منها خرس

يدعى فيرفع رأسه

فإذا استقل به نكس

يسقيكها ذو قرطق

يلهي ويعجل من حبس

خنت الجفون كأنه

ظبي الرياض إذا نعس

أضحى الإمام محمد

للدين نورا يقتبس

ورث الخلافة خمسة

وبخير سادسهم سدس

تبكي البدور لضحكه

والسيف يضحك إن عبس.²⁵³

²⁵¹ نفس المرحع ص 178.

²⁵² نفس المرحع ص 178.

وقوله أيضا:

ولاح لحاني كي يجيئ بدعة	وتلك لعمرى خطة لا أطيقها خطة
لحاني كي لا أشرب الراح إنها	تورث وزرا فادحا من يذوقها
فما زادي اللاحون إلا لجاجة	عليها، لأنني ما حييت رفيقها
أأرفضها والله لم يرفض اسمها	وهذا أمير المؤمنين صديقها. ²⁵⁴

وكان أبو نواس يكرر في شعره موازنته بين حياة البدو والأعراب وما فيها من بيئة صحراوية مجدية وسذاجة حياتها، وبين حياة أهل الحاضرة وما فيها من رقة ونعومة وملاه. كما كان يستهزأ من الأعراب ويتهكم بهم وبوسائل لهُوهم وبكل ما شاع بينهم. وهو يدعو دعوة صريحة إلى الانغماس في آثام الحياة الحاضرة والتمتع بها. وقال:

دع الرسم الذي دثرا	يقاسي الريح والمطرا
وكن رجلا أضاع العلم	في اللذات والخطرا
ألم تر ما بنى كسرى	وسابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والفرات	تفيات شجرا
بأرض باعد الرحمن	عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها	يرايعا ولا وحرا
ولكن حور غزلان	تراعى بالملأ بقرا
وإن شئنا حثثنا الطير	من حافاتها زمرا
وإن قالوا اقتلوا عنكم	يباكر شر بها الخمرا

²⁵³ الدكتور أحلام الزعيم: أبو نواس بين العبث والاعتراب والتعرد ص54، دار الحقائق للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1986م.

²⁵⁴ نفس المرجع ص55.

بفقرتها ولا وبرا	فذاك العيش لا سيدا
بها العصفور منجحرا	بعازب حرة يلفى
في الأعراب معتبرا	إذا ما كنت بالأشياء
وردت فلم تجد صدرا	فإنك أيما رجل
الجفاة الجلف والصحرا	ومن عجب لعشقتهم
ولم يعجز وقد قدرا	فقليل مرقش أودى
ولم يفتن له خيرا	وقد أودى ابن عجلان
وقال بغير ما شعرا	فحدث كاذبا عنه
من البلوى كما ذكرنا	ولو كان ابن عجلان
الهُوى وأخبه عذرا	لكان أذم عهدا في
والفقهاء والسمرا	تعد الشيخ والقيصوم
والسوسان إن زهرا	جني الآس والنسرین
أن تتقلد البعرا	ويغنيها عن المرجان
حلفت به ولا بطرا	أما والله لا أشرا
تعلق قلبه ذكرنا	لو أن مرقشا حتى
يلفى سهله وعرا. ²⁵⁵	لأيقن أن حب المرد

يعتقد طه حسين (ت 1393هـ / 1973م) أن هذا الاتجاه في شعر أبي نواس اتجاه سياسي شعوبي صرف وغايته إعلاء الفرس ورفعهم والخط من شأن العرب والإضرار بهم وتحقيرهم. وهو يقول: "إنه كان يذم القلم لا لأنه قلم بل لأنه عربي، ويمدح الحديث لا لأنه حديث بل لأنه حديث ولأنه فارسي. فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب، مذهب الشعوبية المشهور".²⁵⁶

²⁵⁵ ديوان أبي نواس ص 557.

²⁵⁶ طه حسين: حديث الأرباء ص 90، دار المعارف، مصر، دون سنة الطبعة.

إن أبا نواس لم يرد أن يجهر بزندقته وشعوبيته جهرا صريحا. وذلك بسبب تيقنه بأن مصيره حينئذ سيشابه مصير كثير من الشعراء الزنادقة والشعوبيين الذين سبقوه أو كان يعاصرهم كمثّل بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس وغيرهما. وكأن حبه للحياة ونعومتها حبا جما دفعه إلى التستر الدائم خوفا من الموت، أو كان ذلك شطرا من منهجيته الخاصة في إفشاء الزندقة وإثارة الشعور بالشعوبية لدى غيره ودعوته إليهما. ولأجل ذلك كلما تعرض للخطر تسرع أبو نواس إلى إنقاذ نفسه. ومن أفضل الوسائل، وبلا شك أكثرها جدوى، الدين ومجاله الواسع والاجتهاد في إقناع الناس بأنه بريء ويعيد كل البعد مما يتهمة الناس به. فلما كفره الخليفة الأمين وحبسه وقال له أنه زنديق رد عليه أبو نواس: "لا والله يا سيدي، ثم أنشدته بديها:

أصلي صلاة الخميس في حين وقتها	وأشهد بالتوحيد لله خاضعا
وأحسن غسلا إن ركبت حنابة	وإن جاءني المسكين لم أك مانعا
وفي كل عام صوم شهر أقيمه	وما زلت للأنداد والشرك خالعا
وإني وإن حانت من الكأس دعوة	إلى بيعة الساقى أجنه مسارعا
فأشربها صرفا على لحم ماعز	وحدي كثير اللحم أصبح راضعا
وبيض حوارى وعجز وسكر	فما زال للمخمور مذ كان نافع
وإن لاح لي صيد وثبت بنهضة	على درفه في السر كالدب جائعا
وأجعل تخليط الروافض كلهم	لفقحة بختيشوع في النار طابعا. ²⁵⁷

وعن عاصم بن حميد بن تميم الوراق أنه قال: رأيت أبا نواس وهو في سراويل والناس يجرونه ويضربونه في قفاه بالنعال ويقولون له: زنديق... ويرمونه بالحجارة حتى أدخلوه إلى محمد بن زبيدة. فقال: ما هذا؟ قالوا: زنديق. فقال: علي بالسيف والنطع! فقال أبو نواس:

²⁵⁷ أبو نواس لابن المنطور ص 199-200.

دعوني أصلي ركعتين. فأفرجوا عنه... فتهياً للصلاة، ثم رفع رأسه إلى السماء وكبر وصلى ركعتين وقال:

سبحان من خلق الخلق	من ضعيف
فساقه من قرار	إلى قرار مكين
في الحجب شيئا فشيئا	تحار دون العيون
حتى بدت حركات	مخلوقة من سكون.

فقال محمد: ما هذا زنديق. أعطوه ألف درهم واخلعوا عليه. فخرج تحت الخلع وطردهوا الناس عنه. وقال: أجروها عليه... فلم يزل يجريها عليه حتى مات. وقال النظام: لما سمعت هذه الأبيات نبهتني لشيء كنت غافلا عنه، حتى وضعت كتابا في الحركة والسكون.²⁵⁸

وقد اتضح لنا مما تقدم أن الزندقة والشعبوية كانتا حركتين منظمتين ذات أسس ثابتة، ومناهج مخططة ورؤية ومقاصد واضحة. وقد مستا تقريبا جميع مجالات الحياة من الأمور السياسية والاجتماعية إلى الأمور الفكرية والعقائدية. وكأن الزنادقة والشعوبيين أرادوا أن يزيلوا الدولة الإسلامية إزالة كاملة ويقدموا لأتباعهم بالمقابل بديلا سياسيا، اجتاعيا، فكريا، ودينيا. ولذلك مزجوا بين عناصرهم الفارسية القديمة والعناصر التي أحضرها مجيء الإسلام والمسلمين وزادوا لذلك الاندماج مزاعم متولدة من مطامعهم وإرشاداتهم الشخصية، وأوردوا أفكارا طريفة جدا خلدعوا بها أنفسهم ومن تبعهم.

وبعد تدبرنا لدعائم وأهداف كل من الزندقة والشعبوية نفقه أنها تركزت على هدم أصول الإسلام الرئيسية والتي، بغض النظر عن بعض أعمال الحكام العباسيين السيئة، بنيت عليها الدولة العباسية بأكملها. وكانت اعتقادات ومقالات هؤلاء دائما مفعمة بروح

²⁵⁸ نفس المرجع ص 200-201.

الفلسفات والديانات القديمة وخاصة الفارسية، وتسليحوا بأسلحة الحجج المموهة والمشوشة. ومن ثم بمجرد هجماتهم على اعتقادات المسلمين كانوا مستعدين للحرب في ميدان الجدل والمحااجة، فضلا عن الحرب بالسيف وسفك الدماء. والأمر الذي كان يقلق المسلمين وقيادتهم أن أصحاب الزندقة والشعوبية كانوا دائما يحصلون على عدد كبير من الأتباع وهو ما كان يمثل خطرا عظيما للمسلمين ودولتهم. ومما يزيد من خطرهم أنهم كانوا مسلمين، أو على الأقل جهروا بذلك، لكنهم نافقوا ثم ارتدوا، وصاروا عدوا للدولة الإسلامية. ومنهم من كان من عمال الخليفة على بعض الأمصار، وتمردهم وارتدادهم يدل على أنهم سيعملون ضد الدولة، ومن الداخل مما سيسهل لهم القيام بهجمات أكثر هداما من التي من الخارج. وبكوتهم أعداء من الداخل فإنهم استطاعوا أن يطلعوا على الأمور والأسرار التي تمنى أعداء الدولة الإسلامية خارج حدودها أن يعثروا عليها.

ونعتقد أن خطر تفضيظ وفشو الاعتقادات الزندقية والشعوبية الدينية كان أشد وأكبر من الخطر المتجسم في مواجهة أصحابها بالسيف. وذلك لأثر تلك الاعتقادات السلبية على الذين لم يطمئنوا اطمئنانا تاما إلى كوتهم متبعين للإسلام وتعاليمه، وكذا للزعامة التي كانت في أيدي العرب. هذا بالإضافة إلى أنه كان لتلك الاعتقادات أثر على عقل المسلم الذي لم يتعود على علاج ذلك النوع من المسائل والقضايا، وأيضا على الفكر الإسلامي الذي لم يطور بعد وسائل الدفاع الفعالة ضد ذلك النوع من الهجمات على الدين وأصوله. وسبب ذلك يعود إلى طبيعة ونوعية القضايا التي عاجلها المسلمون يومئذ والتي خالفت في وجوه كثيرة جوهر وحقيقة القضايا التي فرضها وأثارها الزنادقة والشعوبيون. ومن هنا بطبيعة الحال لاحت الحاجة لدى السلطة إلى تشجيع المواجهة الشاملة باتخاذ كل الوسائل الممكنة من السيف والقوة إلى الجدل والمناقشة بالأدلة العقلية المنطقية الدامغة لأجل الدفاع عن الدين، وفي الوقت نفسه عن الدولة. ولأجل نبل هذه المقاومة كانت دائما تلتمح بالدفاع عن الدين والعقيدة. وكان لزاما أن تكون هذه المواجهة منظمة ومنسقة ومتنوعة وشاملة كما كان دأب تلك الحركات وأهلها، وإلا لم تكن المكافحة ناجحة نجاحا مرضيا. ولما

كانت حركتا الزندقة والشعبوية تنقسم إلى قسمين: الثوار والمسالون، كانت طرق المكافحة تنقسم أيضا إلى: أ) المكافحة المسلحة المتشددة، و ب) المكافحة السلمية بالجدل والمحاجة، أو نقول المكافحة الثقافية الفكرية.

9) المكافحة المسلحة

فأما المكافحة المسلحة المتشددة فقد تفاوتت الحكام فيها، فمنهم من تساهل ومنهم من تشدد تشددا بالغا. أما أبو العباس السفاح فلا نجد شيئا في هذا الصدد يعزى له. وأما المنصور فنجد بعض الروايات التي تدل على أنه كان أحيانا يتشدد مع الزنادقة والشعبيين. ويقال أن ابن أبي ليلى كتب إلى المنصور بخصوص قاتل بخلق القرآن، فكتب إليه المنصور: إن هو رجع وإلا فاضرب رقبته واحرقه بالنار. فتاب الرجل ورجع عن قوله في القرآن.²⁵⁹ وكذلك قاتل المنصور بكل شدة الرواندية وأصحاب أستاذسيس وسنباذ.²⁶⁰

ولكننا نلاحظ في سياسة المنصور الدينية أن الدوافع السياسية هي التي استولت علي بقية الدوافع. وفي ضوء هذا القول ندرس ونتأمل مواقفه من الزنادقة والشعبيين. ولأجل ذلك فإن الأحداث التي سجلت بينه وبين الزنادقة والشعبيين كانت كلها ذات طابع سياسي واضح. فالرواندية الذين بالغوا في الزندقة والكفر لدرجة أنهم ألهموا المنصور قاتلهم المنصور، ولكن موقفه الحقيقي منهم يتبلور في الرواية الآتية:

يروى عن أبي بكر الهذلي أنه قال: إني لواقف بباب أمير المؤمنين إذ طلع فقال رجل إلى جاني: هذا رب العزة! هذا الذي يطعمنا ويسقينا! فلما رجع أمير المؤمنين ودخل عليه الناس دخلت وخلا وجهه، فقلت له: سمعت اليوم عجبا، وحدثته. فنكت في الأرض، وقال: يا

²⁵⁹ أنظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 246.

²⁶⁰ أنظر الأخبار الطوال ص 384، وتاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 495، و ج 8 ص 29.

هذلي يدخلهم الله النار في طاعتنا أحب إلي من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا.²⁶¹ فالميزان إذن هو الطاعة وليس الدين كما هو المطلوب.

كما استخدم المنصور بعض الزنادقة والشعوبيين في أمور الدولة. فيذكر أن خصيبا النصراني (ت حول 155هـ/772م) طبيب الخصاص كان يظهر النصرانية وهو زنديق معطل لا يبالي من قتل.²⁶² ويذكر أيضا أن يزيد بن الفيض (ت حول 175هـ/792م) كان كاتبه مانويا. وقد أقر بذلك حين قبض عليه المهدي فيما بعد سنة 167هـ/783م فهرب من السجن.²⁶³

وكذلك كان المنصور يستخدم بعض الزنادقة والشعوبيين في تنفيذ بعض خططه السياسية ولم يأبه كثيرا إلى سمعتهم السيئة في الدولة، بل استغلها مرة في تحطيم سمعة ابن أخيه أبي العباس لألا يطالب بالخلافة. ويروى أن عليا بن محمد قال: حدثني أبي قال: وجه أبو جعفر مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والجحان، وكان فيهم حماد عجرد (ت 161هـ/778م).²⁶⁴ فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم الجحون. وإنما أراد بذلك أن يبغضه إلى الناس. فأظهر محمد أنه يعشق زينب بنت سليمان بن علي (ت 204هـ/820م)،²⁶⁵ فكان يركب إلى المربد، فيتصدى لها، يطمع أن تكون في بعض المناظر تنظر إليه. فقال محمد لحماذ: قل لي فيها شعرا. فقال فيها أبياتا يقول فيها:

²⁶¹ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 507.

²⁶² نفس المرجع ج 8 ص 86.

²⁶³ نفس المرجع ج 8 ص 165.

²⁶⁴ شاعر، من الموالي، من أهل الكوفة. من محضري الدولتين الأموية والعباسية ولم يشتهر إلا في العباسية. وكانت بينه وبين بشار بن برد

أهاج فاحشة. (تاريخ بغداد ج 8 ص 148، وفيات الأعيان ج 2 ص 210)

²⁶⁵ أميرة عباسية، من ذوات الرأي والفصاحة. كان أبوها أمير البصرة وتزوجها إبراهيم الإمام. كانت إقامتها في بغداد، وكان الخلفاء يجلونها ويقدمونها. ويزعم المسعودي أنها هي التي كلمت المأمون في تغييره الخضره ورجوعه إلى السواد سنة 204هـ/819م. (الأعلام ج 3

ص 66)

ويقال أن عبد الكريم بن أبي العوجاء قتل لأجل الزندقة على يد والي البصرة في سنة خمس وخمسين ومائة. وقال هذا الزنديق قبيل الإعدام: "أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام. والله لقد فطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم". فضربت عنقه.²⁶⁷ ولكن لما عرف المنصور ذلك لم يهتز ولم يهتم لماذا قتل ولكن كيف قتل وهو لا يدري، فأراد أن يعزل الوالي. فقال للمنصور أحد أقربائه: "يا أمير المؤمنين إن محمدا (والي البصرة) إنما قتل هذا الرجل على الزندقة، فإن كان قتله صوابا فهو لك، وإن كان خطأ فهو على محمد. والله يا أمير المؤمنين لئن عزلته على تقية ما صنع ليذهبن بالثناء والذكر، ولترجعن القالة من العامة عليك..."²⁶⁸ فخاف المنصور وعاد عن عزل الوالي.

وأريد أيضا أن أذكر ههنا قضية ابن المقفع. وقد أشار إلى زندقته وشعوبيته مؤرخون كثيرون.²⁶⁹ وقتله المنصور في سنة 145هـ/762م، ولا يوجد مؤرخ واحد يذكر أنه قتله لأجل زندقته فقط، بل ثمة دوافع أخرى. وقد قتله سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة. وذلك، كما يزعم ابن كثير، أنه كان يعيث به ويسب أمه. وإنما كان يسميه ابن المعلم. وكان كبير الأنف، وكان إذا دخل عليه يقول: السلام عليكما - على سبيل التهكم-. وقال لسفيان بن معاوية مرة: ما ندمت على سكوت قط. فقال: صدقت، الخرس لك خير من كلامك. ثم غضب المنصور على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله. فأخذه فأحمى له تنورا وجعل يقطعه إربا إربا ويلقيه في

²⁶⁶ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 86.

²⁶⁷ نفس المرجع ج 8 ص 48.

²⁶⁸ نفس المرجع ج 8 ص 48.

²⁶⁹ وقد فصلنا هذا الأمر في فصلنا "مكانة ودور العلماء في العهد العباسي الأول" فراجع.

ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق. وقيل غير ذلك في
صفة قتله.²⁷⁰

وحكي أن سفيان بن معاوية لما أمر بتقطيع ابن المقفع وطرحه في التنور، قال له ابن
المقفع: لتقتلني فتقتل ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد! ثم قال:

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير.²⁷¹

ولما جاء الخليفة المهدي تغيرت مواقف الحكام من الزنادقة والشعوبيين. وقد جد المهدي
في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم. وولى أمرهم عمر الكلوازي (ت 168هـ/785م)
سنة 167هـ/783م.²⁷² وفي سنة 168هـ/785م مات الكلوازي وولى المهدي مكانه حمدويه،
وهو محمد بن عيسى (ت حول 180هـ/796م) من أهل ميسان.^{273 274}

وقد ترتب على شدة المهدي أنه أعدم كثيرا ممن أتهم أو أعلن بنفسه أنه زنديق خارج من
دائرة الإسلام. فيروى أنه كان يبطش بهم في بغداد في سنة 168هـ/785م.²⁷⁵ ويقال أيضا أن

²⁷⁰ البداية والنهاية ج 10 ص 99.

ويذكر W. Montgomery Watt أن ابن المقفع قتل لأجل زندقته. ولكننا نستيقن من خلال سياق كلامه أن قوله هذا تخمين صرف ولا
يستند إلى أي مصدر تاريخي ليستدل به على تخمينه هذا. (The Formative Period of Islamic Thought: page 171)

²⁷¹ كتاب الوزراء والكتاب ص 76.

²⁷² نفس المرجع ص 115، وتاريخ الخلفاء ص 273.

²⁷³ ميسان: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط. (معجم البلدان ج 5 ص 242)

²⁷⁴ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 167.

²⁷⁵ نفس المرجع ج 8 ص 167.

محمد بن عبيد الله (ت حول 169هـ/786م) كاتب المهدي كان زنديقا فاعترف بذلك في حضور المهدي فقتله.²⁷⁶

وقتل المهدي صالح بن عبد القدوس الشاعر الزنديق. قال عبد الله بن محمد ابن المعتز (ت296هـ/909م): "أدخل على المهدي صالح بن عبد القدوس، فلما خاطبه أعجب به لغزارة أدبه وعلمه وبراعته، وبما رأى من فصاحته وحسن بيانه وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله. فلما ولى رده وقال: أَلست القائل:

وإن من أدبته في الصبا	كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا	من بعد ما أبصرت من ييسه
والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله	كذي الضنا عاد إلى نكسه.

قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: وأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم في نفسك بحكمك. فأمر به، فقتل".²⁷⁷

قال علي بن الحسين الشريف المرتضى (ت436هـ/1044م): "ويقال: إنه لما أراد المهدي قتله على الزندقة دحا إليه بكتاب وقال له: اقرأ هذا! قال: وما هو؟ قال: كتاب الزندقة. قال صالح: أو تعرفه أنت يا أمير المؤمنين إذا قرأته؟ قال: لا. قال: أفقتلني على ما لا تعرف! قال: فإني أعرفه. قال صالح: فقد عرفته، ولست بزنديق، وكذلك أقرأه، ولست بزنديق".²⁷⁸

²⁷⁶ الفهرست ص473.

²⁷⁷ طبقات ابن المعتز ص90، وأنظر أيضا تاريخ الخلفاء ص374-375.

²⁷⁸ أمالي ج1 ص144.

وهناك من يزعم أن الخليفة الرشيد هو الذي اعتقله وأعدمه. (أنظر الأغاني ج14 ص177)

وقتل المهدي أيضا بشار بن برد الشاعر الزنديق الشعوبي، وذلك بعد ما ضربه سبعين سوطا.²⁷⁹ وفي الحقيقة ثمة روايات أخرى تختلف في طريقة قتل بشار بن برد ومن فعل ذلك بالضبط. ولكن تتفق الروايات كلها أنه قتل لأجل زندقته وشعوبيته المبالغتين، وذلك هو الأهم بالنسبة لنا. ويذكر عن خالد بن يزيد بن وهب بن جرير أن أباه حدثه أن بشار بن برد هجا صالح بن داود أخا يعقوب حين ولي فقال:

هم حملوا فوق المنابر صالحا أخاك فضجت من أخيك المنابر!

فبلغ يعقوب بن داود (ت 187هـ/803م)²⁸⁰ هجاءه فدخل على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين. قال: وما قال؟ فقال: يعفني أمير المؤمنين من إنشاده ذلك، فأبي عليه، وراجعه، ولم يزل به إلى أن أنشده:

خليفة يزني بعماته يلعب بالذبوق والصلحان
أبدله الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران.

فقال له: وجه في حمله. فخاف يعقوب أن يقدم على المهدي فيمدحه فيعفو عنه فوجه إليه من ألقاه في البطائح. وقيل لم يغرق في البطائح، ولكن قتله في طريقه.²⁸¹

²⁷⁹ تاريخ الإسلام ج 10 ص 91.

²⁸⁰ كاتب من أكابر الوزراء. كان يكتب لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن، فلما خرج إبراهيم على الدولة العباسية وأهزم قبض الخليفة المنصور على يعقوب فحبسه. وأطلق بعد وفاة المنصور وتقرّب من المهدي، وعلت منزلته عنده حتى استوزره. فلما صار وزيرا غلب على الأمور كلها حتى صدر مرسوم إلى الدواوين يقول: "إن أمير المؤمنين المهدي قد آخى يعقوب بن داود". توفي في خلافة هارون الرشيد. (تاريخ بغداد ج 14 ص 262، وفيات الأعيان ج 7 ص 19، الفخري في الآداب السلطانية ص 184)

²⁸¹ كتاب الوزراء والكتاب ص 117.

قارن هذه الرواية بالرواية الواردة في الأغاني. ج 3 ص 243.

وقد قبض المهدي على يزيد بن الفيض كاتب الخليفة المنصور. وكان زنديقا واعترف بذلك، فأدخله المهدي السجن فهرب.²⁸²

وإننا نتساءل لماذا تشدد المهدي مع الزنادقة والشعوبيين أكثر من أبيه المنصور، بل أكثر من غيره من حكام الدولة العباسية بصفة عامة؟ ذلك يعود، كما أرى، إلى أربعة أسباب.

الأول: وصايا أبيه المنصور الدينية التي تحض المهدي على التزام بالدعوة إلى الإسلام ومحاربة الخارجين عليه. كما أشار إلى تقوية العلاقات بين السلطة والرعية. وشطر هذا المشروع سيتحقق بتنقية المجتمع الإسلامي من المرتدين والمنحرفين والزنادقة الذين كانوا يمحرون بالوسائل المختلفة ضد الإسلام والمسلمين. وقال له في إحدى وصاياه: "فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي... احفظ يا بني محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم في أمته يحفظ الله عليك أمورك. وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم. والزم الحلال فإن ثوابك في الآجل وصلاحك في العاجل. وأقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور. فإن الله لو علم أن شيئا أصلح لدينه وأزجر من معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه. واعلم أن من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فسادا، مع ما دخر له عنده من العذاب العظيم. فقال: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا...﴾²⁸³ فالسلطان يا بني حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه وحطه وحصنه، وذبح عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثالث بهم. ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن. واحكم بالعدل ولا تشطط فإن ذلك أقطع للشغب، وأحسم

²⁸² تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 165.

²⁸³ سورة المائدة 33.

للعُدو، وأنجَحَ في الدِّواء. وعَفَّ عن الفِئ، فليس بك إليه حاجة مع ما أُخْلِفَه لك. وافتتح
عملك بصلة الرحم وبر القرابة...²⁸⁴

الثاني: سيرورة الأحداث في الدولة الإسلامية، وبصفة خاصة تطور الحركتين الزندقة
والشعوبية. فقد كانتا في أوجهما، وآنار أصحابهما الهدامة كانت تصير من يوم إلى آخر أبرز
وأكبر، وأخذت تتغلغل في كل مجالات الحياة. ولم ينس المهدي حركات الزندقة والشعوبية
على يد سنباذ والرواندية وأستاذسيس ونتائجها السلبية في عصر أبيه. ثم بعد ذلك وقعت
ثورة المقنع التي كانت تُعدّ من أشدها في نوعها، والتي أنتجت مشاكل كثيرة للدولة
الإسلامية وللخليفة المهدي وجيوشه. وقد أدرك المهدي أيضا أنه كلما تحركت الزنادقة
والشعوبيون كلما كانت حركتهم أقوى وأوسع من سابقتها، فأراد باستخدام كل الوسائل
الموجودة أن يقمع ويخمد تلك الحركات والثورات والاعتقادات الشاذة التي تدعّمها ويقف
أمام نموّها وترعرعها.

الثالث: إن اسم "المهدي" دلّ على إحدى محاولات العباسيين في إقناع الناس بأنهم
أصحاب الحكم الحقيقيون وأنهم أهل وكفاء لذلك المنصب. وتذكر جهود المنصور في هذا
الصدد. ودل اسم "المهدي" على أنه "المهدي المنتظر" وأنه جاء ليملأ الأرض عدلا كما
ملئت جورا. وملاحقة الزنادقة والشعوبيين هذه كانت فقط جزء من سياسة الخليفة المهدي
الدينية واسعة المدى. ودفاعه عن الدين بهذه الطريقة بدأ عشر سنوات بعد استهلال حكمه
وستنين قبل وفاته من حيث يتضح لنا أن ذلك كان يمثل ذروة سياسته المهدية أي سياسته
الدينية. وكان ذلك أخطر أضرب الدفاع وأكثرها جدوى، ولذا استلزم غاية الاجتهاد
المنسوج بالإخلاص والتراهة.

²⁸⁴ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 105-106.

الرابع: أحلام المهدي التي رأى فيها جدّه العباس قلّده بسيفين وأمره بقتل أصحاب الإثنيين، أي الزنادقة من المانوية والمزدكية خاصة، الذين كانوا يعبدون اثنين: النور والظلمة.²⁸⁵

وكان المهدي لم يكمل واجبه هذا وهو من أهم مشاريعه السياسية والدينية. أو نقول أنه لم يستطع أن يكمله إذ أن الزنادقة والشعوبيين صاروا جزء من الواقع المعتاد في الدولة الإسلامية، فأوصى لابنه الهادي أن يكون واعيا لتلك الظاهرة وأن يواظب على ملاحقتهم وإعدامهم كما كان يفعل ذلك أبوه. فقال له يوما، وقد قدم إليه زنديق، فاستتابه فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه: "يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد هذه العصابة، فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة. ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوامّ تخرجها وتغوبا. ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة. ثم تبيح بعد ذلك نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنتقدهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور. فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له. فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدي بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين. فقال موسى بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر: أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف.²⁸⁶

وبين أن المهدي والهادي في تصريحهما هذه يقصدان المانوية والمزدكية الذين كانوا من أكثر أصحاب الثنوية فشوا في الدولة الإسلامية وقتئذ، وكانوا في جبهة الزنادقة والشعوبيين.

²⁸⁵ نفس المرجع ج 8 ص 220.

²⁸⁶ نفس المرجع ج 8 ص 220، والكامل في التاريخ ج 5 ص 276.

وعن علي بن محمد الهاشمي أنه قال: كان المهدي أتي بابن لداود ابن علي زنديقا، وأتي يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب زنديقا، في مجلسين متفرقين. فقال لكل واحد منهما كلاما واحدا. وذلك بعد أن أقرأ له بالزندقة. أما يعقوب بن الفضل فقال له: أقر بما بيني وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض. فقال له: ويلك! لو كشفت لك السماوات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقا أن تغضب لمحمد، ولو لا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من كنت! هل كنت إلا إنسانا من الناس! أما والله لو لا أي كنت جعلت لله علي عهدا إذا ولاي هذا الأمر ألا أقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك. ثم التفت إلى موسى الهادي فقال: يا موسى أقسمت عليك بخفي إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة. فمات ابن داود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي. وأما يعقوب فبقي حتى مات المهدي.²⁸⁷

وفي سياق ذكر أحداث سنة 169هـ/786م قال الطبري عن شدة بحث الهادي عن الزنادقة وملاحقته إياهم: "وفي هذه السنة اشتد طلب موسى الزنادقة، فقتل منهم فيها جماعة. فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين، وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان²⁸⁸. ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون فقال: ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر. وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيا أمين الله في خلقه	ووارث الكعبة والمنير
ما ذا ترى في رجل كافر	يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذ ما سعوا	حمرا تدوس البر والدوسر.

²⁸⁷ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص190، والكمال في التاريخ ج5 ص190.

²⁸⁸ النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدتها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة. (معجم البلدان ج5 ص325)

فقتله موسى ثم صلبه، فسقطت خشبته على رجل من الحاج فقتلته وقتلت حمارة. وقتل من بني هاشم يعقوب بن الفضل (ت169هـ/785م).²⁸⁹

وبعد وصول هارون الرشيد إلى العرش حذا حذو المهدي والهادي في معاملاته مع الزنادقة والشعوبيين. وفي العام الذي استولى على منصب الخلافة آمن من كان هاربا أو مستخفيا غير نفر من الزنادقة، منهم يونس بن فروة ويزيد بن الفيض.²⁹⁰ فقد لاحقهم في جميع أرجاء الدولة، فأعدم بعضهم في خراسان²⁹¹ وآخرين منهم في بغداد.²⁹²

ويذكر صاحب تاريخ الخلفاء أن الرشيد أخذ يوما زنديقا فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ فقال له: أريح العباد منك. قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلها ما فيها حرف نطق به؟ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا؟²⁹³

إن الوقائع التي أشرنا إليها ومثلها قد وقعت كلها أو معظمها في الشطر الأول من حكم الخليفة هارون الرشيد. وبعد ذلك تراخت القبضة الشديدة التي كانت تمسك بقضية الزندقة والشعوبية. وعلة ذلك التراخي أن الرشيد سلم الأمور كلها للبرامكة، ولم تكن ملاحقة

²⁸⁹ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص190.

²⁹⁰ أنظر نفس المرحع ج8 ص234، والكامل في التاريخ ج5 ص279.

²⁹¹ ويقال في هذا الصدد أنه لما خرج الخمرية بمرجان في سنة 180هـ/796م على الخليفة الرشيد كتب علي بن عيسى بن ماهان أن الذي

هيج ذلك على الرشيد عمرو بن محمد العمركي وأنه زنديق، فأمر الرشيد بقتله فقتل بمرو. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص266)

²⁹² أنظر نفس المرحع ج8 ص297.

²⁹³ تاريخ الخلفاء ص293.

ومقاتلة الزنادقة والشعوبيين من هموم هؤلاء ولا من خططهم السياسية.²⁹⁴ ولكن مهما كانت خططهم فإن الرشيد والبرامكة لم يستطيعوا أن يستغنوا عن ملاحقة الزنادقة في الفترة الأولى من حكم الرشيد لأن ملاحقتهم صارت مطلبا شعبيا إسلاميا. وبوجود هؤلاء وجودا ملحوظا ثم بوجود آثار سيرة المهدي وابنه الهادي من بعده في هذا الاتجاه، صارت ملاحقتهم ومحاربتهم واجبا دينيا أكثر منه سياسيا، وعلى الحكام أن يشجعوا على مواجهتهم وأن يشاركوا فيها.

ولا نستغرب عندما نسمع أن البرامكة لم يصغوا كثيرا إلى الزنادقة والشعوبيين، وأنهم بعد استيلائهم على الرشيد أجبروه على التخفيف والتساهل معهم، لأن البرامكة أنفسهم في بعض الأحيان كانوا يتهمون بتشجيع وتأييد وترويج الزندقة والشوعية، بل وأنهم أنفسهم منهم. فلما وعظ محمد بن الليث الخليفة هارون الرشيد ونبهه إلى دور البرامكة ونفوذهم السليبي في الدولة قال عن يحيى بن خالد أنه يكيد الإسلام وأهله وأنه بالمقابل يجب الإلحاد وأهله.²⁹⁵ وعن علامات زندقتهم، كما يقول الجهشيارى، إدخالهم مجامر البخور إلى الكعبة لتشبه في ذلك بيوت النار.²⁹⁶ ويعتقد أبو الفرج محمد بن إسحاق ابن النديم (ت 438هـ/1047م) أنهم كلهم كانوا زنادقة إلا محمد بن خالد بن برمك.²⁹⁷ ويذكر أن عبد

²⁹⁴ عن نفوذ البرامكة في الدولة العباسية لدى الرشيد يقول الطبري: "وفيها، أي سنة سبعين ومائة، قلد الرشيد يحيى بن خالد الوزارة وقال له: قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجتك من عقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت وأعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. ودفع إليه حائفه. ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذى الندى فهارون وبها ويحيى وزيرها." (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 233)

ثم ذكر الطبري من ضمن أحداث سنة 178هـ/794م: "وفي هذه السنة فوض الرشيد أموره كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك". (نفس المرجع ج 8 ص 256)

ووعظ يوما محمد بن الليث الرشيد وقال له: "إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئا. وقد جعلته فيما بينك وبين الله. فكيف أنت إذا وقفت بين يديه..." (نفس المرجع ج 8 ص 288)

²⁹⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 288.

²⁹⁶ كتاب الوزراء والكتاب ص 204، وأنظر أيضا الفرق بين الفرق ص 172.

²⁹⁷ أنظر الفهرست ص 473، وأيضا شذرات الذهب ج 1 ص 261.

الله بن مصعب (ت 184هـ/800م) كان على خير الناس للرشيد، فكان أخبره عن أنس أنه على الزندقة، فقتله لذلك. وأضاف الطبري أنه كان أحد أصحاب البرامكة.²⁹⁸

ولكن معظم المصادر التاريخية تشير إلى أن الرشيد نكل بالبرامكة لأجل أسباب سياسية واقتصادية وشخصية. ولا يذكر شيء عن نكبتهم لأجل الزندقة والشعبوية إلا نادرا كمثّل ما في تاريخ ابن كثير حيث يقول أن الرشيد قتل البرامكة لأجل أسباب كثيرة أوردّها المؤرخون، ومنها أن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة.²⁹⁹ ونحن متيقنون بأن ذلك أسهم في سحق الرشيد عليهم، إلا أن الأسباب السياسية والاقتصادية والشخصية قد غمرت الأسباب المتعلقة بميول البرامكة الدينية والاجتماعية.

ويذكر أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فأجاب: "لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته".³⁰⁰ ويروى عن مسرور الخادم أنه قال: "أشهد بالله لكنت من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمس ثوبي ثوبه، وهو يقول في مناجاته ربه: اللهم إني أستخريك في قتل جعفر بن يحيى". ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ست.³⁰¹

ولأجل تساهل هارون الرشيد مع أصحاب الزندقة والشعبوية ضعفت الملاحظة وندر أن نسمع عن "القتل والإعدام"، وإن كنا ما زلنا نسمع عن سجنهم وطردهم وإبعادهم عن الخليفة وقصره. وقيل يوما للرشيد أن أبا سهل بشر بن المعتمر الهلالي (ت 210هـ/825م)³⁰² رافضي فحبسه. فقال في الحبس شعرا:

²⁹⁸ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 297.

²⁹⁹ أنظر البداية والنهاية ج 10 ص 196.

³⁰⁰ نفس المرجع ج 10 ص 196.

³⁰¹ الماحظ: كتاب التاج في أخلاق الملوك ص 73-74، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، دون سنة الطبعة.

³⁰² فقيه معتزلي مناظر. يقال أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستحبيه. له مصنفات في "الاعتزال" منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين. مات ببغداد. (النية والأمل في شرح الملل والنحل ص 153)

لسنا من الرافضة الغلاة ولا من المرجئة الحفاة

لا مفرطين بل نرى الصديقا مقدما والمرتضى الفاروقا

نبرأ من عمرو ومن معاوية... إلى آخر ما ذكره. فلما بلغ ذلك الرشيد أفرج عنه.³⁰³

ويروى أن أبا نواس انصرف يوما من بعض المواخير وهو سكران فمر بمسجد قد

حضرت فيه الصلاة. فدخل فقام في الصف الأول. فقرأ الإمام: {قل يا أيها

الكافرون...}³⁰⁴ فقال أبو نواس من خلفه: لبيك. فلما قضيت الصلاة لببوه وقالوا له: يا كافر نشهد عليك بالكفر ودفعوه.

فبلغ هذا الرشيد فدعا صاحب الزندقة وأحضر أبا نواس، فقال له حمدوية (صاحب ا

لزندقة): يا أمير المؤمنين إن هذا ماجن وليس هو بحيث يظن. فقال له الرشيد: ويحك! إنه

وقع في نفسي منه شيء فامتحنه. فخط له صورة مائي وقال له: ابصق عليها. فأهوى أبو

نواس فيه ليقى عليها فقال له حمدوية: قد قلت لك يا أمير المؤمنين أنه ماجن. ثم ودعا برجل

من الزنادقة مشهور وقال له: ابصق عليها. فقال: وما معنى البصاق؟ إنه من أخلاق الشرك

ولا أفعله، وأبى أن يفعل. فقال الرشيد لبعض خدام القصر: امض بهذا، أي أبا نواس، إلى

السندي فقل له: أدبه وأطلقه. وبهذا، أي الزنديق، فقل له: احبسه قبلك إلى أن تستتيبه فإن

تاب وإلا قتلناه.

فمضى بهما الخادم، فلما صار في آخر الصحن قال أبو نواس للخادم: إلى أين تذهب بنا؟

قال: إلى السندي. قال: فما تقول له؟ قال: أقول له: يحبسك قبله حتى تستتاب أو تقتل،

ويؤدب هذا ويطلقه. قال: فرفع أبو نواس يده ولطمه وقال له: يا ابن الفاعلة من الساعة

³⁰³ طبقات المعتزلة ص 52-53.

³⁰⁴ سورة الكافرون 1.

نسيت؟ وبصر بهم الرشيد فقال: ردوهم. فقال لأبي نواس: ما هذا الذي رأيت منك؟ قال: أراد والله أن يهلكني ويطرحني بحيث أنسى أبداً أو أبقى مخلداً. سله يا أمير المؤمنين عن الرسالة. فإذا هو قد غيرها. فضحك من أبي نواس وأطلقه.³⁰⁵

وقد أخذ الرشيد علي بن الخليل الشاعر في الزندقة فأنشده ومدحه قائلاً:

يا خير من وخذت بأرجله	نحب تحب بمهمه جلس
يطوي السباب في أزمتها	طي التجار عمائم اليرس
لما رأتك الشمس إذ طلعت	كسفت بوجهك طلعة الشمس
خير البرية أنت كلهم	في يومك الغادى وفي أمس
وكذلك لن تنفك خيرهم	تمسى وتصبح فوق ما تمسى
لله ما هرون من ملك	بر السريرة طاهر النفس
ملك عليه لربه نعم	تزداد جدتها على اللبس
تحكى خلافته ببهجتها	أنق السرور صبيحة العرس
من عترة طابت أرومتهم	أهل العفاف ومنتهى القدس
نطق إذا احتضرت مجالسهم	وعن السفاهة والخنأ خرس
إني إليك لجأت من هرب	قد كان شردني ومن لبس
واخترت حكمك لا أجاوزه	حتى أوسد في ثرى رمسى
لما استخرت الله في مهل	يممت نحوك رحلة العنس
كم قد قطعت إليك مدرعا	ليلا بهيم اللون كالنفس
إن حاجني من هاجس جزع	كان التوكل عندي ترسى
ما ذاك إلا أنني رجل	أصبو إلى بقر من الإنس
بقر أو انس لا قرون لها	نجل العيون نواعم لعس

³⁰⁵ أبو نواس لابن المنظور المصري ص 203-205.

ردع العبير على ترائبها يقبلن بالترحيب والخلس
وأشاهد الفتیان بينهم صفراء عند المزج كالورس
للماء في حافاتها حب نظم كرقم صحائف الفرس
والله يعلم في بقيته ما إن أضعف إقامة الخمس

ولما سمع الرشيد الأبيات أطلقه.³⁰⁶

ولما سمع الرشيد أن بشر بن غياث المريسي (ت 218هـ/833م)³⁰⁷ يقول بخلق القرآن قال:
فله علي إن أظفري به لأقتلنه. وكان المريسي متواريا يومئذ، غير أنه لا يروى أن الرشيد
جد في البحث عنه.³⁰⁸

ولما جاء الخليفة المأمون تغيرت الأوضاع تغيرا تاما. وذلك لأنه كان دائما يفضل أن
ينظر ويحاج ويبادل على القتل أو الإرهاق. فقد آمن بقوة الحجة والدليل. ويعزى له القول
الآتي: "غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة، لأن غلبة الحجة لا تزول وغلبة القدرة تزول
بزوالها".³⁰⁹ ولأجل ذلك كان دائما يجالس الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وكان يحرضهم
على المناظرات فيما بينهم ومناظرات ومحاجات أعداء الإسلام والمسلمين، وكان أحيانا
بنفسه يشارك فيها.³¹⁰ وكان ذلك سببا في أن برع الخليفة المأمون في الفلسفة وعلوم
الأوائل والكلام والفقه والعربية وأيام الناس وغيرها.³¹¹

³⁰⁶ الأغاني ج 14 ص 175-176.

³⁰⁷ فقيه معتزلي عارف بالفلسفة، يرمى بالزندقة. أخذ الفقه عن القاضي أبي يوسف، وقال برأي الجهمية. قيل أن أباه كان يهوديا. (تاريخ بغداد ج 7 ص 56، وفيات الأعيان ج 1 ص 277، عبيد الله محمد بن بطة العكبري: الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة ص 349، تحقيق الدكتور رضا بن نعمان معطي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، دون سنة الطبعة)

³⁰⁸ أنظر سير أعلام النبلاء ج 11 ص 236-237.

³⁰⁹ تاريخ الإسلام ج 15 ص 238.

³¹⁰ أنظر فصول الأحكام ص 127، ومروج الذهب ج 4 ص 19-20.

³¹¹ أنظر تاريخ الخلفاء ص 306، وتاريخ الإسلام ج 15 ص 227.

وكان كل هذا علة أن يتحرك الزنادقة والشعوبيون بأكثر حرية في عهد الخليفة المأمون ويناظروا ويحاجوا العلماء المسلمين، وبالتالي استطاعوا أن يجتنبوا الإعدام مع إصرارهم على ميولهم الدينية والاجتماعية. وهذا بشر بن غياث المريسي الذي دعا إلى القول بخلق القرآن قد عاش متواريا عن الأنظار في عصر الرشيد لأن الرشيد تعهد أنه سيقطله إن عثر عليه. فلما مات الرشيد ظهر في أيام المأمون ودعا إلى ضلالتة.³¹²

ويروى أن المأمون أحضر يوما يزدانبخت الزنديق المشهور من الري بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون. فقال له المأمون: أسلم يا يزدانبخت! فلو لا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن. فقال له يزدانبخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم. فقال المأمون: أجل. وكان أنزله بناحية المحرم، ووكل له حفظة خوفا عليه من الغوغاء، وكان فصيحاً لسناء.³¹³

وعلى الرغم من كل هذا فثمة روايات تدل على مقاومة المأمون للزنادقة والشعبيين مقاومة مسلحة متشددة. وتذكر شدة المأمون في محاربة البابك وجيوشه التي ظلت سنوات كثيرة.³¹⁴

ويقال أنه بلغ المأمون يوماً خير عشرة من الزنادقة ممن يذهب إلى قول ماني، ويقول بالنور والظلمة، من أهل البصرة، فأمر بحملهم إليه. فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألمهم عن دينهم فيخبرونه بالإسلام فيمتحنهم بأن يظهر لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا عليها، ويأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرج. وقد أبوا ذلك فقتلهم.³¹⁵

³¹² سير أعلام النبلاء ج 11 ص 237.

³¹³ الفهرست ص 473.

³¹⁴ أنظر الأخبار الطوال ص 402.

³¹⁵ أنظر مروج الذهب ج 4 ص 9-10.

10) المكافحة الفكرية

وأما المكافحة الفكرية للزندقة والشعوبية فقد كانت بالحجج والبراهين. فقد وقف الفقهاء وأهل الحديث والمتكلمون موقف الكره من الزنادقة والشعوبيين والتنديد والوعظ والرد عليهم ودحض ادعاءاتهم. ولكن لأن هؤلاء الزنادقة يستندون في اعتقادهم وأقوالهم على تراثهم الفكري وفلسفاتهم القديمة فإن دور المتكلمين في هذا الاتجاه أضحي أبرز من البقية وأكثرها فعالية. وذلك لأجل اعتماد المتكلمين على مصادر الدين المحضة كما كان شأن بقية أطراف الفكر الإسلامي، ثم أضافوا إلى ذلك أسلحة جديدة نتيجة ترجمة كتب المنطق والفلسفات المقتبسة. وكثير من مسائل المتكلمين إنما هي في الأصل أجوبة أو ردود على ريب الزنادقة وجدلهم. وقد كون المتكلمون نوعاً من الجند المتطوعة للدفاع عن الدين بالفكر والمنطق والعقل في حلقات المساجد، كما يستدعون إلى مجالس الخلفاء للمناظرات أو يرسلون في ذلك إلى الآفاق.³¹⁶

ولما كان المعتزلة في جبهة علم الكلام والمتكلمين فإن إسهامهم في المكافحة الفكرية كان أكثر وأبرز من غيرهم. وقد تناسقت هذه التطورات مع مطامح المعتزلة الاجتماعية والسياسية بحيث تيسر لهم أن يمتنوا دورهم الفكري والاجتماعي والسياسي وينضحوه، وبالتالي الهيمنة على شؤون الدولة العامة وحكامها، وفرض آراء معينة، صارت أيسر. فسارعوا دون تردد إلى استغلال هذه الفرصة الذهبية. يقول محمد أبو زهرة في ذلك: "لقد كان وجود المعتزلة أمراً لا بد منه في العصر العباسي، لأنه وجد في هذا العصر زنادقة يعلنون آراء مفسدة للجماعة الإسلامية، ويتناجون بينهم بأمور هادمة للإسلام. ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الإسلامي... ولذلك جرد الخلفاء السيف للقضاء على الزنادقة

³¹⁶ أنظر دولة بني العباس ج2 ص212، وأيضاً مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص78.

وشجعوا العلماء الذين يرددون أقوالهم الهدامة. وقد تصدوا لأولئك المعتزلة (أكثر من غيرهم) ونزلوهم بالحجج الدامغة. فقرهم الخلفاء منهم وأدنوا مجالسهم، وفتحوا لهم أبواب قصورهم... وكان منهم الوزراء³¹⁷ والحجاب والكتاب. بل كان المأمون يعد نفسه منهم، فكان يلحن بحججهم ويناقش على ضوء أصولهم. وبذلك كان لهم في عهده النفوذ العلمي والادارة والسلطان".³¹⁸

وإن المكافحة الفكرية اتخذت شكلين: عمل الأفراد والمذاهب دون تشجيع وعون السلطة. وعمل الأفراد والمذاهب بتشجيع وعون السلطة.

أما أعمال العلماء دون حث السلطة وتشجيعها فنرى مثلاً واصل بن عطاء الذي ألف كتاب "ألف مسألة في الرد على المانوية". ويقال أنه فرغ من الرد على مخالفيه وهو ابن ثلاثين سنة³¹⁹.³²⁰ ويقال عن أبي الهذيل محمد بن الهذيل أنه كان يناظر الجوس والثنوية وغيرهم. ومناظراته طويلة وكثيرة. وكان يقطع الخصم بأقل كلام. ويقال أنه أسلم على يده زيادة على ثلاثة آلاف رجل.³²¹ وناظر صالح بن عبد القدوس الشاعر الزنديق لما قال في العالم أنه من أصلين قديمين: نور وظلمة، كانا متباينين فامتزجا. فقال أبو الهذيل: فامتزجهما هو هما أم غيرهما؟ قال: بل أقول هو هما، فألزمه أن يكونا ممتزجين متباينين إذا لم يكن هناك معنى غيرهما ولم يرجع ذلك إلا إليهما. فانقطع وأنشأ يقول:

³¹⁷ لا شك أن الإمام أبو زهرة يقصد هنا ابن أبي دؤاد الوزير المعتزلي. (أنظر بنسالم حميش: التشكلات الأيديولوجية في الإسلام ص60، دار المنتخب العربي، بيروت، 1993م) وستأتي ترجمة ابن أبي دؤاد قريباً.

³¹⁸ محمد أبو زهرة: ابن حنبل: حياته وعصره آراءه وفقهه ص113، دار الفكر العربي، دون سنة الطبعة.

³¹⁹ بجانب الكتاب المذكور فقد ألف واصل بن عطاء "أصناف المرحنة" و "الخطب في التوحيد والعدل" و "المزلة بين الملوتين" و "معاني القرآن" و "طبقات أهل العلم والجهل" و "التوبة" و "السبيل إلى معرفة الحق" و كتابا في الدعوة. (وفيات الأعيان ج6 ص11، تاريخ الإسلام ج8 ص559)

³²⁰ طبقات المعتزلة ص35، والنية والأمل في شرح الملل والنحل ص134.

³²¹ طبقات المعتزلة ص44، فضل الاعتزال ص255.

وروي أنه ناظره مرة وقطعه فقال: على أي شيء تعزم يا صالح؟ قال: أستخير الله وأقول بالاثنتين. فقال أبو الهذيل: فأيهما استخرت الله لا أم لك؟³²²

ولأي الهذيل ستون كتابا في الرد على المخالفين في دقيق الكلام وجليله^{323 324}.

وقد ألف علي بن وارد، أحد علماء القرآن في خراسان، "كتاب النظائر في القرآن".
وذلك بعد ما قطع طبيبا نصرانيا لدى الخليفة الرشيد.³²⁵

ويقال أن أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام (ت231هـ/845م)³²⁶ كان لا يكتب ولا يقرأ وقد حفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها. وذكر يوما جعفر بن يحيى البرمكي ارسطاطاليس فقال النظام: قد نقضت عليه كتابه. فقال جعفر: كيف وأنت لا تحسن أن تقرأ؟ فقال: إنما أحب إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله؟ ثم اندفع يذكر شيئا فشيئا وينقض عليه، فتعجب منه جعفر.³²⁷

³²² طبقات المعتزلة ص46-47، فضل الاعتزال ص258.

³²³ إننا استطعنا فقط أن نعر على اسم كتاب واحد: "ميلاس"، وهو كتاب على اسم بحوسي أسلم علي يده. (وفيات الأعيان ج4 ص265، الأعلام ج7 ص131)

³²⁴ طبقات المعتزلة ص46.

³²⁵ عيون المناظرات ص208.

³²⁶ من أئمة المعتزلة. تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين. وانفرد بآرائه الخاصة من حيث نشأت فرقة من المعتزلة سميت "النظامية"، وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة. (تاريخ بغداد ج6 ص97، الفرق بين الفرق ص79)

³²⁷ طبقات المعتزلة ص50، المنية والأمل في شرح الملل والنحل ص153.

ولجعفر بن محمد الصادق كتب في الرد على القدرية والخوارج ورسائل في الرد على الغلاة من الروافض.³²⁸ وللإمام أبو حنيفة كتاب في الرد على القدرية سماه "الفقه الأكبر".³²⁹ وللإمام مالك كتاب في الرد على القدرية.³³⁰ وللإمام الشافعي كتابان الأول في الرد على البراهمة والثاني في الرد على أهل الأهواء. وذكر طرفاً من هذا النوع في كتاب القياس وأشار فيه إلى رجوعه عن قبول شهادة المعتزلة وأهل الأهواء.³³¹ وللإمام أحمد بن حنبل كتاب في الرد على الزنادقة والجهمية، ألفه في أيام المأمون.³³² ولهشام بن الحكم الشيباني (ت 190هـ/805م)³³³ كتاب في الرد على الزنادقة.³³⁴ ولإسماعيل بن حماد (ت 212هـ/827م)³³⁵ كتاب في الرد على القدرية.³³⁶

وأما مشاركة الحكام العباسيين في المكافحة الفكرية وتشجيعهم لهذا الضرب من المقاومة فقد تمسوا في ذلك تمسوا عظيماً وحضوا العلماء، وخاصة المتكلمين وبصفة أخص المعتزلة، على الاشتغال بها. وكأنه لم يكن مناص من ذلك، ووعى الحكام وعياً تاماً أنه لا بد من المقاومة العامة الشاملة لأن الزندقة والشعبية كانتا تتخذان كل الصور وتستخدمان كل المطايا وكانتا تتداولان على كل مستويات الحياة. وعن صفة الشمولية في هذا الصدد نورد رواية، حيث يروى أن ملك الروم كتب إلى أبي جعفر المنصور يسأله عن أشياء ويسأله عن لا إله إلا الله أم خالقة؟ فكتب إليه المنصور: كتبت إلي تسألني عن لا إله إلا الله

³²⁸ كمال الدين أحمد البياضي الحنفي: إشارات المرام من عبارات الإمام ص 34، تحقيق يوسف عبد الرزاق، مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 1949م.

³²⁹ الدكتور حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة ج 5 ص 313، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.

³³⁰ ترتيب المدارك وتقريب المسالك ج 1 ص 204.

³³¹ إشارات المرام من عبارات الإمام ص 37، من العقيدة إلى الثورة ج 5 ص 313.

³³² أنظر إشارات المرام من عبارات الإمام ص 37، دولة بني العباس ج 2 ص 213.

³³³ متكلم مناظر. كان من شيوخ الإمامية في وقته. (الأعلام ج 8 ص 85)

³³⁴ الأعلام ج 8 ص 85.

³³⁵ فقيه حنفي، من القضاة العلماء المشهورين. (الأعلام ج 1 ص 313)

³³⁶ الأعلام ج 1 ص 313.

أخالقة أم مخلوقة؟ وليست خالقة ولا مخلوقة ولكنها كلام الله عز وجل.³³⁷ فالجدل قد جرى حتى على مستوى رؤساء الدول: رئيس، أي خليفة الدولة الإسلامية وملك الروم، أي رئيس الدولة المسيحية.

وأما الخليفة الأول للعهد العباسي الأول وهو أبو العباس فيذكر في هذا الصدد أنه أتى برجل ثنوي على مذهب المجوس فجمع له العلماء وقال: بما ترون؟ قالوا: السيف يا أمير المؤمنين! فقال: نعم السيف ولكن بعد إقامة الحجة عليه.³³⁸

وأما الخليفة المنصور فلا توجد روايات كثيفة في هذا الاتجاه غير اهتماماته بترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية في شتى المجالات.³³⁹ وثمة أيضا رواية تذكر أن المنصور طلب من ابن أبي ليلى أن يناظر ويستتيب قائلًا بخلق القرآن، فإن لم يرجع فالقتل مصيره.³⁴⁰

وقد عاصر المنصور عمرو بن عبيد أحد رواد مذهب الاعتزال وزعمائهم يومئذ. وقد اشتهر عمرو بمواقفه المحايدة تجاه الدولة العباسية وحكامها، وكان دائما يوجه إليهم نصائح ومواعظ دينية مخلصة ولا سيما للمنصور. وكان المنصور يتمنى أن يصون هذا الوضع، وذلك بعد إدراكه أنه لا يستطيع أن يكسب مساندته لسياسته. ودخل عمرو بن عبيد يوما على المنصور وبعد ما وعظه ونصحه بكى المنصور وتوجع واستغفر ربه، وعرض على عمرو معونته فأبى. وخرج من حضرته فلقبه أبو أيوب فقال: يا أبا عثمان أظنك قد ردعت هذا الرجل؟ فقال: نعم، وقد حضضته على أهل الكوفة وأهل البصرة، فإن استطعت أن تعينه بخير فافعل، وكفى بأمة شرا أن تكون أنت المدبر لأمرها.³⁴¹

³³⁷ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 245.

³³⁸ عيون المناظرات ص 206.

³³⁹ أنظر تاريخ الخلفاء ص 269.

³⁴⁰ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 264.

³⁴¹ كتاب الوزراء والكتاب ص 83.

وقد كان المنصور يحترمه احتراما شديدا وأسرف في ذلك. وكانت شدة الاحترام هذه نتيجة خوف المنصور منه ومن مكانته الاجتماعية والفكرية. وقد خاف أن يتذمر من الدولة العباسية ويخرج عليها وعلى حكامها ما دام لا يقبل أن يؤيدها. قال ابن المرتضي: وكان المنصور العباسي يبالي في تعظيم عمرو بن عبيد حتى قيل له: إن عمرا خارج عليك. فقال هو يرى أن يخرج علي إذا وجد ثلاث مائة وبضع عشرة مثله، وذلك لا يكون. ومر بقربه يوما في مروان فصلى عليه ودعا له وقال:

قبرا مررت به على مروان	صلى الإله عليك من متوسد
عبد الإله ودان بالقرآن	قبرا تضمن مؤمنا متخشعا
فصل الحديث بحجة وبيان	وإذا الرجال تنازعوا في شبهة
أبقى لنا عمرا أبا عثمان. ³⁴²	ولو أن هذا الدهر أبقى صالحا

وقال ابن كثير: "وقد كان عمرو بن عبيد مكرما ومعززا عند المنصور. وكان المنصور يحبه ويعظمه لأنه كان يفد على المنصور مع القراء فيعطيههم المنصور فيأخذون ولا يأخذ عمرو منه شيئا. وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه فلا يقبل منه. فكان ذلك مما يغر المنصور ويروج به عليه حاله، لأن المنصور كان بخيلا وكان يعجبه ذلك منه وينشد:

كلكم يمشي رويدا . كلكم يطلب صيدا . غير عمرو بن عبيد".³⁴³

وبالنسبة للخليفة المهدي فقد امتازت فترة حكمه بمجديته في ملاحقة الزنادقة والشعوبيين والبحث عنهم في الآفاق ثم إعدامهم. فقد جند كل ما استطاع على مستوى الدولة لتنفيذ

³⁴² النية والأمل في شرح الملل والنحل ص 146-147، طبقات المعتزلة 40-41.

³⁴³ البداية والنهاية ج 10 ص 82.

هذا المشروع. وبجانب الجيوش ورجال الحكم الذين تولوا شطر تلك العملية فإنه جند كذلك العلماء، وخاصة المتكلمين، وحرصهم على ترجمة كتب المنطق والفلسفات القديمة، وأن يتسلحوا بذات الأسلحة التي تسلح بها العدو، وأن يقوموا بالدفاع عن الدين وعقيدته دفاعاً فكرياً وثقافياً. وذلك من خلال المناظرات والمحاجات ووضع الكتب، حجة ضد حجة، ودليلاً ضد دليل. وقال السعودي في ذلك: "وأمن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقادهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان، ومرقبون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره. وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية. وما صنّفه في ذلك ابن أبي العرجاء وحمام عجرد ويحيى بن زياد (ت 160هـ/776م)³⁴⁴ ومطيع ابن إياس من تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقيونية. فكثرت بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس. وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين... وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبه الملحدين، فأوضحوا الحق للشاكين..."³⁴⁵

وقال ابن المرتضي عن المهدي: "كان عارفاً شجاعاً، وكان يقول لشبيب بن شبة: يا أبا معن حدثنا وزين مجلسنا بحديث عمرو بن عبيد. وكانت الزنادقة كثرت حتى ظهر أمرهم فتبعهم المهدي فقتل بعضهم وحبس بعضهم وشردهم"³⁴⁶.

وأما الخليفة الرشيد فيروى أنه أيضاً كان يبحث ويشجع العلماء على مناظرة الزنادقة والملحدين والحوار معهم. وكان ذلك بمثابة إحدى وسائل الدعوة ومقاومة أفكارهم الضالة. فروي أنه كان له علاج طيب، له فطنة وأدب. فود الرشيد أن لو أسلم فقال له يوماً: ما يمنعك عن الإسلام؟ فقال: آية في كتابكم حجة على ما أنتحلّه. قال: وما هي؟ قال: قوله

³⁴⁴ شاعر ماحن، يرمى بالزندقة. من أهل الكوفة. له في السفاح والمهدي مدائح. وهو ابن خال السفاح. أقام ببغداد مدة ولم يبعد زمانه فيها فخرج عنها. توفي في أيام المهدي. (تاريخ بغداد ج 14 ص 106)

³⁴⁵ مروج الذهب ج 4 ص 315.

³⁴⁶ طبقات المعتزلة ص 122.

تعالى عن عيسى عليه السلام (روح منه) وهو الذي نحن عليه. فعظم ذلك على الرشيد وجمع له العلماء فلم يحضرهم جواب ذلك حتى ورد قوم من خراسان فيهم علي بن وافد من أهل علم القرآن. فأخبره الرشيد بالمسألة فاستعجم عليه الجواب ثم خلا بنفسه وقال: ما أجد المطلوب إلا في كتاب الله. فابتدأ القرآن من أوله وقرأ حتى بلغ سورة الجاثية إلى قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} ³⁴⁷ فخرج إلى الرشيد وأحضر العلاج فقرأها عليه وقال له: إن كان (وروح منه) يوجب أن يكون عيسى بعضاً منه تعالى وجب ذلك في السماوات والأرض. فانقطع النصراي ولم يجد جواباً. فأسلم وسر الرشيد بذلك وأجزل صلة ابن وافد. فلما رجع ابن وافد إلى بلده صنف كتاب النظائر في القرآن. ³⁴⁸

ولكن يغلب القول أن هارون الرشيد منع الجدل والاشتغال بعلم الكلام في فترة زمنية معينة فشرّد وحبس المتكلمين. ³⁴⁹ وقد ذكر عبد الواحد بن محمد أن العتابي (ت 220هـ/835م) ³⁵⁰ كان يقول بالاعتزال فاتصل ذلك بالرشيد، وكثر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر عظيم فهرب إلى اليمن. ³⁵¹ ويروى أن الرشيد سمع أن أبا سهل بشر بن المعتمر الهلالي رئيس المعتزلة ببغداد رافضي فحبسه. ³⁵²

³⁴⁷ سورة الجاثية 45.

³⁴⁸ عيون المناظرات ص 207-208.

³⁴⁹ طبقات المعتزلة ص 56.

³⁵⁰ هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي، كاتب، حسن الترسيل، وشاعر مجيد يسلك طريقة النابغة. هو من أهل الشام وسكن بغداد. مدح هارون الرشيد والآخرين. رمي بالزندقة فطلبه الرشيد فهرب إلى اليمن، فسعى الفضل بن يحيى اليرمكي بأخذ الأمان له من الرشيد فأمنه، وعاد، فاحتصن بالبرامكة. ثم صحب طاهر بن الحسين. صنف كتباً منها "فنون الحكم" و "الأداب" و "الحيل" و "الأحواد" و "الألفاظ".

(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج 6 ص 212، تاريخ بغداد ج 12 ص 488، وفيات الأعيان ج 4 ص 122)

³⁵¹ كتاب الوزراء والكتاب ص 184.

³⁵² اللبنة والأمل في شرح الملل والنحل ص 153.

ونتساءل ههنا لماذا نهي الرشيد عن الكلام والمتكلمين؟ والذي يظهر أن الرشيد احترام المتكلمين وقدر مساهماتهم في الدفاع عن الدين. ولكن المتكلمين وخاصة من كان في جبهتهم من المعتزلة تجاوزوا هذا الحد، ف بجانب الدفاع عن الدين وعقيدته أخذ المعتزلة أن يفرضوا بعض آرائهم على بقية العلماء المسلمين المخالفين لهم. وفي ذلك استغلوا نفوذهم الاجتماعي والفكري ومكانتهم لدى الحكام. فهذا ثمامة بن أشرث المعتزلي الذي اتصل بالحكام وخدمهم ليحصل بذلك على تأييدهم وتأييد الناس في ترويج مذهبه. ومن الحكام الذين اتصل بهم هذا المعتزلي الرشيد والمأمون.³⁵³

وقد أدى هذا الوضع إلى الجدل أو التخاصم والتنازع الداخلي أي داخل إطار الفكر الإسلامي بحيث استطاع أن يؤثر فيه تأثيرا سلبيا وأدى إلى التشتت الواسع وأزال أدب الاختلاف الذي كان يمارسه العلماء المسلمون يومئذ. وما هو أشد من كل ذلك أنه استطاع أن يثير العداوة والبغضاء والكرهية فيما بين العلماء المسلمين وذلك حرام باتفاق الجميع. وبهذا حول المعتزلة اتجاه علم الكلام من الدفاع عن عقيدة الدين إلى النضال الداخلي. ولأجل ذلك أخذت تتلوث سمعتهم سمعة علم الكلام.³⁵⁴

ولتوضيح هذا النضال الداخلي نورد بعض الأمثلة من تاريخ الفكر الإسلامي.

فقد قدم الشافعي بغداد مرتين سنة 175هـ/791م وسنة 178هـ/794م، وناظر بشرا المريسي المعتزلي بها، وناظر حفصا الفرد بمصر. قال حفص: القرآن مخلوق واستدل. فتجاريا حتى كفره الشافعي وقال: إنما خلق الله الخلق بكن فإذا كانت كن مخلوقة فكان مخلوقا خلق بمخلوق.³⁵⁵

³⁵³ طبقات المعتزلة ص 64 و 67.

³⁵⁴ أنظر الدكتور علي شلق: العقل الفلسفي في الإسلام ص 57، دار المدى، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م، وأيضا بستان العارفين

ص 10.

³⁵⁵ أنظر تاريخ ابن الوردي ج 1 ص 293، والمختصر في أخبار البشر ج 2 ص 26.

ويروى أن بعض المجبرة قالوا لأصحاب بشر بن المعتز المعتزلي: أنتم تحمدون الله على إيمانكم؟ فقالوا: نعم. فقال المجبر: فكأنه يجب أن يحمد على ما لم يفعل وقد ذم ذلك في كتابه. فأقبل ثامة فقال: هؤلاء أجابوك وهذا أبو مضر فاسأله فسأله فقال: لا، بل يحمدني على الإيمان لأنه أمرني به ففعلته وأنا أحمدده على الأمر والتقوية عليه. فانقطع المجبر، فقال بشر: شنت المسألة فسهلت.³⁵⁶

وقد ألف أبو يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام (ت280هـ/893م)³⁵⁷ رئيس المعتزلة في البصرة في وقته كتباً في الرد على من يخالفه من غير المعتزلة، وكذلك من يخالفه من بقية أصحابه من المعتزلة.³⁵⁸ وكذلك شأن أبي الهذيل محمد بن الهذيل.³⁵⁹

ولأجل تحويل المعتزلة لرسالة الكلام صار الكلام والمتكلمون يعالجون أحياناً مسائل لا معنى ولا قيمة لها في واقع الحياة. وقد اتسمت مناقشاتهم بالتطويل والتعمق والتعقيد وتكلف ما لا يجب وإضاعة ما يجب.³⁶⁰

ومن هنا بدأت تصدر أقوال المعارضة للجدل وأصحابه من قبل القيادة الفكرية الدينية وغيرها. فقال الشافعي يوم ناظر حفصاً الفرد الذي كان من متكلمي المعتزلة: لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام. ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه. وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على

³⁵⁶ طبقات المعتزلة ص53، المنية والأمل في شرح الملل والنحل ص153.

³⁵⁷ مفسر معتزلي من أهل البصرة. انتهت إليه رئاسة المعتزلة بها في أيامه. كان من أحذق الناس بالجدل. ولي الخراج في أيام الواثق. من أشهر كتبه "تفسير القرآن". (الأعلام ج8 ص239)

³⁵⁸ طبقات المعتزلة ص71.

³⁵⁹ نفس المرجع ص44.

³⁶⁰ هكذا وصف الجاحظ في رسائله أكثر المتكلمين، ج3 ص285، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى،

1991م.

شيء ما ظننته قط. ولأن يبتلى العبد بكل ما هوى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام. وقال أيضا: حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ بالكلام.³⁶¹

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدا. وقال أيضا: علماء الكلام زنادقة.³⁶² وقد شابه هذا القول قول أبي يوسف إذ قال: من طلب العلم بالكلام تزندق. وقال أيضا: لا تطلب الدين بالخصومات فإنه لم يعن فيه أحد إلا قيل زنديق.³⁶³ وكذلك منع الاشتغال بعلم الكلام بالصورة التي ذكرناها أنفا الإمام مالك بن أنس وقال أنه لا تجوز شهادة أولئك المتكلمين.³⁶⁴

وحجة هؤلاء العلماء الرئيسية أنه لو كان الكلام من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه. فقد علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه الاستنجاء وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال: أمسكوا عن القدر. وعلى هذا استمر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم. وهم الأساتذة ونحن الأتباع والتلامذة.³⁶⁵

وأما الفرقة المجيزة للكلام والاشتغال به فحجتهم الرئيسية كما يلي: إن المخذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها

³⁶¹ أنظر عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري المروزي: ذم الكلام ص247، تحقيق الدكتور سميح دغيم، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994م، وأبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام ج2 ص496، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992م، إحياء علوم الدين ج1 ص95.

³⁶² الاعتصام ج2 ص496، إحياء علوم الدين ج1 ص95.

³⁶³ أبو القاسم إسماعيل بن الفضل التيمي الأصهباني: الحجة في بيان المحجة في شرح عقيدة أهل السنة ص105، تحقيق محمد بن ربيع بن هادي، دار الراجدة، الرياض، 1990م.

³⁶⁴ إحياء علوم الدين ج1 ص95.

³⁶⁵ نفس المراجع ج1 ص95.

الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فالأمر فيه قريب، إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كمثل في سائر العلوم مثل التفسير والحديث والفقه... فيأحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح. وإن كان المخدور هو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحداية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع. وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى {قل هاتوا برهانكم}³⁶⁶ و{قل فله الحجة البالغة}³⁶⁷ و{ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه...}³⁶⁸ و{وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه}³⁶⁹ و{قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا}³⁷⁰ وإلى غير ذلك من الآيات الكريمة. وكان النبي نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم وكذا أصحابه رضوان الله تعالى عليهم يحاجون المنكرين ويجادلون عند الحاجة، وكانت الحاجة إليه قليلة وقتئذ...³⁷¹

ويبدو أن الرشيد قد انفعّل بالطرف الذي نحى عن الكلام والجدل. وليس من المستبعد أن لقاضي القضاة أبي يوسف دورا في ذلك. كما نعتقد أن الرشيد لم يمنع كافة أضراب الجدل بل منع الجدل الذي كان يتضمن جذور الفتنة والعداوة بين المسلمين. أو بصيغة أخرى لم يرض بمن أفرط في الجدل لحد أنه أصبح هو نفسه على شفا حفرة من الكفر والإلحاد. وتذكر ههنا معاملات الرشيد مع العتابي وبشر بن المعتمر وبشر المريسي وغيرهم، والتي كلها كانت من هذا القبيل.

³⁶⁶ سورة البقرة 111، سورة الأنبياء 24، سورة النمل 64.

³⁶⁷ سورة الأنعام 149.

³⁶⁸ سورة البقرة 258.

³⁶⁹ سورة الأنعام 83.

³⁷⁰ سورة هود 32.

³⁷¹ إحياء علوم الدين ج 1 ص 95-96، أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد ص 8، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

وحكي أنه اجتمع عند الرشيد يوما رجلان من المتكلمين فتكلما في مسألة فقال لبعض الفقهاء: احكم بينهما. فقال: هذا أمر لا يعنيني وأنا لا أحكم في أمر لا يعنيني. فأمر له بصلة وقال: هذا جزء من لا يشتغل بما لا يعنيه. وحكي أيضا أنه اجتمع عنده رجلان يتكلمان في مسألة من الكلام فبعث بهما إلى الكسائي لينظر ما بينهما. فلما دخلا عليه وتكلما وبلغا إلى موضع لا يعرفه قال: هما زنديقان يقتلان.³⁷²

ومهما كان من الأمر فقد ظلت الحاجة إلى علم الكلام والمتكلمين وما استطاع هؤلاء أن يقدموه في ميدان الدفاع عن الدين وعقيدته ضد الهجمات والتهم الداخلية والخارجية. ويروى في طبقات المعتزلة أنه لما منع الرشيد الجدال في الدين وحبس أهل علم الكلام كتب إليه ملك السند³⁷³ يريد عالما مسلما لينظرهم. فأرسل الرشيد قاضيا. فلما جاء القاضي أكرمه الملك ورفع مجلسه ثم سأله عن الله تعالى أقادر هو. فأجاب القاضي: نعم. قال: أفهو قادر أن يخلق مثله؟ فأجاب القاضي: هذه المسألة من علم الكلام وهو بدعة وأصحابنا ينكرونها. ثم أمر الملك القاضي بالانصراف، فكتب للرشيد يستهزأ به في خطابه، من قاضيه ومن دينه الإسلام. فضاق صدر الرشيد فقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟ فقليل له: بلى يا أمير المؤمنين هم الذين نحيثهم عن الجدال في الدين وجماعة منهم في الحبس. فأحضر الرشيد هؤلاء فوقع الاختيار على معمر أن يذهب. فلما قرب من السند بلغ ذلك السمني، وهو الذي حث ملك السند على هذا الشكل من المراسلة مع الرشيد، فخاف خوفا شديدا أن يفتضح على يديه، وقد كان يعرفه من قبل، فلدس من سمه في الطريق فقتله.³⁷⁴

وتوجد رواية أخرى مشابة تماما للرواية السابقة. إلا أن فيها أن ملك الهند طلب من الخليفة الرشيد أن يرسل له عالما مسلما ليعلمهم الإسلام وينظرهم في بعض المسائل. فأرسل

³⁷² طبقات المعتزلة ص 56.

³⁷³ السند: إقليم صحراوي في جنوب شرقي باكستان. (معجم البلدان ج 3 ص 267، زكريا بن محمد بن عمود القزويني: آثار البلاد

وأخبار العباد ص 94، دار صادر، بيروت، دون سنة الطبعة)

³⁷⁴ طبقات المعتزلة ص 54-56، والمبىة والأمل في شرح الملل والنحل ص 155-156.

الرشيد محدثا ففشل، بل افتضح على يد الملك. ثم أرسل متكلما، فلما كان في بعض الطريق وجه الملك الهندي إليه من يختبره. فوجده متكلما، فدس إليه سما فقتله قبل أن يصل إلى الملك.³⁷⁵

إننا نجد هاتين الروائيتين غريبتين جدا. ويبدو أن المعتزلة قد وضعوهما، أو على الأقل حرفوهما، ليسوغوا الاشتغال بعلم الكلام، وفي نفس الوقت يزينوا ويروجوا مكانة المعتزلة ودورهم في الدولة الإسلامية وبصفة خاصة لدى حكامها. وهما تعبران بكل وضوح عن تنازعهم وتخاصمهم المر والشرس مع علماء أهل السنة والجماعة، والذي اصطبغ في بعض الأوقات بصبغة الاستهزاء والاستهانة والكراهية وقلة الأدب في الاختلاف. إن هاتين الروائيتين واردتان فقط في كتب المعتزلة في حين أن الكتب التاريخية الأخرى وكتب المناقب والرجال الموثوقة لا تذكر شيئا عن هذين الحداث مما يزيد في بواعث شكنا في صحتها. وقد ذكرناهما فقط لنقدم صورة واضحة عن طبيعة التخاصم المتزايد بين المعتزلة وعلماء أهل السنة والجماعة، وكيف كان علم الكلام والمعتزلة يصيرون واقعا يوميا وجزءا جوهريا من تطورات الحياة العامة في الدولة الإسلامية، ولا سيما في مجالات الحياة الفكرية والسياسية. وأيضا بهذا يتبين لنا بعض أساليب ومناهج المعتزلة، ثم بعد ذلك تحمسهم وإصرارهم على فرض أنفسهم وآرائهم على الحكام وعلى عامة الناس و جذب عواطفهم.

ولما جاء المأمون صار عهده عهد الجدل والكلام وحرية المتكلمين المطلقة، ومن ثم اتسعت دائرة حرية المعتزلة بحيث سيمتد اتساع دائرة نفوذهم على كل مراتب الدولة الإسلامية. ولذلك ينسب الشهرستاني نشأة علم الكلام نشأة حقيقية كفن مستقل من فنون الفكر الإسلامي إلى الخليفة المأمون وزمان حكمه وعلى يد علماء المعتزلة إذ قال: "ثم طالع

³⁷⁵ طبقات المعتزلة ص 58-59، والمنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 157-158.

بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فنا من فنون العلم وسميتها باسم الكلام".³⁷⁶

ويعود هذا الانقلاب في ميدان علم الكلام والمتكلمين وخاصة المعتزلة إلى أمرين: الأول: طبيعة الأحداث التي كانت تتطور بتوالي الأجيال من الحكام والعلماء على حد السواء. فقد أغدى الجدل و علم الكلام واقعا إسلاميا لا ينفي، والمعتزلة على قيادته بطبيعة الحال لا ينفي دورهم ومكانتهم في الدولة. كما لا تنفي مساهمة المعتزلة في الدفاع عن الدين، والحاجة إلى الدفاع والمقاومة لم تزل بل أكاد أقول صارت أكبر. هذا بالإضافة إلى بعض العناصر السياسية الجديدة التي ظهرت بظهور المأمون وبرامجه السياسية، والتي أسهمت في خلق بيئة استطاعت أن تندمج وتلتحم فيها مطامع كل من المأمون والمعتزلة، الدينية والسياسية والاجتماعية. والثاني: شخصية المأمون وفطرته وقابليته لدراسة العلوم والحوار والمناظرة والحاجة. ويعزى له القول بأن: "غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة. لأن غلبة الحجة لا تزول وغلبة القدرة تزول بزوالها".³⁷⁷ وقد تبهر المأمون في الفقه والكلام والفلسفة والتاريخ واللغة العربية والمنطق وغيرها. وقد ألف كتباً كثيرة منها: كتاب الرد على المانوية، وكتابه الآخر: الرد على اليهود والنصارى.³⁷⁸ ويقال أنه كان من أنطق الناس في زمانه.³⁷⁹

قال ابن المرتضي أن مجالس المأمون كانت بمثابة مجمع للعلماء وتجري فيها المناظرات المختلفة. وروي أنه لما بلغه أن الملحدة يزعمون أن أهل الإسلام قهروا بالسيف لا بالحجة، فوقع الحرج عليه فجمع من كل فرقة في حضرته جماعة وأمر متكلمي الإسلام بمناظرتهم. ولهذا أمر أن يحمل إليه يزدانبحث إلى بغداد فتبين للقوم أن الحجة لأهل الإسلام.³⁸⁰

³⁷⁶ الملل والنحل ج 1 ص 29.

³⁷⁷ تاريخ الإسلام ج 15 ص 238.

³⁷⁸ طبقات المعتزلة ص 123.

³⁷⁹ البيان والتبيين ج 1 ص 115.

³⁸⁰ طبقات المعتزلة ص 123.

وبجانب تشجيع العلماء على الرد على الزنادقة والشعوبيين والملحدين ومناظرهم ومحاقتهم ووضع الكتب، فقد ناظر المأمون هؤلاء بنفسه في حالات كثيرة جدا. فنقرأ في كتب التاريخ أنه ناظر مرة ثنويا وأسكته وأعجزه.³⁸¹ وناظر أيضا الزنادقة من المانوية.³⁸² وناظر رجلا يدعي أنه إبراهيم الخليل، أي إبراهيم عليه السلام، ورجلا يدعي النبوة.³⁸³ وكذلك ناظر الفقهاء وبعض الخوارج³⁸⁴ والعلويين.³⁸⁵

وقد تعاضم شأن العلماء لدى المأمون فكانوا يجالسونه ويواكبونه في وقائع وحفلات رسمية وشخصية كثيرة. وكان يشجعهم على المناظرات والمناقشات بحضوره، وذلك فيما بينهم، وفي بعض الأوقات بينهم وبين الزنادقة والملحدين. وذكر أنه لما أظهر بشر المريسي القول بخلق القرآن ناظره عبد العزيز بن يحيى المكي (ت240هـ/854م)³⁸⁶ بين يدي المأمون، فقطعه ودحض كل حججه وقال للمأمون: قد كسرت قول بشر وبطل ما ادعاه وما يدعوه الناس إليه من بدعته وبان قبح مذهبه. فقال المأمون: قد وضحت حجتك وبان حقك ودحضت حجة بشر.³⁸⁷

ويروى أيضا أن المأمون جمع بين العتابي وابن فروة النصراني وطلب منهما أن يتناظرا في عيسى بن مريم وأن يوجزا.³⁸⁸

³⁸¹ عيون المناظرات ص212-213.

³⁸² مروج الذهب ج4 ص10.

³⁸³ نفس المراجع ج4 ص24-25.

³⁸⁴ نفس المراجع ج4 ص19-20.

³⁸⁵ العقد الفريد ج5 ص102.

³⁸⁶ فقيه مناظر، كان من تلاميذ الإمام الشافعي. قدم بغداد في أيام المأمون. له تصانيف عديدة منها "الحيدة" ورسالة في مناظرة بشر

المريسي. (تاريخ بغداد ج17 ص256)

³⁸⁷ عيون المناظرات ص208-211، وشرح الطحاوية في العقيدة السلفية ج1 ص211، وابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح العقول

ج2 ص8، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.

³⁸⁸ عيون المناظرات ص213.

وأحضر المأمون يوما يزدانبحث الزنديق من الري بعد أن أمنه فأمر المتكلمين أن يحتاجوه
ويناظروه فقطعوه فقال له المأمون: أسلم يا يزدانبحث! فلو لا ما أعطيناك إياه من الأمان
لكان لنا ولك شأن. فقال له يزدانبحث: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول،
ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم. فقال المأمون: أجل.³⁸⁹

وقد استعان المأمون يوما بأبي الهذيل المعتزلي في مناظرة زاذان بخت الثنوي فقطعه أبو
الهذيل.³⁹⁰

وبعدما اجتمعت كل هذه العناصر والمكونات في شخصية المأمون صار طبيعيا أن يبدأ في
الميل والانحياز إلى أفكار الاعتزال وأصحابها. وذلك لأنهم صاروا علامة علم الكلام والجدل
والدفاع عن العقيدة الإسلامية ورواد المنطق والفلسفة داخل إطار الفكر الإسلامي. كل
ذلك بالإضافة إلى استعداد المعتزلة غير المنقطع للدعوة إلى مذهبهم وفرض آرائهم سواء على
الحكام أو عامة الناس. وقد رأوا في شخصية المأمون ساحة ذهبية لا يمكن تفويتها ويجب
التسرع إلى استثمارها. والحقيقة التي لا شك فيها أن المعتزلة قد نجحوا في ذلك وتسלטوا
على طريقة وطبيعة فكر الخليفة المأمون، وتعلمذ على بعضهم،³⁹¹ فأظهر الخليفة مذهب
الاعتزال والقول بخلق القرآن في سنة 212هـ/827م.³⁹² ثم بعد ذلك حاول المأمون أن يفرض
أفكار المعتزلة ومناهج فكرهم على سائر العلماء ويجعل ذلك المذهب مذهباً رسمياً عقائدياً
للدولة. واستند في تلك الصنعة على القوة أكثر منها على الحجة. وبحسب الذهبي أن

³⁸⁹ الفهرست ص 473.

³⁹⁰ طبقات المعتزلة ص 74، والنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 166.

³⁹¹ وقد تعلمذ المأمون على أبي الهذيل أحد المعتزلة المشهورين بل أحد رؤسائهم وقتئذ. (أخبار الطوال ص 401)

³⁹² تاريخ ابن الوردي ج 1 ص 298، الفخري في الآداب السلطانية 216.

تصرفات المأمون العامة قد كانت من البواعث الرئيسية لتقوية المعتزلة واستفحال أفكارهم وآرائهم ثم انتشارها يومئذ.³⁹³

وعن نعوت الخليفة المأمون وميوله الفكرية يتكلم المسعودي في كتابه مروج الذهب، فقال أنه كان في بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها وينقاد إلى مرجحاتها، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان. واجتهد في قراءة الكتب القديمة وأمعن في درسها، وواظب على قراءتها، فافتن في فهمها، وبلغ درايته. فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرياستين³⁹⁴ ما اشتهر وقدم العراق انصرف عن ذلك كله، وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد، أي صار من المعتزلة. وجالس المتكلمين وقرب إليه كثيرا من الجدليين المبرزين والمناظرين كأبي الهذيل وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم. وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار، وأجرى عليهم الأرزاق. فرغب الناس في صنعة النظر، وتعلموا البحث والجدل. ووضع كل فريق منهم كتابا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله.³⁹⁵

ونستدل على زعمنا أن المعتزلة تسلطوا على المأمون ببعض الأحداث التي وقعت بين المأمون وبعض علماء المعتزلة. ومن خلال تلك الأحداث نستطيع أن نبلور حقيقة وطبيعة بعض الدوافع والجذور للعلاقات الحسنة بين الطرفين، والتي ستصبح في النهاية نقطة انقلاب داخلي للخليفة المأمون ليصير متبعا ومروجا وداعيا إلى أفكار المعتزلة. وعن اتصال ابن أبي دؤاد (ت240هـ/854م)³⁹⁶ بالمأمون يتحدث ابن أبي دؤاد نفسه بقوله: كنت أحضر مجلس

³⁹³ تاريخ الإسلام ج18 ص97.

³⁹⁴ إنما سمي الفضل بن سهل بهذا اللقب لأن الخليفة المأمون لما ولي الخلافة جعل له الوزارة وقيادة الجيش معا. ومعنى القول "ذو الرياستين" هو الحرب والسياسة. (تاريخ بغداد ج12 ص339، وفيات الأعيان ج4 ص41)

³⁹⁵ مروج الذهب ج4 ص318-319.

³⁹⁶ أحد القضاة المشهورين من المعتزلة ورأس فتنه القول بخلق القرآن. نشأ ونبع في دمشق ومنها رحل إلى العراق. هو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء، وكانوا لا يبدأهم أحد حتى يبدعوه. وكان عارفا بالأخبار والأنساب. وقال المأمون فيه: "إذا استحلست الناس فاضلا فمثل أحمد". وكان يقال: "أكرم من كان في دولة بني العباس البرامكة ثم ابن أبي دؤاد". وكان شديد الدهاء، محبا للحير. اتصل أولا بالمأمون، فلما قرب

القاضي يحيى بن أكنم مع الفقهاء. وجاء ذات يوم رسول المأمون فقال له: يقول لك أمير المؤمنين أن تنتقل إلينا وجميع من معك من أصحابك. فلم يحب يحيى أن أحضر معه ولم يستطع أن يؤخري. فحضرت مع القوم وتكلمنا بحضرة المأمون فأقبل المأمون ينظر إلي إذا شرعت في الكلام ويتفهم ما أقول ويستحسنه. ثم قال لي: من تكون؟ فانتسبت له. فقال: ما أحرك عنا؟ فكرهت أن أحيل على يحيى فقلت: حبسة القدر وبلوغ الكتاب أجله. فقال: لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم اتصل الأمر.³⁹⁷

وثمة رواية أخرى عن اتصال ابن أبي دؤاد بالمأمون. يقال أنه لما قدم يحيى من أكنم قاضيا على البصرة من خرسان من قبل المأمون اصطحب جماعة من أهل العلم منهم ابن أبي دؤاد. فلما قدم المأمون بغداد قال ليحيى: اختر لي من أصحابك جماعة يجالسوني ويكثرون الدخول إلي. فاختر منهم عشرين فيهم ابن أبي دؤاد. فكثروا على المأمون فقال: اختر منهم، فاختر عشرة فيهم ابن أبي دؤاد. ثم قال: اختر منهم، فاختر خمسة فيهم ابن أبي دؤاد، فاتصل أمره. وأسند المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم وقال فيها: وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك. ولا تتخذن بعدي وزيرا. فلما صار قاضيا في وقت المعتصم لم يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه. وهو الذي امتحن الإمام أحمد بن حنبل.³⁹⁸

ويقال عن هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي أنه إذا دخل على المأمون كان يتحرك المأمون حتى يكاد يقوم احتراماً له.³⁹⁹

موت أوصى به أخاه المعتصم فجعله قاضي القضاة، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلها. ولما مات المعتصم اعتمد الواثق على رأيه، ومات الواثق راضيا عنه. وتولى المتوكل ففعل ابن أبي دؤاد في أول خلافته سنة 233هـ/847م وتوفي مفلوجا ببغداد سنة 240هـ/854م. وقيل أنه حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن ولو لا ذلك لاحتضعت الألسنة عليه. (تاريخ بغداد ج4 ص141، وفيات الأعيان ج1

ص81، البداية والنهاية ج10 ص333)

³⁹⁷ وفيات الأعيان ج1 ص84.

³⁹⁸ نفس المرحع ج1 ص84.

³⁹⁹ طبقات المعتزلة ص61.

اعتقاداته كبديل لائق وفعال ونافع أكثر مما استطاع يحيى بن أكثم قاضي القضاة أن يقدمه للمأمون. وكأن ثمامة أراد أن يوجه اهتمام المأمون تجاه مصدر جديد أكثر خصيصا يستطيع الخليفة أن يستنبط منه في الحاضر وفي المستقبل حلولاً مناسبة للمشاكل الشخصية ولمشاكل الدولة بصفة عامة. وذلك المصدر بلا شك هو ثمامة بن الأشرس بالذات والعلماء مثله الذين كانوا يعيشون ويشتغلون تحت ظل مذهب الاعتزال. وتوجد حادثة أخرى تلقي الضوء أكثر على تفاقم العلاقات بين يحيى بن أكثم وثمامة بن الأشرس عند المأمون، أو بصيغة أخرى بين المعتزلة وغيرهم. ويروى أن ثمامة بن الأشرس قال يوما للخليفة المأمون: "أنا أبين لك القدر بحرفين وأزيد حرفا للضعيف. قال المأمون: من الضعيف؟ قال: يحيى بن أكثم. قال: هات! قال: لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه: إما كلها من الله ولا فعل لهم فلم يستحقوا ثوابا ولا عقابا ولا مدحا ولا ذما. أو تكون منهم ومن الله فوجب المدح والذم لهم جميعا. أو منهم فقط فكان لهم الثواب والعقاب والمدح والذم. قال: صدقت.⁴⁰³

وهكذا كافح حكام العهد العباسي الأول ازدهار واتساع الزندقة والشعبوية. وكانت من أكثر الوسائل المستخدمة وسيلة القوة ثم العلماء في المقاومة الفكرية والثقافية. ولأجل طبيعة حركتي الزندقة والشعبوية وطبيعة هجمائهما برز دور المتكلمين وتمنت سمعتهم، ومكانتهم ودورهم في المجتمع الإسلامي. ولما كانت المعتزلة في زعامة جبهة المتكلمين وعلم الكلام كان طبيعيا أن تتقوى صفوفهم ويستفحل نفوذهم الديني والسياسي والاجتماعي، كما تفاوتت الحكام في التعامل معهم. وكانت ذروة ترعرع وازدهار شأن المعتزلة في عهد المأمون الذي صار معتزليا وحاول أن يفرض الاعتزال مذهباً رسمياً عقائدياً في الدولة الإسلامية. وأدى هذا لا محالة إلى تفاقم العلاقات بين العلماء والحكام، ثم بين علماء أهل السنة والجماعة وعلماء المعتزلة. وذلك محور وجوه اهتمامنا في الفصل القادم والأخير بإذن الله تعالى. وقد سميت: "محنة خلق القرآن: عواملها ونتائجها". وقبل انتقالنا إلى الحديث عن

⁴⁰³ طبقات المعتزلة ص 62، المنية والأمل في شرح الملل والنحل ص 160.

محنة خلق القرآن أريد أن أقول أنه بظهور وترعرع الشعبية والزندقة في صعيد المجتمع الإسلامي، ثم بمكافحة الحكام العباسيين لهما، قد تبين لنا أمران هامان:

1. مدى وحقيقة الفصل بين القيادتين العلمية والسياسية،

2. نتائج هذا الداء السلبية للأمة الإسلامية.

الأمر الأول:

لقد ذكرنا في مقدمة هذا البحث أننا لا نقصد بالفصل بين العلماء والحكام فصلا تاما ومطلقا بين الطرفين، كلا، إنما نقصد به فصاما بين القيادتين العلمية والسياسية. وقد تعامل الحكام مع جملة من العلماء إلا أن أولئك العلماء لم يمثلوا القيادة الحقيقية للأمة الإسلامية. كما لم يندر أن يكون من تعامل من العلماء مع السلطة من غير صفوف علماء أهل السنة والجماعة. إن كل هذا كان دائما يجعل سد الفجوة بين الطرفين أمرا صعبا وتعقيدا. إن السلطة لم تكن دائما مخلصة في تصرفاتها وتعاملها مع العلماء مهما كانت خلفيتهم وتخصصاتهم، وكذلك كان الأمر للأسف مع عدد كبير من العلماء المتعاملين معها، فإنهم لم يعملوا دائما في خدمة العلم والدين، بل حاولوا كسب الجاه والشهرة وبقية الفوائد الدنيوية، وإن لم يكونوا من صفوف علماء أهل السنة والجماعة حاولوا فرض آرائهم على الحكام ثم على سائر الناس مقاومة آراء علماء أهل السنة والجماعة وانتشارها، كما كان يفعل المعتزلة على سبيل المثال.

إذن كانت العلاقات بين حكام العهد العباسي الأول والعلماء الذين قبلوا التعامل منسوجة غالبا بخيوط المصالح الشخصية أو الطائفية أو المذهبية إلا في بعض الحالات حيث تعامل العلماء مثل أبي يوسف والشيباني وغيرهما مع السلطة بغية إصلاحها، لأنهم اعترفوا

وذلك اجتهادهم بمشروعيتها ولم يعدوا في غيرها حينئذ سلطة للأمة الإسلامية. وذلك لأجل استيفاء بعض أو معظم شروط الخلافة فيهم، ثم لأن أطرافاً كثيرة من الأمة الإسلامية قد بايعت لها، ولأنه يجب الأخذ برأي الجماعة وهو أقرب إلى الصواب والحق وأبعد عن الضلال والباطل، ولأنه أدعى للسلامة والعافية وأنفى للاختلاف والفرقة، كما سبق أن تحدثنا بشكل مفصل في فصلنا "مواقف العلماء من الحكماء في العهد العباسي الأول". وفي هذه البيئة تنحط وتنكسر لا محالة بعض الجوانب الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية، كما تستنفد قدرات وطاقات وأوقات السلطة والعلماء في اتجاهات خاطئة، بل اتجاهات لا معنى لها من منظور ديني حضاري.

الأمر الثاني:

إن القيادتين العلمية والسياسية قاومتا الشعبية والزندقة، لكننا نلاحظ أن خطط وجهود العلماء والحكام لم تكن متحدة ومخططة ومتناسقة. وذلك بلا مرية لأجل الفصام بينهم وبين مصالحهم. ونحن من الزعم أنه لو كانت جهود واستراتيجيات القيادتين العلمية والسياسية متناسقة ومتناغمة لكانت نتائج المقاومة والمكافحة مرضية وفعالة أكثر. إننا نرى عدداً كبيراً من العلماء بل من قيادتهم يقاومون بالقلم واللسان الحركتين الشرستين مقاومة مستقلة ومنعزلة عن الحكماء وميدان محاربتهم إياهما. نعيد هنا فقط ذكر مساهمات الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما في هذا المجال. وفي ناحية مقابلة نرى الحكماء محتاجين إلى مساندة وتأييد العلماء ليواجهوا زحف أفكار ونظريات الشعبية والزندقة. ونذكر في استراتيجيات حكام العهد العباسي الأول أنهم في بداية الأمر لم يعتمدوا على المعتزلة، أو على الأقل لم يعتمدوا عليهم فقط. وكأنهم ظلوا يستميلون ويجذبون قيادات علماء أهل السنة والجماعة، وكان ذلك طبيعياً ومن باب أولى إذ كانوا يسوسون الأمة الإسلامية باسم الإسلام الصحيح ونشره في أرجاء الكرة الأرضية في مواجهة الانحرافات والضلالات الداخلية والخارجية. فلما تيقن الحكماء بصلاية مواقف القيادة العلمية وإصرارهم على رفض

التعامل صاروا عندئذ يميلون إلى علماء مذهب الاعتزال الذين كانت سمعتهم لأجل القدرة العلمية الجدلية تزداد من يوم إلى آخر. فقد تباينت ديناميكية و قدر تعاون حكام العهد العباسي الأول مع المعتزلة، ولم تصبح شاملة إلا بعد وصول المأمون إلى الخلافة. فلما مسك المأمون زمام الحكم أدركت عملية التقارب فيما بين المعتزلة والحكام ذروتها إذ صار الخليفة نفسه معتزليا ورام أن يفرض مذهب الاعتزال على بقية الناس، وبصفة خاصة على العلماء.

ورأينا أيضا في أساليب مكافحة حكام العهد العباسي الأول للشعبوية والزندقة بجانب اهتمامهم البالغ بالدفاع عن الإسلام والأمة الإسلامية، كما كان واضحا خاصة أثناء حكم المهدي والهادي والرشيد، أن قاعدة إخضاع الدين وشؤونه للسياسة ظلت موجودة وبينه لا سيما في بعض أفعال المنصور والمأمون. ونعيد هنا فقط ذكر بعض عمال المنصور الذين كانوا من طائفتي الشعبويين والزنادقة، وكان يتردد في كثير من الحالات أن يلاحقهم ويقبض عليهم ويعدمهم ما داموا مطيعين له ولسياساته. ونستطيع أن ندرج مع المنصور أيضا المأمون الذي أحيانا كان يتراحم مع الشعبويين والزنادقة لأن غلبة الحجة كانت أحب إليه من غلبة القدرة. وهذا وفق خططه السياسية التي وضعها كما سنرى في فصلنا القادم.

الفصل الثاني:

محنة خلق القرآن: عواملها و نتائجها

(1) مقدمة

لقد رأينا في الفصل الماضي كيف نشأ علم الكلام، ثم كيف تطور وصار علما مستقلا بمبادئ وغايات خاصة ورجال متخصصين. ورأينا أيضا كيف نشأت وتطورت حركتا الزندقة والشعوبية وكيف استفحلتا في العصر العباسي الأول. كما رأينا مدى الصلة بين تطور علم الكلام تطورا هائلا ومكافحة العباسيين للزندقة والشعوبيين. ومن النتائج التي وصلنا إليها أن الحكام تورطوا تورطا مباشرا وواسعا في تلك الأحداث واستعانوا بوسائل متباينة في مواجهة ظاهرتي الزندقة والشعوبية. ومن تلك الوسائل التعاون مع العلماء، وذلك لأجل كون الزنادقة والشعوبيين الملحدين مستندين إلى نظريات ومقالات مدعمة غالبا بأدلة وحجج عقلية منطقية فلسفية ومموهة. وبسبب طبيعة وروح المقاومة لاحظ الحكام أن المتكلمين هم أكثر العلماء أهلية وتمكنا من غيرهم في ذلك الاتجاه.¹

وبطبيعة الحال تعاضم نفوذ المعتزلة ودورهم وازداد شأنهم في هذا الصدد لدرجة أن الحكام أخذوا يقربونهم ويقتربون منهم أكثر فأكثر من يوم إلى آخر. وبلغ الأمر أوجه في عصر الخليفة المأمون، الذي لم يتردد لحظة واحدة في تكريم المعتزلة وتفضيلهم على غيرهم. وقد تتلمذ على أبي الهذيل أحد المعتزلة المشهورين، بل أحد رؤسائهم يومئذ.² وقد اقتضى ذلك الوضع أن يصير المأمون معتزليا ويعلن في سنة 212هـ/827م القول بخلق القرآن.³ ثم

¹ إن هذا لا يعني تقليل دور ونفوذ الخدثين والفقهاء لأننا نقصد ههنا مقاومة الزنادقة والشعوبيين فقط لا غيرها.

² أخبار الطوال ص 401.

³ أنظر تاريخ ابن الوردي ج 1 ص 298، والفخري في الآداب السلطانية ص 216.

بعد ذلك في سنة 218هـ/833م امتحن المأمون العلماء في مسألة خلق القرآن، وحاول أن يفرض مذهب الاعتزال على الناس كمذهب رسمي عقائدي للدولة الإسلامية.⁴

وقال عن ذلك محمد أبو زهرة: "لقد كان وجود المعتزلة أمرا لا بد منه في العصر العباسي، لأنه وجد في هذا العصر زنادقة يعلنون آراء مفسدة للجماعة الإسلامية، ويتناجون بينهم بأمور هادمة للإسلام، ويدبرون الأمر كيذا لأهله. ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الإسلامي وإحياء الحكم الفارسي. ولذلك جرد الخلفاء السيف للقضاء على الزنادقة وشجعوا العلماء الذين يردون أقواهم الهدامة. وقد تصدوا لأولئك المعتزلة ونازلوهم بالحجج الدامغة. فقرهم الخلفاء منهم وأذنوهم من مجالسهم، وفتحوا لهم أبواب قصورهم في عهد المنصور وعهد المهدي ثم في عهد المأمون... وكان منهم الوزراء والحجاب والكتاب، بل كان المأمون يعد نفسه منهم. فكان يلحن بحجتهم ويناقش على ضوء أصولهم. وبذلك كان لهم في عهده النفوذ العلمي والإدارة والسلطان".⁵

(2) الظروف التي رافقت تولي المأمون للحكم

وقبل أن نقول أي شيء فيما يخص الخنة علينا أن نتذكر ونحلل الظروف العامة التي أحاطت بالخليفة المأمون بعد استيلائه على منصب الخلافة، والتي أثرت بسبيل مباشر أو غير مباشر في التطورات التي أدت إلى اعتناق المأمون للاعتزال ثم بعد ذلك إلى وقوع الخنة. فبجانب الوقائع المتعلقة بمكافحة الزندقة والشعبوية التي كانت لها حقا دور عظيم، علينا أن نعالج أيضا توترات واضطرابات مؤلمة في مجال السياسة، وبصفة أدق في قصر الخليفة، منذ أول وهلة من حكمه.

وقد سبقت تولية المأمون للحكم الحرب الأهلية البشعة الفاجعة بينه وبين أخيه الأمين. وكاد المأمون أن يوافق على خلع نفسه من ولاية العهد عندما طلب منه الأمين ذلك

⁴ أنظر امرأة الخنان ج2 ص77، تاريخ البعقوبي ج2 ص467.

⁵ ابن حنبل حياته وعصره - آرائه وفقهه ص113.

وإسنادها إلى ابنه موسى بتأثير من الفضل بن الربيع. إلا أن وزير المأمون الفضل بن سهل شجع وأقنع المأمون على الإلحاح وبالتالي على محاربة الأمين.⁶ وبهذا بلغ التباعد بين الأخوين ذروته، وما هو أشد من ذلك أن هذا التباعد والجفاء أدى إلى التباعد بين الناس والفوضى العامة في الدولة. وبقتل الأمين لم يتخلص المأمون إلا منه، وبقيت القوى الكثيرة الظاهرة والباطنة المتربصة بخلافته، والتي أخذت تظهر رأسها أثناء هذه الاضطرابات وفي إثرها.

وبعد نهاية الحرب الأهلية تفككت المركزية التي أصلها الخليفة المنصور والتي كان يرعاها بنجاح سائر الخلفاء العباسيين قبل المأمون. ويعطينا اليعقوبي⁷ (ت292هـ/905م) صورة كاملة وواضحة لذلك التفكك حيث كان كل بلد يدعو لنفسه أو لبعض المتنفذين أو بعض آل بيت. وقال: "وفي سنة 198هـ/813م وجه المأمون الحسن بن سهل إلى العراق عاملاً عليها وعلى غيرها من البلد. وقد كان وثب الأصفر المعروف بأبي السرايا، واسمه السري ابن منصور الشيباني⁸ (ت200هـ/815م)، بالكوفة... (وسيؤيده وسيلحق به فيما بعد بعض العلويين الذين سيأخذون بعض مناطق العراق مثل الكوفة والبصرة. وسيصير الحجاز واليمن أيضاً، كما سنرى إن شاء الله تعالى، تحت يد بعض العلويين). وأخذ واسط⁹ محمد بن الحسن المعروف بالسلق... وبالموصل¹⁰ السيد بن أنس¹¹

⁶ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج8 ص370 وما بعدها.

⁷ هو أحمد بن إسحاق اليعقوبي، مؤرخ جغرافي كثير الأسفار. من أهل بغداد. كان حده من موالي الخليفة المنصور. (الأعلام ج1 ص95)

⁸ ثار شجاع من الأمراء العصامين. لما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون انتقل إلى عسكر هرمة بن أعين، أي الجانب المأموني، وصار معه نحو ألفي مقاتل، وخطب بالأمير. ولما قتل الأمين نقص هرمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه، فخرج في نحو مائتي فارس فحصر عامل عين النمر وأخذ ما معه من المال ففرقه في أصحابه، ثم استولى على الأنبار وذهب إلى الرقة وقد كثر جمعه. فلقبه بها ابن طباطبا العلوي (ت199هـ/815م) (ستكلم عنه لاحقاً) وكان قد خرج على الحكم العباسي، فبايعه أبو السرايا وتولى قيادة حنده، واستولى على الكوفة. فضرب بها أبو السرايا الدراهم، وسير الجيش إلى البصرة ونواحيها، وعمل على ضبط بغداد. وامتلك المدائن وواسط واستفحل أمره. وأرسل العمال والأمراء إلى اليمن والحجاز وواسط والأهواز. وتوالت عليه جيوش العباسيين فلم تضعضه إلى أن قتله الحسن بن سهل وبعث برأسه إلى المأمون. (مقاتل الطالبين ص424 وما بعدها، تاريخ خليفة بن خياط ص310-311)

⁹ واسط: مدينة في العراق بين البصرة والكوفة، أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 83-86هـ/702-705م. كانت قاعدة

العراق العجمي في العهد الأموي. (معجم البلدان ج5 ص347)

¹⁰ الموصل: مدينة بالعراق. كانت عاصمة الجزيرة في عهد مروان الثاني، آخر خلفاء الدولة الأموية. (معجم البلدان ج5 ص223)

(ت211هـ/826م). وبميافارقين¹² موسى بن المبارك الشكري. وبأرمينية عبد الملك بن الجحاف السلمي ومحمد بن عتاب. وبأذربيجان محمد بن الرواد الأزدي، ويزيد بن بلال اليميني، ومحمد بن حميد الهمداني (ت214هـ/829م)، وعثمان بن أفكل، وعلي بن مر الطائي. وبالجبل أبو دلف العجلي (ت226هـ/840م)، ومرة بن أبي الرديني، وعلي ابن البهلول، ومحمد بن زهرة، وستان وزيد بن بياض (في الأصل). وبالسلسلة¹³ وحن حساس وناحتيتها بسطام بن السلس الربيعي. وبكفرتوثا¹⁴ ورأس عين¹⁵ حبيب بن الجهم. وبكيسوم¹⁶ وما والاها من ديار مضر نصر بن شيب التصري (ت210هـ/825م)، وكان أصعب القوم شوكة وأشدهم امتناعا. وبقروروس¹⁷ وما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي. وبالحيار وما والاها من كور قنسرين¹⁸ عثمان بن ثمامة العبسي. وبالحاضر الذي إلى جانب حلب منيع التنوخي.

وقد كان يعقوب بن صالح الهاشمي¹⁹ (ت200هـ/815م) يحارب الحاضر، فلم يبق منهم أحد، وافترقوا أيدي سبا، فصار أكثرهم إلى مدينة قنسرين. وخرب يعقوب الحاضر حتى ألصقه بالأرض. وكان فيه عشرون مقاتلا. وكان بمجرة النعمان²⁰ وتل منس²¹ وما

¹¹ أمير الموصل وأحد الشجعان الفصحاء. كان المأمون يقربه ويعتمد عليه ويسيره لقتال بعض الفئات الخارجة على الحكم العباسي. (الأعلام ج3 ص146)

¹² ميافارقين: قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينيا. (معجم البلدان ج5 ص235)

¹³ السلسلة: سلسلة جبلية في لبنان. تنقسم إلى السلسلة الشرقية والغربية. السلسلة الشرقية تؤلف الحدود السياسية بين لبنان وسوريا. (النجد في اللغة والأعلام ج2 ص360)

¹⁴ كفرتوثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، وأيضا من قري فلسطين. (معجم البلدان ج4 ص468)

¹⁵ رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة. وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير لمر الخابور. (معجم البلدان ج3 ص14)

¹⁶ كيسوم: قرية مستطيلة من أعمال سيماسط (مدينة على شاطئ الفرات)، ولها عرض صالح وفيها سوق ودكاكين وافرة، وفيها كذلك حصن كبير. (معجم البلدان ج4 ص497)

¹⁷ قوروروس: مدينة أزيلت بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب، وهي الآن خراب وبها آثار باقية. (معجم البلدان ج4 ص412)

¹⁸ قنسرين: قرية في سوريا. كانت على طريق القوافل بين حلب وأنطاكية. (معجم البلدان ج4 ص403)

¹⁹ من الشعراء الأمراء، من بني العباس. كان في أيام الرشيد والمأمون. وعرف بالشجاعة والفروسة. وهم بالثورة على المأمون فرطاً بعض رؤساء الجزيرة والشام على أن يبايعوا له بالخلافة ويخرج بهم. وعاجله الموت قبل البدء بحركته. وقال في قصيدته طويلة:

لقد زال هذا الأمر من مستقره وألف فيه بين حق وباطل

ودارت رحي الإسلام في غير قطبها وطالت يد الباغي بما المتناول. (الأعلام ج8 ص199)

²⁰ مجرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص. فيها الزيتون الكثير والتين. (معجم البلدان ج5 ص156)

والاها من إقليم حمص الحواري بن حنطان التنوخي. وبحماة²² وما والاها حراق البهراني. وبشيزر²³ وما والاها بنو بسطام. وبمدينة حمص بنو السمط. وبالمصيصة²⁴ وأذنة وما والاها من الثغور الشامية (أي الشامية) ثابت بن نصر الخزاعي. وكان عاملاً للأمين فلما كان من أمره ما كان تغلب على البلد، وأقام بدمشق والأردن وفلسطين جماعة من سائر القبائل. وعصر السري بقصبة الفسطاط²⁵ والصعيد²⁶، وبأسفل الأرض عبد العزيز الجروي، وبالحوفين القيسية واليمانية.

وغلبت لحم²⁷ وبنو مدج على الإسكندرية، ورئيس لحم رجل يقال له أحمد بن رحيم اللخمي. ثم غلب الأندلسيون، وكان ابتداء أمر الأندلسيين أنهم قدموا من الأندلس في أربعة آلاف مركب فأرسوا في ميناء الإسكندرية في الرمل. وكانوا زهاء ثلاثة آلاف رجل. فأقاموا على ساحل البحر، ثم وثب بعض أعوان السلطان على رجل منهم، فوكت عصبية. فوثب الأندلسيون على الفضل بن عبد الله أخي المطلب بن عبد الله²⁸ (ت200هـ/815م) وقتلوا صاحب شرطته، وصاروا إلى الحصن وحاربوا أهل الإسكندرية حتى أخلوهم عن منازلهم. فخلوا الديار والأموال ورأسوا عليهم رجلاً يقال له أبو عبد الله الصوفي يسفك الدماء ويقتل المسلمين. ثم عزلوه وصبروا عليهم رجلاً يقال له الكناي.

²¹ تل منس: قرية من قرى حمص. (معجم البلدان ج2 ص44)

²² حماة: قرية كبيرة كثيرة الخيرات واسعة الرقعة من أعمال حمص. بها قلعة عظيمة عجيبة. بنيت في العصر الجاهلي. (معجم البلدان ج2 ص300)

²³ بشيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام، في وسطها نهر الأردن. بنيت في العصر الجاهلي. (معجم البلدان ج3 ص382)

²⁴ المصيصة: مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم. (معجم البلدان ج5 ص144)

²⁵ الفسطاط: أول مدينة أسسها العرب في مصر على الضفة الشرقية لليل. بناها عمرو بن العاص نحو 23هـ/643م، وأقام فيها مسجداً. (معجم البلدان ج4 ص261)

²⁶ الصعيد: منطقة في مصر بين جنوبي القاهرة وشلالات أسوان. (المعجم في اللغة والأعلام ج2 ص423)

²⁷ من قبائل العرب، أصلها من اليمن. (المعجم في اللغة والأعلام ج2 ص612)

²⁸ المطلب بن عبد الله وال. كان في مكة، وولي إمرة مصر للمأمون سنة 198هـ/813م فقدم إليها، والثورات قائمة، وأهلها فريقان: فريق من حزب الأمين وفريق من حزب للمأمون. وعزل بعد نيف من وسعة أشهر من ولايته. وأمر المأمون بالقبض عليه، فحبس مدة. وتار أهل مصر فأطلقوا المطلب وأعادوه إلى الإمارة في أوائل سنة 199هـ/814م فأحسن السياسة. وأقره المأمون سنة 200هـ/815م وعزله، فأوقد الفتنة، فلم يفلح، فخرج هارباً إلى مكة. (الأعلام ج7 ص252)

وأحلوا بني مدلج ولخما عن البلد فصار البلد كله لهم. وكان بركة²⁹ مسلم بن نصر
الأعور الأنباري...³⁰

وهكذا المصير الوحيد الذي كان تحت سيطرة الخليفة هو خراسان وإيران حيث كان
المأمون مقيما ومستقرا. وحتى خراسان لم تسلم للمأمون بأكملها إذ خرج بها منصور بن
عبد الله بن يوسف البرم نحو سنة 200هـ/815م.³¹

وحتى بغداد قد وثب بعض أهلها أي أهل الحربية بزعمارة محمد بن أبي خالد سنة
200هـ/815م فطردوا الحسن بن سهل عنها. وكان سبب ذلك منع الحسن بن سهل أرزاق
أهل الحربية التي وعدها لهم سابقا.³² وعلى الرغم من مقتل محمد بن أبي خالد زعيم
الحربية عند واسط فقد اجتمع قواد الحربية وبايعوا إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة
في سنة 202هـ/817م ودعي له بالخلافة وسمي بالمرضي.³³

وقد انتهز العلويون هذه الساحة ليخرجوا على الدولة العباسية ويعبروا عن سخطهم
على حكامها وعدم رضاهم بنظام حكمهم القائم وبالأوضاع العامة في الدولة. ولهذا ففي
نفس السنة التي انتهت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون بقتل الأول وتولية الحكم على
يد الثاني خرج الحسن الهرش (ت حول 199هـ/814م) في ذي الحجة منها يدعو إلى الرضى

²⁹ بركة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية. (معجم البلدان ج 1 ص 388)

³⁰ تاريخ يعقوبي ج 2 ص 445-446.

³¹ نفس المرجع ج 2 ص 450.

إن أسرة يوسف البرم كانت مشهورة بتدميراتها ضد الدولة العباسية في خراسان. ففي سنة 160هـ/776م خرج يوسف بن إبراهيم،
وهو الذي يقال له يوسف البرم بخراسان منكرا هو ومن تبعه ممن كان على رأيه على المهدي، الخليفة العباسي يومئذ، الحال التي هو بها
وسيرته التي يسير بها. واجتمع معه، فيما زعم، بشر من الناس كثير، فتوجه إلى يزيد بن مزيد فلقبه. واقتلا حتى صارا إلى المعانقة
فأسره يزيد. ثم بعته إلى المهدي فقتله. (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 124)

³² تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 543، تاريخ يعقوبي ج 2 ص 450.

³³ تاريخ يعقوبي ج 2 ص 450.

من آل محمد في سفلة الناس، وجماعة كثيرة من الأعراب، حتى أتى النيل فجنى الأموال، وأغار على التجار وانتهب القرى واستاق المواشي.³⁴

وفي السنة الموالية أي سنة 199هـ/814م خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب³⁵ (ت 199هـ/814م) يدعو إلى الرضى من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة. وهو الذي يقال له ابن طباطبا. وكان القيم بأمره في الحرب وتديرها وقيادة جيوشه أبو السرايا، واسمه السري بن منصور،³⁶ الذي أشرنا إليه سابقا وإلى خروجه على الدولة العباسية وتسلطه على العراق.

وكان سبب خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين³⁷ (ت 207هـ/822م) عما كان إليه من أعمال البلدان التي فتحها وتوجيهه ذلك إلى الحسن بن سهل. وقد وقع ذلك في

³⁴ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 527.

³⁵ أمير علوي ثائر. من أئمة الزيدية. كان مقيما بالمدينة. حج سنة 196هـ/811م والحرب قائمة بين الأمين والمأمون في العراق، فأقبل عليه الناس بمكة، وكثر ترددهم، فحاف الفتنة فاستتر. وكان من حجاج تلك السنة رحل من كبار العلويين يدعى "نصر بن شبيب" فاجتمع مع محمد بن إبراهيم، وعرض عليه الخروج على بني العباس، فوعده باستشارة من في الكوفة من أنصاره. واستقر الأمر في العراق بنظر المأمون سنة 198هـ/813م وأخذ الناس يتحدثون بأن الوزير الفضل بن سهل قد تغلب عليه واستبد بالأمر دونه. وأقبل نصر بن شبيب حاسحا ذلك العام فدخل المدينة وزار عمدا في بيته وبالحق في تحريضه على الخروج، وأخبره أن في الكوفة سيوفا تنتظر قدومه. فواعد محمد بن إبراهيم على اللقاء بالجزيرة. وقصد الكوفة، ودخلها وكنم حبره، وبها بايعه نحو 120 رجلا. ولكن وقع اختلاف بين محمد ونصر بن شبيب ورحل محمد بعد ذلك يريد العودة إلى المدينة. وفي الطريق تلقى أبا السرايا وهو ثائر على العباسيين فبايعه أبو السرايا وقوي به أمره. فعاد محمد إلى الكوفة حيث بايعه أهلها سنة 199هـ/814م. ولكنه مرض ومات ودفن بالكوفة. ومدة خروجه قرابة شهرين. وقيل أيضا أنه توفي مسموما وله من العمر 26 سنة.

وممة من يعتقد أن خروج أبي السرايا ومبايعته محمد بن إبراهيم لم يكن السبب الرئيسي فيها هو محاطة هرمة بن أعين لأبي السرايا وأصحابه بأرزاقه مما أثار التذمر والخروج، كما يورد غالبا، وإنما يعود ذلك بالدرجة الأولى إلى طموح ذلك الرجل إلى النفوذ والسلطة. وهذا لا يتأتى له إلا بمبايعه شخص يدين له العديد من الناس بالولاء، فوجد هذا في محمد بن إبراهيم، وأعلن خروجه على الدولة العباسية باسم ذلك الرجل العلوي. ولأجل هذا يزعم أن أبا السرايا هو الذي سم محمد بن إبراهيم، وذلك بعدما استوليا على الكوفة واستولت محمد أهلها وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب. فحاف أبو السرايا على مكانته ونفوذه فقتله لأنه ما أراد أن يقسم السلطة والنفوذ مع أحد. (مقاتل الطالبين ص 424 وما بعدها، البداية والنهاية ج 10 ص 255، تاريخ خليفة بن خياط ص 310-311، تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 528، العلاقات بين العلويين والعباسيين ص 183)

³⁶ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 528.

³⁷ من كبار الوزراء والقواد أديبا وحكما وشجاعا. وهو الذي قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين، ووطد الملك له بعد هزيمة الأمين. ولد في حرسان وسكن بغداد. اتصل بالمأمون في صباه، وكانت لأبيه مرحلة عند الرشيد. ولما مات الرشيد وولي الأمين كان المأمون في مرو فانتدب طاهرا للزحف إلى بغداد. فهاجمها وظفر بالأمين وقتله سنة 198هـ/813م، وعقد البيعة للمأمون. فولاه المأمون شرطة

سنة 198هـ/813م بعد هزيمة جميع أعداء المأمون في خراسان بجهد طاهر بن الحسين العسكرية، ثم استقرار الحكم في يد المأمون. فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق بينهم أن الفضل بن سهل، أخو الحسن، قد غلب على المأمون وأنه قد أنزله قصرًا حجه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة، وأنه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالرأي دونه. ولأجل ذلك غضب الناس بالعراق، وهاجت الفتن في الأمصار، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا.

وقيل أن علة خروج ابن طباطبا أن أبا السرايا كان من رجال هرثمة، فمطله بأرزاقه وأخره بها. فغضب أبو السرايا من ذلك ومضى إلى الكوفة فبايع محمد بن إبراهيم وأخذ الكوفة. واستوثق له أهلها بالطاعة. وأقام محمد بن إبراهيم بالكوفة وأتاه الناس من نواحي الكوفة والأعراب وغيرهم.³⁸

وفي السنة التالية أي سنة 200هـ/815م خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب³⁹ (ت222هـ/837م) باليمن. وكان سبب خروجه تحرك العلويين بالعراق.⁴⁰

وفي ذات السنة خرج محمد بن جعفر الصادق⁴¹ (ت203هـ/818م) بمكة، وبويع له بالخلافة وسموه أمير المؤمنين. وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة

بغداد، ثم ولاء الموصل وبلاد الجزيرة والشام والمغرب في السنة نفسها، أي 198هـ/813م، وخراسان سنة 205هـ/820م. وكان في نفس المأمون شيء عليه لقتله أخاه الأمين بغير مشورته. ولعله شعر بذلك. فلما استقر في خراسان قطع خطبة المأمون يوم الجمعة. فقتله أحد غلمانه في تلك الليلة بمرو. وقيل مات مسموما. ولقب بذي اليمينين لأنه ضرب رجلا بشماله فقتله نصفين، أو لأنه ولي العراق وخراسان. لقيه بذلك المأمون نفسه. (أنظر تاريخ بغداد ج9 ص353، وفيات الأعيان ج2 ص517)

³⁸ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج8 ص528-529، وتاريخ ابن الوردي ج1 ص289، والبداء والنهاية ج10 ص255.

³⁹ من أمراء العلويين. كان مقيما بمكة. ولما بلغته ثورة أبي السرايا في العراق خرج إلى اليمن فدخل صنعاء سنة 200هـ/815م داعية لابن طباطبا، أي محمد بن إبراهيم. وكان الوالي في اليمن يومئذ إسحاق بن موسى فترك له صنعاء وقصد مكة. واستولى إبراهيم على اليمن. وعاد إلى مكة فدخلها عنوة وقتل أميرا للمأمون، وولاه المأمون أمرها بعد أن جعل أخاه علي بن موسى الرضا وليا لعنده.

(تاريخ الرسل والملوك ج8 ص536، تاريخ ابن الوردي ج1 ص289، الأعلام ج1 ص75)

⁴⁰ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص536، تاريخ ابن الوردي ج1 ص289.

الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبي طالب يقرأ عليه العلم. وكان روى عن أبيه علماً جماً، فمكث بمكة مدة. وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بني عمه فلم يحمد سيرتهم. وأرسل المأمون إليهم عسكرياً فكانت الغلبة له، وظفر به المأمون وعفا عنه.⁴²

وفي سنة 207هـ/822م خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (ت حول 220هـ/835م) ببلاد عك من اليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد. وكان سبب خروجه أن العمال باليمن أساءوا السيرة، فبايعوا عبد الرحمن هذا. فلما بلغ ذلك المأمون وجه إليه دينار بن عبد الله في عسكر كثيف، وكتب معه بأمانه. فحضر دينار بن عبد الله الموسم وحج. فلما فرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن، فبعث إليه بأمانه من المأمون، فقبل ذلك. ودخل ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون. فمنع المأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه، وأمر بأخذهم بلبس السواد.⁴³

وبجاء العلويين تحرك بعض الناس المتنفيين ليظهروا عدم الرضا وعدم القناعة بما يحدث ويجري في الدولة من الوقائع السياسية والاضطرابات الدينية والتدهور الأخلاقي. وفي سنة 201هـ/816م خرج المتطوعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت رئاسة خالد الدريوش وسهل بن سلامة الأنصاري أبو حاتم من أهل خرسان.⁴⁴ وكان سبب ذلك أن فساق الحريرية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديداً، وأظهروا

⁴¹ من علماء العلويين وأعيانهم. كانت إقامته بمكة، وكان يظهر الزهد. ولما ظهر الخلاف بين الأمين والمأمون أقبل بعض العلويين عليه سنة 199هـ/814م وبايعوه بالخلافة وإمارة المؤمنين سنة 200هـ/815م، وبايعه أهل الحجاز. وقتلهم إسحاق بن موسى العباسي وعيسى الجلودي فاهزموا. وانصرف محمد بن جعفر إلى الحففة (على ثلاث مراحل من مكة، في طريق المدينة) ومنها إلى بلاد جهينة، فجمع خلقاً وهاجم المدينة، فقتل إلى مكة. واستأمن الجلودي فأمنه، فحلق نفسه وحطب معتزداً بأنه ما رضى البيعة إلا بعد أن قيل له أن الخليفة المأمون توفي. وأنفذ الجلودي إلى المأمون، وكان بمرو، فأكرمه واستبقاه معه إلى أن توفي بمجرحان. وكان المأمون أحد من صلوا عليه. (أنظر مقاتل الطالبين ص 438 وما بعدها)

⁴² الفخري في الآداب السلطانية ص 219-220.

⁴³ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 593.

⁴⁴ البداية والنهاية ج 10 ص 258.

الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق. فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع. وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم. وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك. لا سلطان يمنعهم ولا يقدر على ذلك منهم لأن السلطان كان يعتز بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه. وكانوا يجيئون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين، ويقطعون الطرق علانية. ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم في بلاء عظيم.⁴⁵

وقد تعاون أصحاب هذه الحركة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة تعاوناً كبيراً على جميع مستويات المجتمع وفي كل مجالات الحياة. إن خالد الدريوش لم ير أن يغير شيئاً على السلطان ولا يعيب عليه ولا يقاتله، في حين أن سهل بن سلامة تشدد في ذلك الاتجاه تشدداً بالغاً وقال: "لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان، سلطاناً أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين. فمن بايعني على هذا قبلته، ومن خالفني قاتلته".⁴⁶

وقد أيد حركة خالد الدريوش وسهل بن سلامة وشارك فيها رجل يسمى أحمد بن نصر الخزاعي (ت231هـ/846م). وهو ابن مالك بن الهيثم (ت137هـ/755م) أحد نقباء بني العباس في ابتداء الدولة العباسية. وكان أحمد بن نصر شيخاً جليلاً من أصحاب الحديث، أماراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، قوالاً بالحق، من أولاد الأمراء. واستمرت مشاركته في الحركة المذكورة حتى قدوم المأمون إلى بغداد، فلبس السواد ولزم بيته. ثم إن أمره تحرك ببغداد من جديد في آخر أيام الوائق. واجتمع إليه خلق كثير يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويطالبون بالعمل بالكتاب والسنة النبوية الشريفة إلى أن ملكوا بغداد. وفي النهاية أحمدت حركته وأعدمه الوائق. ويقال أيضاً أنه كان ينفي ويعارض القول بخلق

⁴⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 551.

⁴⁶ نفس المرجع ج 8 ص 552.

القرآن معارضة شديدة. وبعد حبسه امتحنه الوثائق وأحمد بن دواد فأثبت لهم أنه لن يتراجع عن اعتقاده في القرآن الكريم.⁴⁷

وفي الحقيقة أن الأزمة قد تسللت إلى كل ميادين الحياة. فبحانب أعداء الدولة وهجماتهم المستديمة من الخارج والداخل نرى تشتت وافتراق كلمة العباسيين حتى فيما بينهم. وقد استلزم هذا الوضع الاضمحلال في أنظمة الدولة الداخلية من مثل جباية الخراج، والجند، والقضاء، والولاية وغيرها. إننا نستطيع أن نختزل عوامل هذه الأزمة الشاملة في الدولة بعد تولية المأمون للحكم في النقاط الآتية:

- الفوضى الشاملة التي نتجت عن حصار بغداد، ومقتل الخليفة الأمين، ورفع يد طاهر بن الحسين العسكرية وتعيين الحسن بن سهل في مكانه.
- بقاء المأمون في مرو بسبب خوفه من أهل بغداد وسياسة الفضل بن سهل لإبقائه فيها. واستطاع بذلك الفضل بن سهل أن يستر عنه كل ما يجري في قلب الدولة. وكان الفضل بالفعل يفعل ذلك، فبقي المأمون جاهلا وبعيدا لا يعلم بما يجري في البلاد وخاصة في بغداد ليعالجه. وقد رأينا أنه أعدم الفضل بن سهل لما فتح عيونه علي بن موسى الرضا وكشف له عيوب وزيره هذا.
- سخط العناصر العربية على سياسة الفضل الفارسية، وسخط العباسيين خاصة على المأمون لأجل تأثيره بسياسة الفضل هذه.
- طموح العلويين غير المنقطع واستغلال الفرص المناسبة إن وجدوها للطعن في العباسيين.
- ضجر وتعب الناس من الخصومة الأخوية ورجائهم التخلص من ذلك الوضع السيئ، أو التخلص من كليهما ثم انتخاب رجل ثالث أهل لحمل مسئولية قيادة وزعامة الأمة.

48

⁴⁷ انظر نفس المراجع ج 8 ص 135-136، وتاريخ الإسلام ج 17 ص 55-56.

⁴⁸ انظر دولة بني العباس ج 1 ص 671.

وخير من يقدم لنا صورة كاملة وواضحة عن الأوضاع الداخلية في الدولة طاهر بن الحسين لما وصى ابنه عبد الله⁴⁹ (ت230هـ/844م) بعد ما ولاه ديار ربيعة. إنه أوصاه بكل أمور الدين والدنيا وما يتعلق بالسياسة والولاية من قريب أو بعيد. وذلك لأن كثيرا من الناس حينئذ وخاصة الولاة لم يتحلوا بتلك المميزات الممدوحة. وقد حدث ذلك في سنة 206هـ/821م، وهو الوقت الذي كان المأمون في عنفوان تدبره لإصلاح أوضاع الدولة والإتيان بحلول مناسبة وفعالة.

وأوصى طاهر بن الحسين ابنه أن يلتزم بأوامر الدين وأن يفشيها بين سائر الناس ويتعد عن نواهيهِ. وطلب منه أن يعتصم بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسير أصحابه رضوان الله تعالى عليهم. وقال له: "وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها، في إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها. وترتل في قراءتك. وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصدق فيها لربك نيتك. واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك، وادأب عليها فلإنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمثابرة على خلائقه، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده. وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيهِ وحلاله وحرامه، واتتمام ما جاءت به الآثار على النبي صلى اله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق الله عليك. ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد...

وأحسن الظن بالله عز وجل تستقم لك رعيتك. والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستمد به النعمة عليك. ولا تنهض أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأمم. واجعل من شأنك حسن الظن

⁴⁹ أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي. وقد ولي إمرة الشام مدة ونقل إلى مصر سنة 211هـ/826م فأقام سنة، ونقل إلى الدينور. ثم ولاه المأمون خراسان، وظهرت كفاءته، فكانت له طبرستان وكرمان وخرسان والري والسواد وما يتصل بتلك الأطراف. واستمر إلى أن توفى بنيسابور، وقيل بمرو. (تاريخ بغداد ج9 ص483، شذرات الذهب ج2 ص68)

بأصحابك. واطرد عنهم سوء الظن بهم. وارفضه عنهم يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم. ولا يجدن عدو الله الشيطان في أمرك مغمزا، فإنه إنما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم في سوء الظن ما يتغصك لذاذة عيشك".⁵⁰

وأمره أن يتصرف مع الرعية بالعدل المطلق ويتعامل معهم دون استثناء تعاملًا حسنًا: "وأحب أهل الصدق والصلاح، وأعن الأشراف بالحق، وواصل الضعفاء، وصل الرحم. وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره. والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة. واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنهما رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيته. وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملِك نفسك عند الغضب، وأثر الوقار والحلم. وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله... واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر. وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وربت وصلحت به العامة. فليكن كثر خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله..."⁵¹

وطلب منه أن يتفقد أمور الجند ويوسع لهم أرزاقهم لأنهم عماد الدولة وسلامتها. وطلب أيضا منه ألا يكون ذلك على حساب العدل والبر والرحمة والعناية والشفقة: "وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم، وأدر عليهم أرزاقهم، ووسع عليهم في معاشهم، ليذهب بذلك الله فاقتهم ويقوم لك أمرهم، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا، وحسب ذي سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله وحيطته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته. فزایل مكروه إحدى البليتين باستشعار تكملة الباب الآخر، ولزوم العمل به تلقى إن شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا".⁵²

⁵⁰ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 583-584.

⁵¹ نفس المرحع ج 8 ص 585-586.

⁵² نفس المرحع ج 8 ص 587.

كما أشار إلى مفهوم وأمر القضاء وأهميته لإقامة الإنصاف بين الرعية وإزالة الظلم: "وأعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي تعادل عليه الأحوال في الأرض. وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتأمين السبل، ويتنصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدي حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع. وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل في القضاء."⁵³

وذكره منافع التزام التورع والعدل في إقامة الحدود والاشتداد في أمر الله تعالى إذ قال: "واشتد في أمر الله، وتورع عن النطف وامض لإقامة الحدود، وأقلل العجلة، وأبعد من الضجر والقلق... وأنصف الخصم وقف عند الشبهة، وأبلغ في الحجة... وتواضع لربك، وارأف بجميع الرعية، وسلط الحق على نفسك. ولا تسرعن إلى سفك دم -فإن الدماء من الله بمكان عظيم- انتهكا كما لها بغير حقها."⁵⁴

وأشار إلى أهمية الخراج الذي قد يكون مصدرا لعز ورفعة الإسلام والمسلمين، وقد يكون بالمقابل سببا للضعف إن كان يمارس بسوء النية والسياسة: "وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزا ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتا وغیظا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلا وصغارا. فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه. ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه، وعن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك. ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تكلفن أمرا فيه شطط... واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا. وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم. فاستعمل عليهم في كور عملك ذوي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف..."⁵⁵

⁵³ نفس المرحع ج 8 ص 587.

⁵⁴ نفس المرحع ج 8 ص 587-588.

⁵⁵ نفس المرحع ج 8 ص 588.

وذكر أن طاهرا لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه، وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، فقال: ما أبقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه، وأوصى به وتقدم. ثم رأى المأمون أن الوصية تنطوي بالضبط على ما احتاجه هو لإصلاح أوضاع الدولة، وما احتاجه عماله ليحسنوا سيرهم، فأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في الأقاليم.⁵⁶

3) ردود فعل المأمون

وأمام ضغط الواقع بدأ المأمون يتحرك ويبحث عن حلول للمشاكل التي كان يعاني منها هو والدولة. ولأجل ثورات العلويين المتتالية وضع المأمون ذلك في مقدمة اهتماماته فجعل علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسماه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم. وأمر جنده بلبس ثياب الخضرة (رمز العلويين) وطرح السواد (رمز العباسيين).⁵⁷ وذلك أن المأمون نظر إلى بني العباس وبني علي فلم يجد أحدا أفضل ولا أروع ولا أعلم منه. إن المأمون بلا شك حاول أن يرضي العلويين بهذا الفعل ويخفف سخطهم وتذمرهم، ثم يوفق بينهم وبين العباسيين.^{58 59}

⁵⁶ نفس المرجع ج 8 ص 591.

⁵⁷ مروج الذهب ج 4 ص 5، مقاتل الطالبين ص 455، الفخري في الآداب السلطانية ص 217، تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 554.

⁵⁸ Wilfred Madelung: Religious and Ethnic Movements in Medieval Islam: page 346, Variorum, USA, 1992.

⁵⁹ ومن الأمور الهامة التي فعلها علي بن موسى الرضا في اثر تعيينه تعريف المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستتر عنه من الأخبار، وأن أهل بيته والناس قد تقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون إنه مسحور بمجنون، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعنه إبراهيم بن المهدي بالخلافة. وقد جهل المأمون هذه البيعة لأن الفضل بن سهل كذبه وغشه، كما لم يعرف أن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل. وكان يتكلم الناس أيضا أن الفضل هو الذي حسن للخليفة قتل هرمة لأنه ناصح له وهو يعتمد على نصائحه. كما تكلموا عن طرد طاهر بن الحسين إلى الرقة لا عمل له، وهو الذي مهد للخليفة الأمور حتى قاد إليه الخلافة بزمائها. فلما تحقق كل ما ذكره علي بن موسى الرضا عند المأمون، بعد ما سأل غيره عن نفس الأمور، أمر بالرحيل إلى بغداد. فلما

ويقال أن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبي طالب فحملهم إليه من المدينة، وفيهم علي بن موسى الرضا. فأخذ بهم على طريق البصرة حتى جاءوه بهم، فأنزلهم داراً وأنزل علي بن موسى الرضا داراً. ثم وجه إلى الفضل بن سهل فأعلمه أنه يريد العقد له، وأمره بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل ومشاورته في ذلك. ثم أتيا عند المأمون فجعل الحسن يعظم ذلك عليه ويعرفه ما في إخراج الأمر من أهله عليه. فقال له: إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بال مخلوع، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل، أي علي بن موسى الرضا. فلما عرف علي بن موسى الرضا ذلك أبي وامتنع منه، إلى أن هدده الفضل والحسن ابنا سهل وقالوا له: والله أمرنا، يعني المأمون، بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد. ثم دعا به المأمون فخاطبه في ذلك فامتنع. فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد، ثم قال له: إن عمر جعل الشورى في ستة أحدهم جدك. وقال: من خالف فاضربوا عنقه ولا بد من قبول ذلك. فأجابه علي بن موسى إلى ما التمس.⁶⁰

ووفق قول المأمون إنه لم يفعل ذلك إلا لتجتمع كلمة المسلمين وألا يتنازعوا فيفسلوا، وألا يبطل الجهاد والحق. ويزعم المأمون أن اختياره لعلي بن موسى الرضا لم يكن إلا جزءاً من سياسته الإصلاحية العامة. وعن يحيى بن أكثم أنه قال: كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، ف جاء يوماً رجل استأذن بالدنو ثم بالكلام، فلما أذن له قال للخليفة المأمون: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه. جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر؟ فأجاب المأمون: لا بهذا ولا بهذا. بل كان يتولى أمر المسلمين من عقد لي ولأخي. فلما صار الأمر لي علمت أني محتاج إلى اجتماع كلمة المؤمنين في الشرق والغرب على الرضى بي. فرأيت أني متى خليت الأمر اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم، وتنازعوا،

علم ذلك الفضل بن سهل ارتحل من مرو، فلما أتى سرخس شد عليه قوم وهو في الحمام، فضربوه بالسيف حتى مات. وقد يقال أن المأمون دس عليه من اغتاله. (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 564-565، البداية والنهاية ج 10 ص 260)
⁶⁰ مقاتل الطالبين ص 454-455.

وبطل الجهاد والحق، وانقطعت السبل. فقامت حيطة للمسلمين إلى أن يجتمعوا على رجل يرضون به، فأسلم إليه الأمر. فمضى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر.⁶¹

ولأجل هذا غضب ولد العباس في بغداد واجتمع بعضهم إلى بعض، فخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي، ولقب بـ "المبارك".⁶²

ولكن فقط بعد سنتين، أي سنة 203هـ/818م، توفي علي بن موسى الرضا. وكان سبب وفاته أنه أكل عنباً فأكثر منه فمات فجأة. فأمر المأمون أن يدفن عند قبر الرشيد.⁶³ وبعد موت علي الرضا كتب المأمون إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موته يسألهم الدخول في طاعته.⁶⁴

ثم بعد ذلك وفر المأمون جهوده تجاه هذا المقصد فعزم أن يفرض لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر.⁶⁵ ثم أمر منادياً ينادي: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.⁶⁶

وكتب المأمون على عنوانات كتبه: بسم الله الرحمن الرحيم. فكان أول من أثبتها على عنوانات كتب الخلفاء. وكبر بعد كل صلاة، فبقى ذلك سنة. وحول العلم عند مواقيت الصلاة. ونزع المقاصير من المساجد الجامعة، وقال: هذه سنة أحدثها معاوية بن أبي سفيان.⁶⁷

⁶¹ تاريخ الإسلام ج 15 ص 232-233.

قارن هذه الرواية برواية واردة في مروج الذهب ج 4 ص 20-21، ورواية في تاريخ العباسيين ص 271.

⁶² تاريخ الخلفاء ص 307.

⁶³ أنظر تاريخ يعقوبي ج 2 ص 453، والكمال في التاريخ ج 5 ص 448، وتاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 568.

⁶⁴ تاريخ الخلفاء ص 307.

⁶⁵ مروج الذهب ج 4 ص 41، طبقات المعتزلة ص 64.

⁶⁶ تاريخ الإسلام ج 15 ص 237.

⁶⁷ تاريخ يعقوبي ج 2 ص 468.

وفي سنة 212هـ/827م صدع المأمون بتفضيل علي بن أبي طالب على بقية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.⁶⁸ وكذلك نظر المأمون في إحلال المتعة فردده عن ذلك قاضي القضاة يحيى بن أكثم.⁶⁹

لا ريب في أن كل الأمور المذكورة من مذهب أهل البيت بما أراد المأمون أن يبدي تحزبه وتشيعه لهم. وعن النضر بن شميل⁷⁰ (ت203هـ/818م) أنه قال: دخلت على المأمون فقال لي: كيف أصبحت؟ قلت: بخير يا أمير المؤمنين! قال: يا نضر أتدري ما قلت في صبيحة هذا اليوم؟ قلت: أني لي بعلم الغيب! فقال: قلت:

أصبح ديني الذي أدين به	ولست منه الغداة معتذرا
حب علي بعد النبي ولا	أشتم صديقا ولا عمرا
وابن عفان في الجنان مع	الأبرار ذاك القتل مصطبرا
لا ولا أتهم الزبير ولا	طلحة إن قال قائل عذرا
وعائشة الأم لست أشتمها	من يفترها فنحن منه برا. ⁷¹

وكان المأمون أراد أن يبدي انخيازه إلى العلويين المعتدلين ويتجرد من المتطرفين الضالين منهم. وقد ذكر بعض الناس أن هذا المذهب هو ثامن مراتب التشيع.⁷²

⁶⁸ أنظر شذرات الذهب ج2 ص25، والمتنظم في تاريخ الأمم والملوك ج10 ص248.

⁶⁹ أنظر تاريخ العباسيين ص346، وتاريخ بغداد ج14 ص199-200.

⁷⁰ أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. ولد بمرو وانتقل إلى البصرة مع أبيه سنة 128هـ/745م. وعاد إلى مرو

حيث ولي القضاء. واتصل بالمأمون فأكرمه وقربه. توفي بمرو. (وفيات الأعيان ج5 ص397)

⁷¹ تاريخ العباسيين ص458.

⁷² نفس المرجع ص458.

4) المأمون والقول بخلق القرآن

إن محاولات المأمون الإصلاحية قد غطت أيضا الحياة الفكرية. وقد حاول أن يختار مذهبا رسميا في العقيدة الإسلامية ثم يفرضه على كل العلماء وعامة الناس. ومن بوادر مبادرته هذه إعلانه بخلق القرآن في سنة 212هـ/827م.⁷³

إن هذا كان يعني أن أثر المعتزلة على المأمون قد بلغ ذروته. وقد تأثر بهم في مراحل حياته المختلفة تأثرا بالغا مما أدى إلى أن يحتضن مذهبهم بصورة رسمية. وقد اشتهرت النفوس من هذا القول، كما يقول السيوطي، وكاد البلد يفتن، ولم يلتزم له من ذلك ما أراد.⁷⁴ ويسمي ابن الكثير هذا بدعة فظيعة، قد أخطأ فيها الخليفة المأمون وكل من أيده وشاركه خطأ كبيرا فاحشا، وأثم إثما عظيما.⁷⁵

ولكن كان هذا في نفس الوقت بشرى للمعتزلة وفجر فترة جديدة بالنسبة لهم ولمذهبهم. ولما ابتدع المأمون هذه البدعة فرح بذلك بشر المريسي، وكان شيخ المأمون في ذلك، وأنشأ يقول:

قد قال مأمونا وسيدنا	قولا له في الكتاب تصديق
إن عليا أعني أبا حسن	أفضل من أرقلت به النوق
بعد نبي الهدى وإن لنا	أعمالنا والقرآن مخلوق.

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة بقوله:

يا أيها الناس لا قول ولا عمل لمن يقول كلام الله مخلوق

⁷³ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج 10 ص 249، والبداية والنهاية ج 10 ص 278.

⁷⁴ تاريخ الخلفاء ص 308.

⁷⁵ البداية والنهاية ج 10 ص 291-292.

ما قال ذلك أبو بكر ولا عمر ولا النبي ولم يذكره صديق
 ولم يقل ذلك إلا كل مبتدع على الإله وعند الله زنديق
 عمدا أراد به إحقاق دينكم لأن دينهم والله محروق
 أصبح يا قوم عدلا من خليفتمكم بمسي ويصبح في الإغلال موثق.

فسأل بشر المأمون أن يطلب قائل هذا ويؤدبه على ذلك. فقال المأمون: ويحك، لو كان فقيها لأدبته، ولكنه شاعر فلست أتعرض له.⁷⁶

وفي نهاية المطاف لا نستغرب كثيرا عندما نسمع أن المأمون اعتنق الاعتزال. وذلك حينما نتذكر ونتأمل قابليته وفطرته وميوله نحو طبيعة أفكار المعتزلة. ولذلك منذ أول وهلة بدأ يتعاطم نفوذهم لديه. ونقول أن كل هذا قد تناغم في الحقيقة مع خطط ومشاريع المأمون الإصلاحية، بحيث ود أن يعيد المركزية المطلقة المفقودة ويمسك كل الرعية بقبضته. وبالنسبة للحياة الفكرية فاستطاع أن يشرف عليها وعلى مشاعر سائر الناس باختيار مذهب عقائدي رسمي ويفرضه على الجميع.

وبالنسبة لقابلية المأمون وميوله نحو طبيعة أفكار المعتزلة نذكر هنا مثال تقرب ابن أبي دؤاد أحد كبار المعتزلة يومئذ من المأمون، والذي صار في النهاية قاضي القضاة للدولة. يقول ابن خلكان: كان ابتداء اتصال ابن أبي دؤاد بالمأمون أنه قال: كنت أحضر مجلس القاضي يحيى بن أكثم مع الفقهاء. وجاء ذات يوم رسول المأمون فقال له: يقول لك أمير المؤمنين: انتقل إلينا جميع من معك من أصحابك. فلم يحب يحيى أن أحضر معه ولم يستطع أن يؤخرني. فحضرت مع القوم وتكلمنا بحضرة المأمون، فأقبل المأمون ينظر إلي إذا شرعت في الكلام ويتفهم ما أقول ويستحسنه. ثم قال لي: من تكون؟ فانتسبت له. فقال لي: ما أحرك عنا؟ فكرهت أن أحيل على يحيى بن أكثم فقلت: حبسة القدر وبلوغ

⁷⁶ نفس المرجع ج 10 ص 291-292، وتاريخ العباسيين ص 459.

الكتاب أجله. فقال: لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم اتصل الأمر.⁷⁷

وقبيل الوفاة أوصى المأمون المعتصم: "...وأبو عبد الله أحمد بن أبي دواد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمر، فإنه موضع ذلك، ولا تتخذن بعدي وزيرا". فجعله المعتصم قاضي القضاة وعزل يحيى بن أكنم. ولما صار قاضيا لم يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه. وهو الذي امتحن الإمام أحمد بن حنبل.⁷⁸

ونتذكر أيضا علاقة ثمامة بن الأشرس المعتزلي، وأبي الهذيل، وبشر المريسي، وهشام بن عمرو الفوطي مع المأمون. وكان المأمون تلميذا لأبي الهذيل يجلس إليه ويقربه منه. ولقد بلغ إعجابه به إلى المدى الذي جعله يقول فيه: أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنعام.⁷⁹

ولكن فرض مذهب الاعتزال لم يكن عملية سهلة وبسيطة، ولم يحظ باعتراف واسع لدى الناس. وهذا لأجل قوام وثبات الحياة الفكرية واستقلالها عن الحياة السياسية. وأيضاً لأجل دور ومكانة أئمة الفقه والحديث في المجتمع الإسلامي التي كانت تتطور وتشكل وتتقوى وقتاً طويلاً. فمثلت خطوة الخليفة المأمون هذه حرباً ضد العلماء وأئمة الناس في الفقه والحديث، وفي ذات الوقت الحرب ضد أتباعهم. وذلك خطر عظيم كان المأمون واعياً به وعياً تاماً. ولم يكن الأمر أبداً بمثابة التنازع والتخاصم المذهبي البحت، بل كان

⁷⁷ وفيات الأعيان ج 1 ص 84.

⁷⁸ نفس المرح ج 1 ص 84، تاريخ الإسلام ج 15 ص 26.

ومن الناس من يعتقد أن ابن أبي دواد هو الذي استغل ضعفاً نفسياً لدى المأمون وأجره أن يمتحن العلماء في قضية خلق القرآن. وهو الذي أيضاً كتب الرسائل بنفسه إلى الأمصار بخصوص هذا الشأن، وكان يستعمل اسم المأمون لتكون الحجة ذات أثر بعيد وعميق على نفوس علماء أهل السنة والجماعة وعلى نفوس الناس بصفة عامة. وحجج هذا الزعم أن المأمون بطبيعته لا يغير الناس على مذهب معين كما صرح بذلك أكثر من مرة. ولماذا فجأة في نهاية حياته يمتحن علماء أهل السنة والجماعة ويترل بالبلايا؟ ولماذا قام المأمون بمحنة القرآن وهو خارج بغداد ومعظم العلماء الكبار فيها؟ ولماذا لم يمتحن العلماء لما كان هو مقيماً في بغداد؟ (أنظر ابن حنبل: حياته وعصره - آراءه وفقهه ص 64).

⁷⁹ أنظر الدكتور مصطفى الشكعة: الإمام أحمد بن حنبل ص 125، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، 1984م.

بمثابة دفاع أهل السنة والجماعة عن كونهم حامنين حقيقيين لتعاليم الإسلام وفقهها وتأويلها ثم تطبيقها على الحياة كاملة، بلا بواعث متلوثة ونيات سيئة كما كان شأن بعض الناس كالسياسيين. وكان الأمر أيضا بمثابة دفاع أهل السنة والجماعة ضد كل أنواع التيارات الهدامة لفهم الإسلام وأصولها فهما صحيحا ومستقيما مهما كانت مصدريتها ونوعيتها. وكان وعي الخليفة المأمون العالي بكل هذا سببا أن يصدع بالقول بخلق القرآن أربع عشرة سنة بعد توليته لمنصب الخلافة، وأن يعلن حربا ضد العلماء، أي محنة خلق القرآن، في سنة 218هـ/833م. وذلك بالضبط ست سنوات بعد احتضانه للقول بخلق القرآن، أي ست سنوات طويلة من التردد والخوف والتحفظ والمشاورة.

وعلى هذا يدل بوضوح قول المأمون: لو لا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق. فقليل له: ومن يزيد حتى يتقى؟ فقال: ويحك، إني لأرخصه لا أن له سلطنة. ولكن أخاف إن أظهرته فيرد علي، فتختلف الناس وتكون فتنة.⁸⁰ وفي تاريخ بغداد: "...وتكون فتنة وأنا أكره الفتنة".⁸¹ ويقال أن يزيد بن هارون كان يتشدد في إنكار القول بخلق القرآن وتكفير صاحبه. وقال يوما: "من قال القرآن مخلوق فهو زنديق كافر بالله تعالى".⁸²

ولم يستطع المأمون أيضا أن يفرض الاعتزال على الناس ما دام يحيى بن أكثم قاضي القضاة يتمتع بنفوذ كبير في الدولة والحياة الفكرية. ووجوده كقاضي القضاة مثل عقبة لا يمكن تجاوزها للمعتزلة مما أدى في بعض الأوقات إلى تخاصم واضح بينه وبين المعتزلة.⁸³

⁸⁰ تاريخ الإسلام ج 14 ص 457-458.

ونظر أيضا عن سيرة يزيد بن هارون في تاريخ بغداد ج 14 ص 337-347، وفي التاريخ الصغير لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ج 2 ص 280، تحقيق محمود إبراهيم زابر، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1986م.

⁸¹ تاريخ بغداد ج 14 ص 342.

⁸² تاريخ الإسلام ج 14 ص 458.

⁸³ أنظر طبقات المعتزلة ص 62 و 64.

وكذا كان يحيى بن أكثم يستعمل نفوذه العالي عند المأمون وكان يدفعه عن قرارات خطيرة وغير مناسبة له كإمام للمسلمين، مثل ما حدث عند اعتزام المأمون أن يأمر بلعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر،⁸⁴ ورغبته في تحليل المتعة.⁸⁵

وبعد وفاة يزيد بن هارون بست سنوات أعلن المأمون القول بخلق القرآن. ولكن ليفرض تلك المقالة علي بقية الناس عليه أن يعهد يحيى بن أكثم أو يقلل نفوذه في الدولة. وهذا بالضبط ما كان يفعله المأمون خلال سنوات طويلة ليسمح لابن أبي دؤاد أن يحل محله. وقبيل وفاة المأمون لما قل وخف نفوذ يحيى بن أكثم أجرى المأمون محنة خلق القرآن على العلماء.

وقد توفي المأمون في نفس السنة التي أجرى المحنة والبلايا على العلماء، وقد أورد في وصيته لأخيه المعتصم: "وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك. فإنه موضع ذلك، ولا تتخذن بعدي وزيراً." ⁸⁶ وفي تاريخ الإسلام للذهبي: "وأبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك. ولا تتخذن بعدي وزيراً. فقد علمت ما نكبتني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس، وخبث سريته حتى أبعدته." ⁸⁷

وكانت هذه الوصية إشارة بيّنة إلى المعتصم أن يكمل ما ود المأمون أن يفعله، ألا وهو إبعاد يحيى بن أكثم عن القضاء إبعاداً تاماً لتجري عملية المحنة بلا تعطيله إياها. وقد فقه المعتصم رسالة أخيه وأخذها بقوة، فطرد يحيى عن منصب قاضي القضاة وعين أحمد بن أبي دؤاد وواصل المحنة بشدة عظيمة.⁸⁸

⁸⁴ مروج الذهب ج 4 ص 41.

⁸⁵ تاريخ بغداد ج 14 ص 199-200.

⁸⁶ وفیات الأعيان ج 1 ص 84.

⁸⁷ تاريخ الإسلام ج 15 ص 26، قارن هذه الروايات برواية الطبري ج 8 ص 649.

⁸⁸ أنظر وفیات الأعيان ج 1 ص 84، تاريخ بغداد ج 14 ص 201.

ونتساءل هنا لماذا حاول الخليفة المأمون أن يفرض القول بخلق القرآن ليصير مقالة رسمية للدولة؟ ونتساءل هل كانت للمأمون، وللحكام بصفة عامة، مآرب أخرى وراء احتضان هذا الاعتقاد، بجانب كونه اعتقاداً معتزلياً محضاً والمأمون أصبح أحدهم؟

فمن الناس من يقول أن المأمون اعتنق القول بخلق القرآن ليوسع دائرة سلطته وسيادته في الدولة. هذا لأن كون القرآن مخلوقاً يتضمن احتمالاً أن يقول الله تعالى شيئاً آخر في وقت آخر. ومن ثم اقتدر الخليفة، وهو خليفة الله في الأرض وفق زعم العباسيين، وإمام المسلمين أن يتصرف بالقرآن وينسخ بعض نصوصه ويضيف الأخرى بحرية غير مقيدة.⁸⁹

ومن الناس أيضاً من يزعم أن الخليفة المأمون اعتنق القول بخلق القرآن ليخفف نفوذ العلماء المتزايد من يوم إلى آخر في الدولة. وإن كان القرآن قديماً والعلماء لهم سلطة ونفوذ فوق تفسيره وتشكيل القوانين، فمكانة الحكام وسلطتهم لكانت مخضعة لهم ومراقبة بهم ومنوطة بمكانتهم وسلطتهم في المجتمع. وإن كان القرآن في ناحية أخرى مخلوقاً فنستطيع دائماً أن نفترض أن الله سبحانه وتعالى طاق أن يخلق غيره أو على الأقل مخالفه لحد معين، وذلك التخمين لم يزل حتى في وقتنا الراهن. وبالتالي تسنى للخلفاء أن يروجوا فكرة كونهم خلفاء الله في الأرض بسبل سهلة، وأن يتصرفوا بإصدار وتشكيل القوانين في الدولة بحرية كاملة. وكان ذلك يعني أيضاً نفوذ مطلق للحكام وتخفيض نفوذ وتقليل وتقييد مكانة ودور العلماء.⁹⁰

إننا نرفض القولين المذكورين رفضاً تاماً لأنهما يدلان على الأعمال التي تخرج الإنسان من إطار الإيمان ويدخله في الإلحاد والارتداد. وثمة في القرآن نفسه آيات وفيرة تتكلم عن كون القرآن محفوظاً من أي نوع من التغيير والتبديل والتحريف وأن الله تعالى يتكفل

⁸⁹ Faith and Power: The Politics of Islam: page 51.

⁹⁰ Islamic Philosophy and Theology: page 35.

And also: The Formative Period of Islamic Thought: page 179.

بحفظه، لأنه آخر كتاب أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء لا نبي بعده. قال الله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾⁹¹ وذلك ألا يجعل القرآن يصيبه ما أصاب الكتب السماوية قبله من التحريف والتبديل على يد الذين أنزلت لهم بعد وفاة رسلهم.

وقال الله تعالى ايضا: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله. قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي. إن أتبع إلا ما يوحى إلي. إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾⁹² إذن حتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستطع أن يبدل أي شيء من القرآن ولم يتبادر إلى ذهنه شيء من هذا القبيل، وكان مأمورا فقط أن يتبع ما يوحى إليه وكيف بغيره من الناس.

ونحسب أن المأمون عرف ذلك وكانت له دراية مطلقة بالأمر. وفي نهاية المطاف كان المأمون مسلما مؤمنا له سيرة طويلة مملوءة بمحاسن كثيرة جدا، فلماذا يجر على نفسه الكفر وسخط الرعية، وفوق كل ذلك سخط وغضب الله تعالى، وكل ذلك في آخر مرحلة من حياته. قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزما، وعزما، وحلما، وعلماء، ورأيا، ودهاء، وهيبة، وشجاعة، وسؤددا، وسماحة، وله محاسن، وسيرة طويلة لو لا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه. وكان فصيحاً مفوهاً، وكان يقول: معاوية بعمره، وعبد الملك بحجاجة، وأنا بنفسي. وعن أبي معشر المنجم: كان المأمون أمارا بالعدل، فقيه النفس، يعد من كبار العلماء.⁹³

فماذا إذن أراد المأمون باحتضان القول بخلق القرآن ثم فرضه على بقية الناس في الدولة الإسلامية؟

⁹¹ سورة الحجر 9.

⁹² سورة يونس 15.

⁹³ تاريخ الخلفاء ص 306-307.

إننا نحس أن المأمون والناس حوله أرادوا بذلك الاعتقاد أن يخفضوا قداسة القرآن الكريم إذ كان من المستبعد أن يزيلوها. فبفصل القرآن عن ذات الله تعالى القديمة الأزلية وبعض صفاته الأزلية، ثم جعله مخلوقاً مصنوعاً في وقت معين، استطاع المأمون ومن حوله أن يجعلوا القرآن بمثابة أعلى مصادر الأوامر والنواهي والقوانين كما هو في جوهره، وكذلك متاحاً ومعرضاً لطرق وأساليب فهمه المتباينة وغير المحددة وأحياناً المنحرفة. وبذلك أعطيت للناس حرية أوفر في تأويل وتفسير وفهم نصوصه، وفي نفس الوقت ظل الناس بعيدين عن الاتهام بالكفر والإلحاد والارتداد، أو على الأقل كان ذلك الأمر صعب التحقيق. وهذا بالضبط ما كان يحتاجه المأمون في تحقيق وتنفيذ خططه وبرامجه السياسية. ولا ننسى في هذا الصدد كثرة برامجه وخططه وبدعه السياسية التي اتخذها قبل صيرورته معتزلياً وفرض ذلك المذهب، والتي فشلت كلها لأجل عدم وجود أدلة وقدرة ثابتة لترويجها لدى العلماء والناس. ومن أفضل أمثلة تفسير وفهم النصوص القرآنية بطرق وأساليب غريبة باسم العلم والإصلاح فقه المأمون لبعض النصوص لما حاول أن يثبت أن القرآن مخلوق وليس بقلتم.⁹⁴

ولتحقيق هذا المشروع كان المأمون في حاجة ماسة إلى العلماء الذين يتعاونون معه ويرافقونه ويؤيدونه في إدراك أهدافه وغاياته. ولما كان علماء أهل السنة والجماعة رافضين لأفكار المأمون الرئيسية فلم يجد إذن ملجأ إلا عند المعتزلة الذين كانوا ينبوع مقالة خلق القرآن منذ فجر علم الكلام في مجال الفكر الإسلامي، والذين أثروا في المأمون وانفعل لهم منذ أول لحظة من خلافته. ونقول أن اعتناق القول بخلق القرآن ثم بعد ذلك امتحان الناس فيه على يد الخليفة المأمون كان أوج التعامل الحسن والتعاون المتبادل بينه وبين المعتزلة.

⁹⁴ إننا سنرى ذلك إذا كنا بصدد تفصيل الحق.

وفي سنة 218هـ/833م قرر المأمون أن يبدأ بإجراء المحنة على الناس وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم (ت235هـ/850م) صاحب الشرطة ببغداد طالبا منه أن يمتحن القضاة والمحدثين: "أما بعد فإن من حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم والتشهير لطاعة الله فيهم، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريته والإقسط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته. وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به. ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وحفائهم عن التفكير والتذكر. وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قدم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه. وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء، وللمؤمنين رحمة وهدى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾⁹⁵ فكل ما جعله الله فقد خلقه، وقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾⁹⁶ وقال عز وجل: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾⁹⁷ فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها وتلا به متقدمها، وقال: ﴿المر، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾⁹⁸ وكل محكم مفصل فله محكم مفصل. والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه.

⁹⁵ سورة الزخرف 3.

⁹⁶ سورة الأنعام 1.

⁹⁷ سورة طه 99.

⁹⁸ سورة هود 1-2.

ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ومبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم ونخلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة. فاستطالوا بذلك على الناس، وأغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب، والتخشع لغير الله، والتكشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سئى آرائهم، تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم. فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم، ونغل أديهم، وفساد نياهم ويقينهم. وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} ⁹⁹

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورعوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، لا يوثق بقوله ولا عمله. فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد. ومن عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً. ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته، من كذب على الله ووحيه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه، وبغت حق الله بباطله.

فاجمع من بحضرتك من القضاة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابداً بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه. وأعلمهم أن

أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله، واستحفظه من أمور رعيته. بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبقينه. فإذا أقرروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم. والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله".¹⁰⁰

ثم بعد ذلك كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبع نفر، منهم محمد بن سعد¹⁰¹ (ت 230هـ/845م) كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب¹⁰² (ت 234هـ/849م)، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدورقي. فأشخصوا إليه فسألهم وامتنحهم عن القرآن فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق فأعادهم إلى بغداد. فأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث فأقروا بذلك فخلى سبيلهم.¹⁰³

وكتب المأمون أيضاً إلى إسحاق بن إبراهيم: "أما بعد، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه، وأمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسننه والائتمام بعدله في بريته، أن يجهدوا لله أنفسهم، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم، ويدلوا عليه بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويهدوا إليه من زاغ عنه، ويردوا من أدبر عن أمره، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم،

¹⁰⁰ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 631-634، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج 11 ص 15-18.

¹⁰¹ مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. صاحب بغداد فتوي فيها. صحب الواقدي المؤرخ زماناً فكتب له وروى عنه، وعرف بكتابت الواقدي. أشهر كتبه "الطبقات الكبرى". (تاريخ بغداد ج 5 ص 321)

¹⁰² محدث بغداد في عصره. له كتاب "العلم". أكثر الإمام مسلم من الرواية عنه. (تاريخ بغداد ج 8 ص 482)

¹⁰³ الكامل في التاريخ ج 6 ص 3، وجمال الدين أبي الحسن يوسف الاتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 2 ص 219، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، دون سنة الطبعة، وتاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 634.

ويقفونهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ويكشفوا لهم مغطيات أمورهم ومشتبهاتهم عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعود بالضياء والبيئة على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعا لفنون مصانعتهم، ومنظما لحفظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا ما الله مرصد من مساءلتهم عما حملوا، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده. وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بينه أمير المؤمنين برويته، وطالعه بفكره، فتبين عظيم خطره، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره، ما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم، وأثرا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصفيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم باقيا لهم، واشتباهه على كثير منهم، حتى حسن عندهم، وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقا، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به من خلقه، وتفرد بجلالته، من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته، والتقدم عليه بأوليته التي لا يبلغ أولاهها، ولا يدرك مداها. وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه، وحدثا من المحدث له. وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في دعائهم في عيسى بن مريم: إنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾¹⁰⁴ وتأويل ذلك أنا خلقناه كما قال عز وجل: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾¹⁰⁵ وقال: ﴿وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا﴾¹⁰⁶ ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾¹⁰⁷ فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده، وقال: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾¹⁰⁸ فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط إلا بمخلوق. وقال لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾¹⁰⁹ وقال: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾¹¹⁰ وقال:

¹⁰⁴ سورة الزخرف 3.

¹⁰⁵ سورة الأعراف 189.

¹⁰⁶ سورة النبا 11.

¹⁰⁷ سورة الأنبياء 30.

¹⁰⁸ سورة العروج 21-22.

¹⁰⁹ سورة القيامة 16.

¹¹⁰ سورة الأنبياء 2.

{ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته} ¹¹¹ وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا: {ما أنزل الله على بشر من شيء} ¹¹² ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: {قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى} ¹¹³ فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرنا وإمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا وقصصا، فقال: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن} ¹¹⁴ وقال: {قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله...} ¹¹⁵ وقال: {قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات} ¹¹⁶ وقال: {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} ¹¹⁷ فجعل له أولا وآخرا، ودل عليه أنه محدود وخلوق. وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم، والخرج في أمانتهم، وسهلوا السبل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده، وشبهوه به، والاشتباه أولى بخلفه. وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين، ولا نصيبا من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة في أمانة، ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرعية. وإن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم، فإن الفروع مردودة إلى أصولها، ومحمولة في الحمد والذم عليها، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا.

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك، وانصصها عن علمهما في القرآن، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر

¹¹¹ سورة الأنعام 21.

¹¹² سورة الأنعام 91.

¹¹³ سورة الأنعام 91.

¹¹⁴ سورة يوسف 3.

¹¹⁵ سورة الإسراء 88.

¹¹⁶ سورة هود 13.

¹¹⁷ سورة فصلت 42.

بأن القرآن مخلوق. فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق، ونصهم عن قولهم في القرآن. فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته، ولم يقطعا حكما بقوله، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد قبي أمره. وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته، ويمنع المرتاب من إغفال دينه. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك، إن شاء الله".¹¹⁸

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين منهم الإمام أحمد بن حنبل، فأدخلوا جميعا على إسحاق فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتى فهموه ثم امتحنهم رجلا رجلا، فأجاب بعضهم وألح بعض آخر¹¹⁹ على القول بأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق. فلما امتحن أحمد بن حنبل أجاب قائلا: هو كلام الله. قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد عليها. فامتنحنه بما في الرقعة فلما أتى على "ليس كمثله شيء قال: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}"¹²⁰ وأمسك عن لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني، ولا وجه من الوجوه. فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر فقال: أصلحك الله إنه يقول: سميع من أذن، بصير من عين، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله: "سميع بصير"؟ قال: هو كما وصف نفسه. قال: فما معناه؟ قال: لا أدري، هو كما وصف نفسه.¹²¹ فكتب إسحاق بن إبراهيم مقالات جميع العلماء الممتحنين ثم أرسلها إلى المأمون. فلما جاء جواب المأمون الشامل على الرد على من لم يقطعه ويجب بالقول بخلق القرآن استدعاهم إسحاق مرة ثانية فقرأ عليهم جوابه كما يلي:

"... فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وادعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أمير المؤمنين فقد كذب بشر في ذلك

¹¹⁸ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 634-637.

¹¹⁹ أنظر عن جميع هؤلاء في تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 639.

¹²⁰ سورة الشورى 11.

¹²¹ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 639، والكامل في التاريخ ج 6 ص 5-6، والعلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايع ص 198.

وكفر، وقال الزور والمنكر. ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص، والقول بأن القرآن مخلوق. فادع به إليك وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأنصصه عن قوله في القرآن، واستتب منه. فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح، والشرك المحض عند أمير المؤمنين. فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه. وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده فاضرب عنقه، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله.

وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا. فإنه كان يقول بقوله. وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ. فإن قال: إن القرآن مخلوق فأشهر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألسن القاتل لأمر المؤمنين: إنك تحلل وتحرم، والمكلم له بمثل ما كلمته به، مما لم يذهب عنه ذكره!

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله، وأنه لو كان مقتفيا آثار سلفه، وسالكا مناهجهم، ومحتذيا سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن فأعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه، جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك، إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها.

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك. فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته، فليس بمستكر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما، وإيثارا لعاجل نفعهما، وأنه مع ذلك القائل لعلي بن هاشم ما قال، والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره.

وأما الزيادي فأعلمه أنه كان منتحلا ولا كأول دعي كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جديرا أن يسلك مسلكه، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد أو يكون مولى لأحد من الناس، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور.

وأما المعروف بأبي نصر التمار فإن أمير المؤمنين شبه حساسة عقله بحساسة متجره.

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصا بمن استودعه، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده. ولا سبيل عليه عن تقادم عهده، وتطاول الأيام به. فقل لعبد الرحمن بن إسحاق: لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا واتمانك إياه، وهو معتقد للشرك منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم¹²² (ت235هـ/850م) وابن نوح (ت218هـ/833م) والمعروف بأبي معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لا يستحل ذلك. فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصار للنصارى مثالا!

¹²² من حفاظ الحديث. كان يعرف بالسمين. له كتاب "تفسير القرآن" كتبه الناس عنه ببغداد. (الأعلام ج6 ص75)

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجه من المال الذي كان استحلّه من مال علي بن هشام، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه.

وأما سعدويه الواسطي فقل له: قبح الله رجلاً بلغ به التصنع للحديث، والترين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يتمنى وقت المحنة، فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث.

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه شغله بإعداد النوي وحكه لإصلاح سجاده وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وأهلاه. ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد ابن الحسن يقولانه، إن كان شاهدهما وجالسهما.

وأما القواريري ففيما تكشف من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات، ما أبان عن مذهبه وسوء طريقته وسخافة عقله ودينه. وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولى لجعفر بن عيسى الحسيني مسائله، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه، وترك الثقة به والاستئمان إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه، وإنه بعد صبي يحتاج إلى تعلم.

وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبي مسهر بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فجمعهم عنها ولجلج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقر ذميماً، فأنصبه عن إقراره، فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره، إن شاء الله.

ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فأحلمهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين، ويسلمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه لينصهم أمير المؤمنين. فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف، إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله...¹²³

فلما امتحن إسحاق بن إبراهيم هؤلاء العلماء من جديد أحاب كلهم إلا أحمد بن حنبل وسجادة والقواريري ومحمد بن نوح المضروب. ولذلك شدوا في الحديد. فلما كان من الغد أعيدت المحنة عليهم فأجاب سجادة إلى أن القرآن مخلوق فأمر إسحاق بإطلاقه فخلى سبيله. فلما كان من بعد الغد أعيدت المحنة على البقية فأجاب القواريري إلى أن القرآن مخلوق فأمر إسحاق بإطلاقه فخلى سبيله. ولم يبق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فأصرا على إنكار القول بأن القرآن مخلوق، فشدا في الحديد. وكتب إسحاق بن إبراهيم إلى المأمون يخبره بآخر تطورات المحنة. وجاء رد المأمون وفيه: "...قد فهم أمير المؤمنين ما أحاب القوم إليه، وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخير أن بشر بن الوليد تأول الآية التي أنزلها الله في عمار بن ياسر: {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان}¹²⁴ وقد أخطأ التأويل. إنما عني الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقدا الإيمان مظهر الشرك. فأما من كان معتقدا الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له. فأشخصهم جميعا إلى طرسوس ليعيدوا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم".¹²⁵ فخرج القوم فلما صاروا إلى الرقة بلغتهم وفاة المأمون ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد.¹²⁶

¹²³ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 640-644، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج 11 ص 20-24.

¹²⁴ سورة النحل 160.

¹²⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 644-645.

¹²⁶ البداية والنهاية ج 10 ص 287.

ولم تقتصر المحنة على علماء بغداد فحسب بل جرت في الأمصار الأخرى من الدولة الإسلامية مثل دمشق، الكوفة ومصر.¹²⁷ وفي نفس السنة التي أرسل المأمون رسائله إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم أرسل أيضا رسالته إلى واليه على مصر كيدر¹²⁸ (ت219هـ/834م) طالبا منه أن يمتحن القضاة وسائر العلماء في مسألة خلق القرآن. وكان القاضي بمصر يومئذ هارون بن عبد الله الزهري¹²⁹ (ت232هـ/846م)، فأجاب القاضي والشهود. ومن توقف منهم عن القول بخلق القرآن سقطت شهادته. وأخذ كيدر يمتحن القضاة وأهل الحديث وغيرهم. وكانت رسالة المأمون إلى كيدر يتضمن تقريرا نفس المعاني التي تضمنتها رسالته الأولى إلى إسحاق بن إبراهيم.¹³⁰

وقبل الوفاة أوصى المأمون أخاه المعتصم أن يستمر ويواظب على امتحان العلماء في قضية القرآن دون التردد والرحمة.¹³¹ وكان جميع المشاكل التي كانت تواجهها الأمة الإسلامية وتعاين منها وقتئذ قد حلت واستطاع الحكام أن يتصدوا لها ولم تبق إلا مسألة القرآن أهو مخلوق أم قديم. وفعلا استمرت المحنة طوال خلافة المعتصم والوائق من بعده حتى عهد المتوكل على الله الذي ألغى القول بخلق القرآن وطرد وشرذ المعتزلة الذين قد تجمعوا حول عرش الخلافة وتحالف من جديد مع علماء أهل السنة والجماعة. ولذلك قال إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة: "الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا له. وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بني أمية. والمتوكل محا البدع وأظهر السنة".¹³²

¹²⁷ أنظر ولتر ملفيل ياتون: أحمد بن حنبل والمحنة ص104-106، ترجمة عبد العزيز عبد الحق، دار الهلال، 1957م.

¹²⁸ هو نصر بن عبد الله أبو مالك المعروف بكيدر. ولي مصر في أواخر أيام المأمون، أي سنة 217هـ/832م. وتوفى المأمون وهو في

الإمارة فأقره الخليفة المعتصم. (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج2 ص218، الأعلام ج8 ص24)

¹²⁹ هو من ذرية عبد الرحمن بن عوف. فقيه مالكي من القضاة. له شعر. من أهل مكة. نزل بغداد. ولاه المأمون قضاء مصر سنة

217هـ/832م. لما وقعت محنة خلق القرآن ألزمه الحكام أن لا يقبل شهادة من لا يقر بذلك، ففعل. ثم صار يتسامح فصرف سنة

232هـ/846م. وقيل عنه أنه أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك. (مرآة الجنان ج2 ص107، الأعلام ج8 ص61)

¹³⁰ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج2 ص218-219.

¹³¹ تاريخ الإسلام ج15 ص26، وفيات الأعيان ج1 ص84.

¹³² مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص482.

وأنشد أبو جعفر الخواص بعبادان بعد زوال المحنة:

ذهبت دولة أصحاب البدع	ووهى حبلهم ثم انقطع
وتداعى بانصراف جمعهم	حزب إبليس الذي كان جمع
هل لهم يا قوم في بدعتهم	من فقيه أو إمام يتبع
مثل سفيان أخي الثور الذي	علم الناس دقيقات الورع
أو سليمان أخي التيم الذي	ترك النوم لهول المطلع
أو فقيه الحرمين مالك	ذلك البحر الغزير المنتجع
أو فتى الإسلام أعني أحمدًا	ذاك لو قارعه القراء قرع
لم يخف سوطهم إذ خوفوا	لا ولا سيفهم لما لمع ¹³³

6) نتائج المحنة

إن المحنة مثلت عنفوان الصراع بين العلماء وبين الحكام من جانب، وعنفوان الصراع بين المعتزلة وبين علماء أهل السنة والجماعة من جانب آخر. وإن جميع العناصر المبعثرة التي كانت تتأصل وتتواجد في نشأة وتطور علم الكلام، ثم نشأة وتطور ظاهري الشعوبية والزندقة ومكافحة الحكام العباسيين إياها قد اتحدت وتجسمت في عصر الخليفة المأمون، أو بالأحرى في شخصيته.

ومن أعظم أخطاء المأمون التي اقترفها في شأن خلق القرآن مسه لجوهر الحياة الفكرية ثم محاولته لإزالته وتبديله بجوهر آخر. إن عواقب هذه العملية كانت حقا وخيمة. فظل الصراع بهذا الشكل طوال حكم المعتصم والواثق ولكن دون علامة ضعف، أو استكانة أو استسلام من العلماء. وفي عصر الخليفة المتوكل على الله توقفت المحنة بانحزام رجال المعتزلة والسلطة التي كانت تتشفع لها. وقد خرجوا من الصراع مفضوحين ناكسين رؤوسهم.

¹³³ نفس المرجع ص 484.

وفي ناحية أخرى ازدادات وتقوت سمعة وصفوف علماء أهل السنة والجماعة، وصاروا كلهم صناديد وأبطالاً في أعين الناس.

وبالنسبة لمحاولة المأمون أن يستولي على العلماء ومناهج فكرهم وفهمهم، فإن ذلك ينعكس بوضوح في محتويات الرسائل التي كان يرسلها إلى إسحاق بن إبراهيم عارضا عليه خطط الخنة وطالبا منه امتحان جميع العلماء. فلم يرغب في امتحان العلماء في شأن خلق القرآن أو قدمه فحسب، بل رغب في فرض مناهج وطرق جديدة للفكر وفهم الإسلام. وبذلك كان المأمون بلا شك يروج لمذهب المعتزلة ولمناهج فكرهم، وفي ذات الوقت يدعو الناس إلى قبوله. فرأينا أن المأمون يسمي علماء أهل السنة والجماعة علماء الضلالة والجهل، ضلوا فأضلوا غيرهم من الناس، وتركوا الحق إلى باطلهم. ويسميههم أيضاً علماء دون بصيرة وقدرة على أن يفقهوا الإسلام والتوحيد بطريقة صحيحة. ويحاول أيضاً أن يضر ويؤذي مكانتهم وسمعتهم عند الناس بترديد تهمه ضدهم والتركيز على علاقتهم السيئة وآثارهم الهدامة على الناس. وحتى تجرأ المأمون أن يتهمهم بالكفر والشرك الذين يجرون غيرهم إليهما.

ولكن لاحظ من الخنة بعض الحقائق التي لم تكن بينة تماماً لكل واحد من قبل. ومنها أن للسلطة السياسية حدوداً في القضايا الدينية لا يمكن تعديها. وتحدث مجريات أحداث الخنة أن المعارضة التي لقيها المأمون لسلطته في مجالي العقيدة والتشريع كانت صارمة وغير قابلة للانكسار. وأرت مجريات أحداث الخنة أيضاً أن المبدأ الأعلى للطاعة هو القرآن والسنة وليس الخليفة، وخاصة إن لم يستوعب ذلك الخليفة تعليمات وإرشادات القرآن والسنة بأكملها ثم يترجمها على الواقع ثم على تصرفاته الشخصية. فالخليفة لا يصح أن يطاع إن خرج على القرآن والسنة. كما أنه ليس الخليفة هو المسئول عن حراسة وحفظ الكتاب والسنة بل الجماعة الإسلامية بزعامة القيادة الفكرية الدينية. والجماعة يقودها القرآن والسنة وليس توجيهات الخليفة.

وفي ضوء هذا القول نرى علماء أهل السنة والجماعة لا يستكينون أمام اضطهادات وضربات الحكام ليقبلوا القول بخلق القرآن. وإنهم لم يعملوا ذلك لأجل أسباب ودوافع شخصية، وإنما تيقنوا بأن الناس وراءهم متبعون وهم قيادتهم. وكان يعني القبول قبول جميع هؤلاء ثم انتشار الفتنة والضلالة. وعن أبي جعفر الأنباري أنه قال: لما حمل أحمد بن حنبل إلى المأمون أخبرت فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان. فسلمت عليه فقال: يا أبا جعفر تعينت. فقلت: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليحيين خلقي، وإن أنت لم تحب ليمتنعن خلق من الناس كثير. ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، لا بد من الموت، فأتق الله ولا تحب. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله. ثم قال: يا أبا جعفر أعد علي، فأعدت عليه وهو يقول ما شاء الله.¹³⁴

وعن أحمد بن غسان أنه قال: حملت أنا وأحمد بن حنبل في محمل على جمل يراد بنا المأمون. فبينما نحن نسير إذ قرع المحمل قارع فأشرف أحمد فإذا برجل يعرفه بالصفة، وكان لا يأوى المدائن والقرى، وعليه عباءة قد شدها على عنقه فقال: "يا أبا عبد الله إن الله قد رضيك له وافدا فانظر لا يكون وفودك على المسلمين وفودا مشؤما. واعلم أن الناس إنما ينتظرونك لأن تقول فيقولوا. واعلم أنما هو الموت والجنة".¹³⁵

وقال صاحب النجوم الزاهرة: "والإمام أحمد بن حنبل هو أعظم من قام في إظهار السنة وثبته الله على ذلك. ولولاه لفسدت عقائد جماعة كثيرة. وقد تداولته الخلفاء بالعقوبة على القول بخلق القرآن وهو يمتنع من ذلك أشد امتناع، ويأتي بالأدلة القاطعة إلى أن خلصه الله منهم وهو على كلمة الحق".¹³⁶

¹³⁴ سير أعلام النبلاء ج 11 ص 239.

¹³⁵ حلية الأولياء ج 9 ص 195.

¹³⁶ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج 2 ص 221.

وقبل بجيء المأمون وامتحانه للعلماء كان العلماء يصرحون صراحة بينة وقوية عن معارضتهم للقول بخلق القرآن وأصحابه. فما نسمعه من فم العلماء الذين عاصروا المأمون وفي جبهتهم الإمام أحمد بن حنبل ليس شيئا جديدا في صعيد الفكر الإسلامي. وإن جذور المعارضة لتلك المقالة والذين كانوا يشيعونها قديمة بقدم المقالة نفسها. فعن سفيان الثوري أنه قال: "القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. فمن قال غير هذا فهو كافر".¹³⁷

وقد سئل الأوزاعي عن بدعة خلق القرآن فأجاب: "أصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم".¹³⁸ إن علة عدم تشدد الأوزاعي في اتهام أصحاب القول بخلق القرآن أن أهل الشام ظلوا في غفلة من هذه البدعة وبعيدين من نتائجها السيئة حتى قذفها إليهم بعض أهل العراق ممن دخل في تلك البدعة بعدما ردها عليهم فقهاؤهم وعلمائهم، فأشربها قلوب طوائف من أهل الشام واستحللتها ألسنتهم وأصاحم ما أصاب غيرهم من الاختلاف فيه.¹³⁹

وعن سفيان بن عيينة¹⁴⁰ (ت 198هـ/814م) أنه قال: "السنة عشرة، فمن كن فيه فقد استكمل السنة، ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة". ومنها القول أن القرآن ليس بمخلوق.¹⁴¹

وقد أنكر أبو حنيفة أيضا كون القرآن مخلوقا.¹⁴²

¹³⁷ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 151، وتاريخ بغداد ج 13 ص 377.

¹³⁸ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 154، والحجة في بيان المحجة في شرح عقيدة أهل السنة ص 102.

¹³⁹ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 155.

¹⁴⁰ محدث الحرم للمكي. من الموالى. ولد بالكوفة وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظا ثقة، واسع العلم كبير القدر. قال الإمام

الشافعي: "لو لا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز". (حلية الأولياء ج 7 ص 270، وفیات الأعيان ج 2 ص 391)

¹⁴¹ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج 1 ص 155.

¹⁴² تاريخ بغداد ج 13 ص 377.

وعن مالك بن أنس أنه قال في القرآن: "كلام الله وهو منه، وليس من الله شيء مخلوق". وعمن زعم أن القرآن مخلوق قال: "كافر زنديق أقتلوه".¹⁴³

وموقف الشافعي معروف، وذلك لما ناظر بعض المعتزلة في هذه المسألة.¹⁴⁴

وبالجملة فإن علماء أهل السنة والجماعة جميعا متفقون على أن كلام الله وبالتالي القرآن الكريم غير مخلوق. واتفقوا أيضا على نقد ومواجهة الذاهيين إلى القول بمخلق القرآن من المعتزلة وغيرهم. ولأجل ذلك لا يندر أن نعثر على مناظرة شديدة جرت بين علماء أهل السنة والجماعة وعلماء المعتزلة بخصوص هذه القضية. فقد سبق أن أشرنا إلى مناظرة الشافعي مع بعض المعتزلة، وسنذكر أيضا مناظرة عبد العزيز الكناني مع المريسي في حضور الخليفة المأمون، فقطعه عبد العزيز الكناني.¹⁴⁵

وهكذا امتحن خليفة المسلمين المأمون العلماء في الأمصار ليفرض عليهم مذهب الاعتزال ويجعله مذهبا رسميا عقائديا للدولة الإسلامية. ولكن المشروع لم يكن ناجحا لأجل النيات الفاسدة للمأمون والناس من حوله من ناحية، ولأجل كون الاعتزال بديلا غير مناسب وغير لائق لما كان يعطيه علماء أهل السنة والجماعة من التحاليل والفكر في مجال العقيدة والتشريع من ناحية أخرى. وكذلك من أجل صرامة وقوام وثبات الحياة الفكرية الدينية وأهلها من ناحية ثالثة. وكانت حصيلة المحنة الرئيسية اهتزاز ووهن السلطان وفشل المعتزلة وفضحهم لدى الناس، في حين أن العلماء قووا وامتدوا صفوفهم وسمعتهم، وخرجوا من المحنة فائزين غالبين على الباطل ومن قام بإفشائه في المجتمع الإسلامي.

¹⁴³ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج1 ص249.

¹⁴⁴ أنظر تاريخ ابن الوردي ج1 ص293.

¹⁴⁵ أنظر شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ج1 ص211.

خاتمة

في خاتمة هذا البحث أريد أن أتناول أهمّ النتائج التي توصلت إليها:

إن الفكر الإسلامي عبارة عن مواقف اجتهادية للعقل المسلم مبنية على الوحي الإلهي وإرشاداته النبيلة. وعليه، فهذا الفكر ليس هو الإسلام نفسه، ويجب ألا يختلط به لأن خلطه به يؤدي إلى إقحام الفكر البشري في الوحي الإلهي. أما مفهوم السياسة في الإسلام فهو من أكثر الأمور تعقيدا وتشابكا عند البحث والدراسة، وفي مقدمة عوامل ذلك الفصام بين العلماء والحكام الذي أحدث حيرة عند عدد غفير من العلماء في حين، وترددا وخوفا لديهم في حين آخر، في تناولهم للموضوعات السياسية تناولا يوافق كلّ من تعليمات الإسلام وواقع المجتمع الإسلامي.

ولقد وضعت بذرة أولى للفصل بين العلماء والحكام أثناء التوترات السياسية والاجتماعية قبيل اهتزاز أوضاع الدولة الراشدة، أي بقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان وإفضاء الخلافة إلى الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب وما اصطحب ذلك من الحروب الأهلية. وبعد زوال الخلافة الراشدة انتقل الحكم إلى بني أمية واستتبّ في حضنهم بطريقة العنف والقهر والدهاء. ومما ترتب على ذلك أن تغيرت قاعدة سياسية أصلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان هو نفسه والخلفاء الراشدون من بعده يمارسونها. في الحقيقة كانت وظلت الدولة الجديدة الأموية دولة إسلامية تستمدّ قوتها الروحية والمادية وتوجيهاتها ودستورها من الإسلام، إلا أن الإسلام وعقيدته أخضعت لمنطق السياسة والدولة، وذلك بخلاف ما كان يحدث في دولة الخلفاء الراشدين.

لأجل تجاوز بعض الأمويين عن القواعد التي وضعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والخلفاء الراشدون مثل الشورى وبعض الأمور الإدارية مما جعل دولتهم تفتّر من ضربات

داخلية متنوعة ومن كل جهة طوال حياتها، وأخيرا غلبوا على يد العباسيين. ولقد استثمر العباسيون مواضع الضعف لدى الأمويين وركزوا عليها كل التركيز أثناء دعوتهم ثم ثورتهم. ومن تلك المواضع إهمال الأمويين لمفهوم الجماعة والشورى، وإنشاء ولاية العهد حيث يرث الخلافة الابن عن الأب، دون تمحيص لقدراته العقلية والنفسية، ودون اعتبار آراء سائر الناس، ولا سيما أهل الحل والعقد أي القيادة العلمية الدينية، واستهانتهم ببعض أطراف الأمة الإسلامية مثل الفرس، وتشددهم في إخماد ثورات الثائرين عليهم مثل العلويين والخوارج وهلم جر. وتبدت بوضوح اهتمامات العباسيين بكل هذا في وضع أصول دعوتهم ضد الأمويين. فجعلوا خراسان مركز دعوتهم، ونادوا إلى البيعة للرضا من آل محمد ولم يجهروا بتعيين أحد وراء ذلك، ودعوا الناس إلى إصلاح الأوضاع الرديئة التي ولدتها سياسة الأمويين، فرفعوا شعار "العمل بالكتاب والسنة"، كما تسامحوا وتعاونوا مع بعض الأحزاب المنحرفة والديانات الفارسية الأخرى لينالوا تأييد أكبر عدد ممكن من الناس مهما كانوا، ما داموا يتوطنون في الدولة الإسلامية.

ولما جاء العباسيون إلى الحكم موهوا شيعهم وخاصة العلويين والفرس قبل أن يستقر الحكم في حضنهم. ولكن لما أحسوا بالقوة والثقة وأن زمام الحكم قد صار تماما إليهم وأخذ يستقر عندهم بدأوا يبعدون المولدين عليهم غير العباسيين عن عرش الحكم. فواصل العلويون ثورتهم كما كانوا يفعلون في الدولة الأموية زاعمين أن العباسيين اغتصبوا الحكم بقوة وقهر دون موافقة ورضا عامة الناس وأنهم ليسوا أهلا له. أما الفرس فقد استعان العباسيون ببعضهم في الوزارة والإدارة، ولكن كان الخلفاء دائما يراقبونهم ولم يتركوهم أحرارا، فإذا تعاضم نفوذهم السياسي والاجتماعي صار القتل والإعدام مصيرهم.

في الحقيقة لم يخالف العباسيون الأمويين في العهد الأول من دولتهم في كثير من المجالات السياسية. فقد تبلورت وتقوت العصبية العباسية التي كان العباسيون لأجلها مستعدين لاستعمال كل ما استطاعوا وكان تحت تصرفهم لحفظها. ومن هنا نجد المركزية السياسية الشديدة قد تكونت، واتباع العباسيون في معترك ولاية العهد الأسلوب الذي سار عليه الأمويون متجاهلين الإرشادات الدينية الصافية في القضية، وعقدوا الولاية لأكثر

من واحد من الأبناء والإخوة، ولم يعتبروا بمن مضى. وكانت قضية ولاية العهد سببا للحرب الأهلية البشعة بين الأخوين الأمين والمأمون. واستعمل العباسيون الشعارات والرموز الدينية ليتقربوا من الناس مهما كانوا في أي إقليم من أقاليم الدولة عاشوا، منها أداء الحج مرات كثيرة، والاهتمام البالغ بمدنيتي مكة والمدينة وسكاهما، والاستماع بعناية إلى الوعاظ والناصحين الناقدين المدينين لهم ولأعمالهم، ثم تصريف الأموال الجزيلة لهم ولمن كان في حاجة إليها.

لقد لاحظ العباسيون أهمية مكانة ودور العلماء في الدولة إذ استطاع هؤلاء أثناء دعوتهم سحق جانب واسع من السمعة الأموية، فيجب أن يكونوا قادرين بالمقابل بناء جانب أوسع من سمعة العباسيين. كما لاحظ العباسيون أنهم كانوا يملكون القاعدة الشعبية في خراسان ولكن هذا المصير لم يكن العالم الإسلامي كله. وبعد تفاقم سوء العلاقات بين العباسيين والفرس، وذلك بعد قتل أبي مسلم الخراساني، أخذ العباسيون ينفصمون عن قاعدتهم الشعبية الأولى، وكذا في المراحل التالية من الدولة. هذا بالإضافة إلى أن العلويين كانوا يشاركونهم في تلك القاعدة. أما بقية أمصار الدولة فكانت ميول الناس فيها متناثرة فمنهم من مال إلى العلويين، ومنهم من ظلّ على تعصيد الأمويين، ومنهم من اعتزل التطورات السياسية اعتزالا تاماً، ومنهم من مال إلى الخوارج ولو كانوا قلة قليلة. وعلى هذا وجد العباسيون أنفسهم بصورة طبيعية أمام حل لا حل غيره، ألا وهو التحالف مع العلماء، وخاصة مع الجماعات القيادية في هؤلاء حينئذ، أي رجال الحديث والفقه وأهل الورع البارزين. وقد تماشى هذا مع اهتمامات الخلفاء البالغة وانشغالهم الشخصي بالعلم ودراسته بغض النظر عن نوعيته وأصالته ومصدريته. وفي ضوء ذلك نرى معظم خلفاء العهد العباسي الأول، ولا سيما الخليفة المأمون، قد درسوا علم الكلام وشيئا من الفقه والحديث والأدب والتاريخ والفلسفة والمنطق.

فنحن إذن أمام مبدئين من المبادئ الرئيسية التي استند العباسيون إليها في حكمهم:
الأول: حصر الحكم في أسرة بني العباس وإخضاع بقية عناصر الدولة لهذا المبدأ. والثاني: التعاون مع العلماء لأجل تحقيق الأمر الأول. وعليه، فقد انصبّ حكام العهد العباسي

الأول على العلماء بغية استجلاب تأييدهم وتعاونهم. وقد عرف الحكام أنهم مع القيادة العلمية الدينية قادرون على كسب تعاطف وتأييد جمهور الناس، وذلك أكثر نفعا وفعالية من أية وسيلة أخرى.

انقسم العلماء في تعاملهم مع حكام العهد العباسي الأول إلى من تعاون تعاوننا تاما وخدم العباسيين في القضاء وسائر مناصب الدولة. وكان من ضمن هؤلاء من رغب في تضيق الفجوة بين العلماء والسلطة بصفة عامة مواجهها للواقع السياسي ومريدا لإصلاحه. وكان من ضمنهم أيضا من تعامل مع السلطة ليرضيها لأجل نيل المنافع والسمعة الشخصية بعيدا عن غايات ومقاصد العلم الشريفة. وبسبب مواقف المجموعة الثانية تباطأت وضعفت واعوجت حيوية تطور الحياة العلمية بشكل عام من جوانب عديدة. فكان يصدر بعض القضاة الفتاوى غير الصحيحة متملقين إلى السلطة، فوضع بنفس الغرض كثير من الأحاديث والروايات التاريخية والقصائد وما شابه ذلك على يد الزنادقة والقصاص وبعض الزهاد. وفي ناحية أخرى ثمة العلماء المحايدون الذين نبذوا العمل مع الحكام وانقطعوا إلى مزاولة الشؤون الدينية الصرفة، كما تصدوا للدراسة والعلم تاركين أمور السياسة في كثير أو قليل. وفي ناحية ثالثة ثمة العلماء المعارضون الذين رفضوا التعامل مع السلطة لأنها كانت في أعينهم فاجرة لم يأت الحكم إليها عن طريق لائق حيث تستشار القيادة العلمية الدينية. وكثيرا ما كان هؤلاء العلماء يتعاطفون مع الأحزاب المعارضة الأخرى، وفي بعض الأوقات يؤيدونها فكريا ومالا، بل في أوقات أخرى يشاركونهم في ثوراتهم الدموية. ولأجل مواقف العلماء هذه أحست السلطة في مرات كثيرة مضطرة إلى أن تضطهدهم وتعذبهم بل تعدهم معلنين أنهم يراعون الأمان والنظام القائم في الدولة. وبعد استقراءنا لكل النصوص والروايات الواردة في الموضوع نصل إلى نتيجة أن العلماء اختلفوا في مواقفهم من الحكام لأجل اختلاف أفهامهم للنصوص الشرعية التي تتحدث عن طاعة الحكام أو عدم طاعتهم في حالة الظلم، والنصوص الأخرى الناهية عن الخروج عليهم والأخرى المؤيدة له والمحرضة عليه. كما أن أحوال أولئك الحكام غير منضبطة وغير ثابتة.

وعليه، نستطيع أن ننوّه هنا عن أمر مهمّ: وهو لم يكن الفصل بين العلماء والحكام شاملاً، بل إنّما تمّ بين قيادات العلماء الحقيقية للأمة وبين الحكام، وحتى كانت تقع بينهما التقاربات والالتقائات من حين إلى آخر. ومن الأسباب التي أدّت إلى ظهور واستفحال هذا الداء على صعيد المجتمع الإسلامي، ما يلي:

1. تورّع العلماء عن تولي القضاء وسائر مناصب الدولة حتّى في زمن الخلفاء الراشدين، بما أنّ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد نبّه إلى خطر وعظمة مسئولية تولي شؤون المسلمين في أكثر من حديث. فلما زالت الخلافة الراشدة وأفضى الحكم إلى الأمويين ثم العباسيين تشدد العلماء في رفض تولي مناصب الدولة، بل رفض بعضهم التعامل الحسن على الإطلاق، خوفاً على أنفسهم ودينهم إذ أنّ تقريباً كلّ شيء أصبح خاضعاً لمقاصد السياسية ورجالها.

2. رفع العباسيين عدداً من الشعارات الإسلامية الجذابة أثناء دعوتهم ضدّ الأمويين. بما تعاضم تأييد حركتهم وكثر أتباعهم. ولكن، عندما أدرك الناس، بما فيهم العلماء، أنّ الحكم في حقيقة الأمر قد تحول من أسرة إلى أخرى دون تغييرات جذرية بدتوا يتولون عنهم، وتولّى عنهم عدد من العلماء خائفين أنّ يستغلّهم الحكام وعلمهم لمطامعهم السياسية. وفي هذه الظروف الشائكة بدأ العلماء، بمعزل عن السلطة ونفوذها يتفرغون لنشاطات دينية وعلمية متباعدة استيفاءً لأمانتها، وكان ذلك ممكناً باعتبار على أنّ مصادر الإسلام كانت مستقلّة وفي متناول كلّ واحد. وكان العلماء في معظم الحالات يستخدمون المسجد لأداء فعاليتهم وتسيير سائر شؤونهم تجاه الرعية، بما أنّ المسجد بيت الله تعالى، كما هو بيت الجماعة وبيت كلّ واحد منهم على حدة. وعليه، لم يلبث أن صارت المساجد في كافّة زوايا الدولة الإسلامية معاهد للتعليم، وتدارس القرآن الكريم والسنة، ومحلاً للتذاكر، والإفتاء، والدعوة الإسلامية. إنّ هذه الجهود والخدمات المتناثرة التي في الحقيقة استهلّت منذ الأطوار الأولى من الدولة الأموية بدأت تنظم وتتطور إلى تيارات ومدارس علمية، فقهية وكلامية وتفسيرية وصوفية، على المستويين المحلي والإقليمي.

3. ضعف فهم الدين فهما صحيحا وعميقا المقرون بضعف الالتزام بإرشادات الدين وتدهور الأخلاق لدى بعض العلماء والحكام،
4. ضعف الرغبة في إحراز وتطبيق مقاصد وأهداف السياسية الشرعية وفق سنة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين لدى بعض الحكام،
5. إخضاع الدين للسياسة، لا عكس كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، لدى بعض الحكام،
6. تعامل بعض العلماء من أصحاب الأهواء مع السلطة لأجل نيل الفوائد الدنيوية، بالإضافة إلى استغلال بعض الحكام إياهم لتنفيذ برامجهم السياسية.

لقد شهد العصر العباسي الأول اشتداد ظاهري الشعبي والزندقة اللتان وضعت جذورهما في الدولة الأموية. وذلك لأن العباسيين استندوا إلى الفرس في إسقاط الدولة الأموية، ولم يفرقوا حينئذ كثيرا بين من أسلم وصار مسلما حق إسلامه، ومن أسلم ولم يلج الإيمان في قلبه، ومن أسلم نفاقا منتظرا فرصا سانحة لإظهار دينه الفارسي القديم. وبعد نجاح الثورة العباسية بدأ الفرس - على خلاف شعورهم تجاه الإسلام والمسلمين - يتسللون في جهاز الدولة. ولما أبدى العباسيون عصبيتهم العربية عامة والعباسية خاصة تحمل من الفرس من تكبر نفوذه السياسي والاجتماعي وكان له طموح أرقى من ذلك. فأعدم أو أهين أو أذل أكثرهم نفوذا وشهرة وعونا للدولة الجديدة. إن العباسيين لم يستطيعوا في الحقيقة أن ينفكوا عن الفرس إذ كانوا قاعدتهم الشعبية في خراسان وسند ثورتهم قبل نشأة الدولة، ودعامة حكمهم بعد نشأتها، وكان لأجل ذلك من الأفضل تقليل وتضعيف نفوذهم، ومراقبة تصرفاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وإن هذا كان حافزا مضافا للشعور التدمري الثوري لدى كثير منهم، فبدأوا يظهرن جهرًا شعوبيتهم وزندقتهم.

وانقسم الشعبيون والزنادقة إلى الثوار الذين خرجوا على الحكم العباسي بالسيف وجهروا بكرهيتهم للإسلام والعرب ورغبتهم في إعادة العز والملك الفارسيين، والمسلمون الذين ظلوا في خدمة الدولة العباسية مخفين شعورهم الحقيقي الذي لم يخالف شعور

الشعوبيين والزنادقة الثوار. ولذلك اتخذت مكافحة الحكام لهاتين الظاهرتين شكلين: السيف، والفكر أي الجدل. ولما كان الحكام قادرين أن يعتمدوا على جيوشهم في الشكل الأول من المقاومة فإنهم في الشكل الثاني كانوا محتاجين إلى من لا يحمل السيف، بل يملك العلم والقدرة على الجدل والمناظرة، وهم العلماء. كان هذا دون مرء من أهم عوامل استفحال علم الكلام في خضم الفكر الإسلامي وتزاحم علماء المسلمين إلى مزاولته وإتقانه. ولأجل اعتماد الشعوبيين والزنادقة على الفلسفات والأديان القديمة المتأصلة على الأرضية المنطقية الجدلية الصلبة، صار طبيعياً أن يبرز دور المعتزلة الذين كانوا في جبهة علماء علم الكلام، والذين أتقنوا المنطق والفلسفة اليونانية وبرعوا واشتهروا لأجل ذلك في ميدان المناظرة والجدل.

لم تكن مكانة ونفوذ المعتزلة في العهد العباسي الأول تعلو غيرهم من العلماء إلا بعد وصول المأمون إلى الحكم، إلا أن هذا لا يعني أنها لم تكن بارزة قبل خلافة المأمون، كلا. وذلك لأن المأمون نفسه صار معتزلياً وحاول أن يفرض الاعتزال على كل الناس. وهنا اقترف المأمون أكبر الأخطاء أثناء حكمه لأنه لم يعتبر بمن مضى من الحكام الذين حاولوا أن يتدخلوا ويؤثروا في حيوية الحياة العلمية ويفرضوا أمراً مشى ضد القوانين المتسلطة فيها، ولا مشروعية أصلاً لهم في ذلك. لم يعتبر مثلاً بالخليفة المنصور الذي طلب من مالك بن أنس أن يضع له كتاباً ثم يحمل الناس عليه أو يرسله إلى كل مصر من أمصار الدولة الإسلامية ثم يأمر الناس أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فرفض مالك. ولم يعتبر مثلاً بهارون الرشيد الذي طلب من مالك أن يعلق الموطأ على الكعبة ويحمل الناس على ما فيه، فرفض مالك. ولم يعتبر مثلاً بالمهدي الذي فشل في أن يعين قاضياً على مذهب أبي حنيفة في مصر لأن المصريين لم يرتضوا به، وإلى غير ذلك من الأمثلة.

وقد ترتب على تحمس المأمون لمذهب الاعتزال أن امتحن أبرز علماء عصره في القرآن: أمخلوق هو أم قديم؟ وقد تحمل من رفض أن يقبل أنه مخلوق، كما كان زعم علماء المعتزلة، ومنهم أحد أئمة الفقه الأربعة أحمد بن حنبل. نقول أن محنة خلق القرآن مثلت عنفوان الصراع بين العلماء والحكام في العهد العباسي الأول من جانب، وعنقوان

الصراع بين المعتزلة وعلماء أهل السنة والجماعة من جانب آخر. ولأجل متانة وصلابة وقوامة الأسس التي انبنت عليها الحياة العلمية في عهد الخليفة المتوكل انهم علماء المعتزلة ورجال السلطة معهم، أي ممن كان يتشفع لهم ولمذهبهم. وقد خرجوا من الصراع المذكور مفضوحين ناكسين رؤوسهم. وفي ناحية أخرى ارتقت وتقوت سمعة علماء أهل السنة والجماعة، وصاروا كلهم صناديد وأبطالاً فائزين في عيون جمهور الناس.

إن موضوع الفصل بين العلماء والحكام عبر التاريخ الإسلامي في غاية الأهمية ويحتاج إلى دراسات كثيرة ومتوافرة. وإنني حاولت قدر ما استطعت أن أستقرأ هذا الموضوع في العهد العباسي الأول وأطرح بعض الأفكار التي تستطيع على الأقل أن توقظ وتحرك وعينا وشعورنا نحو أهمية فقه واستيعاب هذه القضية في معالجتنا لأزمنا الفكرية الحالية. وأنا على وعي تام أن هذا البحث لا يخلو من قصور بل في حاجة إلى نقد وتصحيح وتطوير. وأنا كذلك آمل أن الأفكار والتحليلات المعروضة يمكن أن تدفع من عثر عليها وتدبرها إلى دراسة التاريخ الإسلامي بأكثر موضوعية وفعالية، كما يمكن - نتمنى - أن يسهم إسهاما مفيدا في حركة تطور الفكر الإسلامي المعاصر.

وفي النهاية أريد أن أقترح ثلاثة أشياء:

1. أن تكثر الدراسات والبحوث حول موضوع العلاقات بين العلماء والحكام في التاريخ الإسلامي لأن العلماء والحكام يمثلون صنفين هامين في كل مجتمع إذا صلحا صلح الناس جميعا، وإذا فسدا فسد الناس جميعا، ولأن توتر العلاقات بينهما كان من أكثر العوامل إسهاما في تدهور وانحطاط الحضارة الإسلامية، وبالتالي، كل محاولات الإصلاح لوضع الأمة الإسلامية في كل مكان وزمان لن تنجح إلا إذا اهتم المصلحون بهذه القضية اهتماما وافيا.

2. أن تطور منهجية إسلامية خاصة لدراسة هذا الموضوع لكي يتمكن الباحث من التوصل إلى نتائج موضوعية صحيحة سليمة، بحيث أنه سيكون قادرا على الرد على من حاول من أصحاب الأهواء من المسلمين وغيرهم أن يشوه التاريخ الإسلامي ويساوي

بين الفصل بين العلماء والحكام فيه وبين الفصل بين الدين والدولة في تاريخ وحاضر الغرب المسيحي.

3. أن يشرع في تنقية المصادر التاريخية الإسلامية من الكذب والروايات المزورة ليتسنى للباحث أن يدرس ويفهم التاريخ الإسلامي فهما صحيحا وبعيدا عما أثاره أعداء الإسلام والمسلمين من الشبهات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.